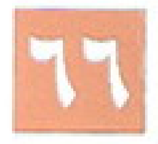
النص الكامل
الطبعة القانونية الأولى والوحيدة باللغة العربية

أغاثا كريستي

في فُنْدُق بيرْتَرام









في فُنْدق بيرْترَام

حينما جاءت الآنسة ماربل إلى لندن لقضاء إجازة خاصة وجدت في فندق بيرترام كل ما تريد: الجو التقليدي والخدمة الراقية وذكريات الأيام القديمة.

لكن حاستها التي لا تخطئ تستشعر جواً من الخطر وراء المظاهر الخارجية البرّاقة للأشياء من حولها!

ما هي العلاقة الخفية التي تربط سلسلة من أعمال العنف والجريمة بتلك الحادثة البسيطة: خروج واحد من ضيوف الفندق المحترمين للسفر متأخراً عن موعده؟

رواية جديدة من روايات الكاتبة العملاقة التي تُعتبَر أعظم مؤلفة في التاريخ من حيثُ انتشار كتبها وعدد ما بيع منها من نسخ، وهي -بلا جدال- أشهر مَن كتب قصص الجريمة في القرن العشرين وفي سائر العصور. وقد تُرجمت رواياتها إلى معظم اللغات الحية، وقارب عدد ما طُبع منها ألفَي مليون نسخة!

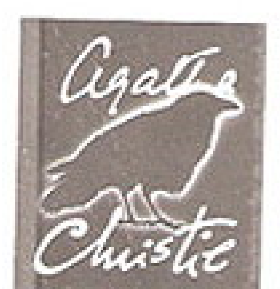
Agatha
Christie



At Bertram's Hotel

MARPLE

الآنسة ماربل





الفصل الأول

تنتشر في قلب منطقة الوِست إند في لندن شبكةٌ من الأزقة الهادئة التي لا يكاد يعرفها إلاّ سائقو سيارات الأجرة الذين يجوبونها بخبرة ودراية ويعبرونها بنجاح إلى بارك لين أو ساحة بيركلي، وإذا ما مشيت من ناحية هايد بارك فدخلت واحداً من تلك الأزقة ثم انعطفتَ يساراً ثم يميناً مرّة أو اثنتين فسوف تجد نفسك في شارع هادئ يقع على جانبه الأيمن فندق بيرترام.

كان فندق بيرترام هناك منذ زمن طويل. في أثناء الحرب دُمّرت البيوت القائمة عن يمينه وقليلٌ من البيوت عن يساره، ولكن الفندق نفسه لم يتضرر كثيراً. طبيعي أنه كان من غير الممكن تجنّب إصابته أو خدشه كما يقول وكلاء العقار، لكن إنفاق مبلغ معقول من المال عليه أعاده إلى حالته الأصلية. وبحلول عام ١٩٥٥ بدا الفندق كما كان في عام ١٩٣٩ تماماً؛ على درجة عالية من الفخامة والجلال.

هكذا كان فندق بيرترام، يؤمّه على مدى سنوات طوال أبناء الطبقات العليا والسيداتُ من أرامل النبلاء من الطبقة الأرستقراطية في البلاد، وفتياتٌ في طريق العودة إلى بيوتهن لقضاء العطلة بعد انتهاء الدراسة في مدارسهن الفاخرة. كانت في لندن أماكن قليلة

جداً تستطيع الفتاة الإقامة فيها بمفردها، وبالطبع فإن فندق بيرترام واحد من هذه الأماكن.

في الماضي كان كثير من الفنادق الأخرى على نمط فندق بيرترام، وبعضها ما زال موجوداً، ولكنها كلها تقريباً قد شملتها رياح التغيير؛ إذ كان من الضروري أن يتمّ تحديثها من أجل خدمة نوعية مختلفة من العملاء. فندق بيرترام أيضاً كان عليه أن يتغير، ولكن التغير تمّ بصورة ذكية جداً بحيث لم يكُن ظاهراً من النظرة العرَضية الأولى أبداً.

خارج الدرجات التي كانت تصعد بك وصولاً إلى أبوابٍ دوّارة كبيرة وقف رجلٌ يبدو من الوهلة الأولى أنه ليس أقلّ من فيلدمارشال؛ فقد كانت تزيّن صدرَه العريض أشرطةٌ ذهبية وأوسمة كثيرة، وكان مسلكه رائعاً؛ يستقبلك باهتمام رقيق عندما تخرج متثاقلاً من سيارة الأجرة أو السيارة الخاصة ويرشدك بعناية إلى صعود الدرجات ويقودك من خلال الباب الدوّار. وفي الداخل -إذا كانت هذه هي المرة الأولى التي تزور فيها فندق بيرترام- تشعر بنوع من الاستغراب لأنك قد دخلت إلى عالَم قديم وكأن الزمن عاد إلى الوراء، إلى إنكلترا أيام الملك إدوارد!

بالطبع كانت هناك تدفئة مركزية ولكنها لم تكُن ظاهرة، أما في القاعة الرئيسية الكبيرة فقد وضعوا مدفئتَي فحم جميلتين وبجانبهما دِلاء فحم نحاسية كبيرة تشعّ بالطريقة التي كانت تشعّ بها عندما كانت خادمات العصر الإدواردي يلمّعنها، وكانت هذه الدلاء ممتلئة بقطع الفحم. كان المظهر العام في القاعة يتميّز بكثرة

المخمل الأحمر والنسيج المترَف الفاخر، ولم تكُن المقاعد من نوع مقاعد هذا العصر؛ بل كانت ترتفع عن الأرض بدرجة مقبولة بحيث لا تُلزِم السيدات العجائز اللائي يعانين من آلام العظام بأن يصارعن بطريقة ينقصها الوقار من أجل أن ينزلن منها على أقدامهن! لم تكُن ارتفاعات المقاعد فوق مستوى الركبة مثل كثير من المقاعد الحديثة الغالية التي تسبب الكرْبَ لهؤلاء الذين يعانون من التهاب المفاصل وعرق النسا، وكذلك لم تكُن كلها من نمط واحد، بل كان بينها مقاعد ذات مسند مستقيم وأخرى ذات مساند منحنية إلى الوراء، وكانت مختلفة الاتساعات لكي تناسب النحيف والبدين... جميع الأشخاص من كل الأحجام تقريباً كان بوسعهم أن يجدوا كرسياً مريحاً في فندق بيرترام.

وحيث إن الساعة الآن هي ساعة تناول الشاي فقد كانت القاعة ممتلئة. لم تكُن القاعة هي المكان الوحيد الذي يمكنك أن تتناول فيه الشاي، بل كان هذا ممكناً أيضاً في غرفة الاستقبال وغرفة التدخين (التي كانت محجوزة للرجال فقط بتأثير خفيّ غير مُعلَن) حيث توجد كراسي واسعة من الجلد الناعم، وفي أي واحدة من غرفتَي الكتابة حيث يمكنك أن تأخذ صديقاً خاصاً وتتحادث معه حديثاً دافئاً في زاوية هادئة، وأيضاً تستطيع أن تكتب رسالة إذا أردت.

وإلى جانب وسائل الراحة هذه التي تعود إلى العصر الإدواردي كانت هناك أماكن أخرى لم يكُن معلَناً عنها بأية حال، ولكنها كانت معروفة لهؤلاء الذين يريدونها. كان هناك مقهى مزدوج يخدمه نادلان أحدهما أمريكي لكي يجعل الأمريكيين يشعرون أنهم في وطنهم ولكي يزوّدهم بما يألفون من ضيافة، وآخر إنكليزي لكي يتعامل مع

أنواع الضيافة التي يألفها الإنكليز ولكي يتحدث بكفاءة عن المتسابقين في أسكوت ونيوبري للرجال متوسطي العمر الذين يقيمون في فندق بيرترام من أجل حضور سباقات الخيول. وكانت هناك أيضاً غرفة خفيّة لمشاهدة التلفاز لهؤلاء الذين كانوا يسألون عنه.

ولكن قاعة المدخل الكبرى كانت هي المكان المفضّل لشرب شاي بعد الظهر، وكانت السيدات العجائز يتمتّعن برؤية الداخل والخارج ويتعرفن على الأصدقاء القدامى ويعلّقن على أعمار هؤلاء الأصدقاء بطريقة هازئة. وأيضاً كان هناك زوّار أمريكيون مفتونون برؤية الإنكليز من ذوي الألقاب وهم يتناولون شاي بعد الظهر التقليدي؛ ذلك أن شاي بعد الظهر كان إحدى الخصائص المميزة لفندق بيرترام.

كان أقلّ ما يُقال عن هذا الفندق أنه رائع. وكان المشرف على تلك الطقوس رجل اسمه هنري، فارع ضخم الجثة في الخمسين من عمره، ودود ولطيف وله طبائع تلك النوعية من البشر التي اختفت منذ زمن طويل، نوعية كبار الخدم المثاليّين. أما العمل نفسه فقد كان يقوم به شباب نحاف بتوجيهات صارمة من هنري. كانت هناك صِحاف فضّية كبيرة مرسوم عليها شعار الفندق وأباريق شاي فضية من عصر الملك جورج، وإذا لم يكُن الفخار الصيني فعلياً من روكنغهام وديفينبورت فقد كان يبدو كذلك فعلاً، وكانت أدوات المائدة من نوعية البلايند إيرل هي المفضّلة بصورة خاصة، وكان الشاي من أفضل أنواع الشاي الهندي والسيلاني والدارجيلنغ واللابسانغ... أما المأكولات فقد كان بوسعك أن تطلب أيّ شيء تحبه فتجده متوفراً لديهم!

في ذلك اليوم بالذات، السابع عشر من تشرين الثاني (توفمبر)، كانت الليدي سيلينا هيزي البالغة من العمر خمساً وستين سنة والقادمة من لايسِسْترشاير تأكل باستمتاع كامل فطائر الموفينيه الرقيقة اللذيذة والمقلية بالزبد، ومع ذلك لم يكُن انهماكها في أكل فطائر الموفينيه ليلهيها عن أن تنظر بتمعّن في كل مرة يدور فيها الباب إلى الداخل سامحاً بقدوم شخص جديد.

وهكذا ابتسمت وهزّت رأسها مرحّبةً بالكولونيل لاسكومب المنتصب القامة كالجندي وقد علّق منظار السباق حول عنقه، وعندما أومأت برأسها إليه بصورة ملوكية تناسب وضعها المتحفظ جاء لاسكومب إليها في الحال ثم قال: مرحباً يا سيلينا، ما الذي جاء بك إلى هذه المدينة؟

فردّت الليدي سيلينا على نحو غير واضح بسبب فطائر الموفينيه قائلة: طبيب الأسنان... وبما أنني هنا فقد فكرت في أن أذهب لأرى ذلك الطبيب في شارع هارلي بخصوص التهاب المفاصل. أظنك تعرف مَن أقصد.

ورغم أن شارع هارلي كان يضمّ عدة مئات من الأطباء المرموقين المتخصصين في جميع أنواع الأمراض إلاّ أن لاسكومب عرف فعلاً مَن الذي كانت تقصده، فسألها قائلاً: هل أفادك بشيء؟

فقالت سيلينا متذمرة: نعم، إلى حدّ ما. إنه رجل غريب؛ لقد أمسكني من رقبتي على حين غرّة ولواها مثل الدجاجة.

قالت ذلك وحركت رقبتها بنشاط فقال: هل تأذيت؟

- لا بدّ أن يسبب لَوْيُها بهذه الطريقة الأذى، ولكن في الحقيقة لم يكُن عندي الوقت لكي أدرك.

واستمرت في تحريك رقبتها بنشاط قائلة: كما أنني أشعر بأنني على ما يرام؛ أستطيع أن أنظر من فوق كتفي الأيمن لأول مرّة منذ سنوات.

طبقت ذلك بشكل عملي وأدارت رقبتها إلى اليمين ثم صاحت قائلة: يا إلهي، هذه جين ماربل العجوز! لقد ظننت أنها ماتت منذ سنوات... يبدو عمرها مئة عام!

نظر الكولونيل لاسكومب في اتجاه جين ماربل التي بدت وكأنها قد بُعثت إلى الحياة من جديد، ولكن نظرته لم تكُن باهتمام كبير لأنّ فندق بيرترام كان دائماً يغصّ بما كان يسمّيه «القطط العجائز».

تابعت الليدي سيلينا حديثها قائلة: هذا هو المكان الوحيد في لندن الذي تستطيع فيه الحصول على فطائر الموفينيه... فطائر الموفينيه الحقيقية. هل تعرف أنني عندما ذهبت إلى أمريكا في السنة الماضية كان عندهم شيء يسمونه فطائر موفينيه في قائمة طعام الإفطار؟ لم يكُن موفينيه حقيقياً على الإطلاق بل كان نوعاً من كعك الشاي وعليه زبيب. لا أعرف لماذا يسمّونه موفينيه!

التهمت آخر لقمة بالزبد ونظرت حولها بغموض، وفي الحال برز هنري أمامها، ليس بسرعة أو باستعجال ولكن بشكل مفاجئ. قال لها: هل أحضر لك أيّ شيء آخر يا سيدتي؟ كعكاً من أيّ نوع؟

- كعكاً؟

فكّرت الليدي سيلينا بشيء من التشكك فقال: نحن نقدّم كعكة بذرية ممتازة يا سيدتي، وأنصحك بها.

- كعكة بذرية؟ أنا لم آكل كعكة بذرية منذ سنوات. هل هي كعكة بذرية حقيقية؟

- بالطبع يا سيدتي، الطاهي لديه طريقة صنعها منذ سنوات وسوف تتلذذين بها حقاً، أنا متأكد من ذلك.

ونظر هنري إلى واحد من حاشيته فغادر الفتى ليحضر الكعكة البذرية.

* * *

قال لاسكومب مخاطباً ديريك: أظن أنك كنت في نيوبري يا ديريك، أليس كذلك؟

- بلى، لكن البرد هناك لعين! لم أنتظر لأحضر آخر سباقين. كان يوماً مشؤوماً فلم تكُن مهرة هاري جيّدة إطلاقاً.

- لم أعتقد أنها ستكون جيّدة. وماذا عن سوانهيلدا؟

- احتلّت المركز الرابع.

ولم يلبث لاسكومب أن نهض قائلاً: سأذهب لأرى غرفتي.

واجتاز القاعة إلى مكتب الاستقبال، وبينما كان ذاهباً نظر إلى الطاولات وشاغليها. عدد مذهل من الناس كانوا يتناولون

الشاي؛ تماماً مثل الأيام الخوالي. لقد انتهى عهد الشاي كوجبة منذ زمن الحرب، ولكن من الواضح أن ذلك لم يكُن الحال في فندق بيرترام. مَن كل هؤلاء الناس؟ كاهنان رفيعا المقام وعميد كاتدرائية شيزلهامبتون يجلسون هناك في الزاوية. قال في نفسه مفكّراً: لا يستطيع تحمّل نفقات فندق بيرترام إلاّ كاهن رفيع المقام، فرجال الدين من الطبقة الدنيا لا يستطيعون ذلك بالتأكيد لأنهم فقراء.

وتساءل كيف يستطيع أناس مثل سيلينا هيزي العجوز تحمل ذلك وقد كان دخلها السنوي ضئيلاً للغاية! وأيضاً الليدي بري والسيدة بوسيلثويت من سومرست وسيبيل كير... كلهنّ فقيرات مثل فئران الكنائس!

وصل إلى مكتب الاستقبال وهو لا يزال يفكر في ذلك، وحيّته الآنسة غوربنج موظّفة الاستقبال بسرور. كانت صديقة قديمة وتعرف كل واحد من عملاء الفندق، وكانت لا تنسى أيّ وجه أبداً. بدت رثة الملابس ولكن محترَمة، شعرها أصفر مجعّد تضع فيه حبّاسات قديمة الطراز، وكانت ملابسها سوداء حريرية وقد ارتدت قلادة ذهبية كبيرة فيها حجر من الأحجار الكريمة.

قالت الآنسة غوربنج: رقم ١٤، أظن أنك كنت تقيم في الغرفة رقم ١٤ في المرة الأخيرة يا كولونيل لاسكومب وأنها أعجبتك؛ فهي غرفة هادئة.

- كيف تستطيعين تذكر هذه الأشياء دائماً؟! لا يمكنني تصوّر ذلك يا آنسة غوربنج!

- نحن نحب أن نجعل أصدقاءنا القدامى مرتاحين.

- إن المجيء إلى هنا يعيدني إلى الماضي البعيد... يبدو أنه لا شيء تغير.

وتوقف فجأة في حين كان السيد همفريز يأتي خارجاً من حجرة داخلية لتحيته. وقد كان غير العارفين ببواطن الأمور يظنون أن السيد همفريز هو السيد بيرترام شخصياً. مَن كان السيد بيرترام الحقيقي؟ في الحقيقة إذا كان يوجد مَن يُدعى السيد بيرترام فسيكون الآن قد ضاع في ثنايا العصور القديمة. لقد وُجد فندق بيرترام منذ عام ١٨٤٠، ولكن لا أحد يهتمّ بتعقّب تاريخه الماضي. لقد كان موجوداً وملموساً فقط، وعندما كان السيد همفريز يخاطَب ويُنادى باسم «السيد بيرترام» لم يكُن يصحّح الفهم قط، فإذا كانوا قد أرادوه أن يكون السيد بيرترام فسيكون السيد بيرترام.

كان الكولونيل لاسكومب يعرف اسمه على الرغم من أنه لم يكُن يعرف إذا كان همفريز هو المدير أو صاحب الفندق، ولكنه كان يظن أنه الاحتمال الثاني.

كان السيد همفريز في نحو الخمسين من عمره ذا أخلاق ممتازة، وكان ذا حضور بين الناس كأنه وزير صغير. كان يستطيع في أية لحظة أن يكون كل الأشياء لكل الناس؛ فهو يستطيع أن يتحدث عن السباق والتسوق والكريكيت والسياسة الخارجية ويحكي قصصاً عن الأسرة المالكة ويعطي معلومات عن معرض السيارات السنوي، وكان يعرف أكثر المسرحيات إثارة في وقتها وكان ينصح الأمريكيين بالأماكن التي يتوجب عليهم رؤيتها في إنكلترا مهما كانت إقامتهم قصيرة... كانت عنده معلومات غزيرة عن الأماكن التي يمكن أن

يتناول فيها الناس طعامهم حسب دخلهم وأذواقهم، ومع كل هذا لم يجعل نفسه رخيصاً؛ لم يكُن في المتناوَل طوال الوقت. وكانت الآنسة غورينج تمتلك نفس الخصائص تقريباً لكنها كانت جاهزة وتستطيع أن تعطيها بكفاءة في أيّ وقت.

ومن وقت لآخر كان السيد همفريز يظهر مثل الشمس فوق الأفق ويُطري شخصاً ما بمجاملة رقيقة. هذه المرة كان الكولونيل لاسكومب هو الذي حظي بهذا الشرف، فتبادلا بعض الملاحظات التافهة حول السباق. لكن الكولونيل لاسكومب كان مستغرقاً في مشكلة ما، وها هو الرجل الذي يستطيع أن يعطيه الإجابة.

سأله لاسكومب: أخبرني يا همفريز، كيف يستطيع هؤلاء العجائز جميعاً الإقامة هنا؟

- ماذا؟ هل كنتَ تتعجب من ذلك؟

بدا السيد همفريز مَرِحاً وهو يجيب: حسناً، الإجابة بسيطة: إنهنّ لا يستطِعن تحمّل نفقات الفندق إلاّ إذا...

ثم توقف لحظة فقال لاسكومب: إلاّ إذا أعطيتَهن أسعاراً خاصة، أليس كذلك؟

- تقريباً. وهنّ في العادة لا يعرفنَ أن لهنّ أسعاراً خاصة، ولو عرفنَ ذلك لاعتقدن أن هذا لأنهن عميلات قديمات للفندق.

- والأمر ليس بهذه البساطة، أليس كذلك؟

- حسناً يا كولونيل لاسكومب، أنا -كمدير فندق- لا أستطيع تحمل الخسارة في الحقيقة.

- ولكن كيف يعود هذا بالفائدة عليك؟

إنها مسألة جوّ؛ فالأجانب يأتون إلى هذا البلد (والأمريكيون منهم بصورة خاصة لأنهم هم الذين يملكون الكثير من المال) وعندهم أفكار غريبة عن إنكلترا. لا أقصد ملوك المال الأغنياء الذين يعبرون المحيط الأطلسي دائماً، فهؤلاء يذهبون إلى فندق سافوي عادة أو فندق دورشستر وهم يريدون تصميمات حديثة وطعاماً أمريكياً وكل الأشياء التي تجعلهم يشعرون أنهم في وطنهم. ولكن هناك الكثير من الناس الذين يأتون في إجازات نادرة ويتوقعون أن يكون هذا البلد... حسناً، لن أعود إلى الماضي إلى زمن تشارلز ديكنز، ولكنهم قرؤوا كتباً لكرانفورد وهنري جيمس وهم لا يريدون أن يجدوا هذا البلد مثل بلدهم تماماً، وهكذا يعودون إلى أوطانهم بعد ذلك ويقولون: "هناك مكان رائع في لندن يسمّى فندق بيرترام، وهو مثل العودة إلى الوراء مئة عام تماماً. إنه إنكلترا مثلما كانت قديماً! والناس الذين يقيمون فيه أناس لا تقابلهم في أيّ مكان آخر أبداً: دوقات عجائز رائعات... وفي هذا الفندق يقدّمون جميع الأطعمة الإنكليزية القديمة والشاي على الطريقة الإنكليزية القديمة والإفطار الإنكليزي الرائع، وأيضاً جميع الأشياء الأخرى العادية بالطبع، وهو مريح بصورة رائعة ودافئ ولديهم مواقد خشبية كبيرة...".

أوقف السيد همفريز تمثيله وسمح لنفسه بشيء قريب من الضحكة فقال لاسكومب مفكّراً: فهمت، هؤلاء الناس الأرستقراطيون القدامى وفقراء العائلات الراقية العريقة هم عناصر المشهد، أليس كذلك؟

هزّ السيد همفريز رأسه موافقاً وقال: في الحقيقة أنا أتعجب إذ لم يفكّر أحدٌ في ذلك! بالطبع وجدت أن فندق بيرترام كان على هذه الحال من قبل، وكل الذي كان يحتاجه هو شيء من التجديد ببعض النفقات المكلّفة. جميع الناس الذي يأتون إلى هنا يعتقدون أنه شيء اكتشفوه بأنفسهم ولا أحدَ غيرهم يعرف عنه.

- أحسب أن تجديده كان مكلّفاً جداً؟

- نعم بالطبع؛ لقد تمّ تجديده بطريقة تجعله يبدو وكأنه من العصر الإدواردي، ولكنه يحتوي على وسائل الراحة الحديثة التي نعتبرها ضرورية في هذه الأيام، فلا بد لعجائزنا العزيزات (أرجو أن تعذرني أن سمّيتهن كذلك) أن يشعرن بأنه لم يتغير شيء في الفندق منذ بداية القرن، ولا بد لعملائنا المسافرين أن يشعروا أنهم يعيشون في بيئة ذلك العهد، ورغم ذلك لديهم ما اعتادوا أن يكون لديهم في بلدهم مما لا يستطيعون العيش دونه.

قال لاسكومب: أظن هذا صعباً إلى حدّ ما في بعض الأحيان.

- ليس صعباً في الحقيقة. خذ التدفئة المركزية على سبيل المثال، فالأمريكيون يطلبون (أو بالأحرى يحتاجون) أن تكون التدفئة أعلى بخمس درجات على الأقل مما يطلبه الإنكليز. في الحقيقة نحن نملك مجموعتين مختلفتين تماماً من غرف النوم، فنضع الإنكليز في مجموعة والأمريكيين في الأخرى- في الظاهر تبدو الغرف كلها متشابهة ولكنها مليئة بالاختلافات الفعلية، كما تتوفر ماكينات الحلاقة الكهربائية وأحواض الاستحمام في بعض

الحمّامات. وإذا أردت إفطاراً أمريكياً فهو موجود، وهو طعام من الحبوب وعصير البرتقال المثلّج وكل شيء، أما إذا كنت تفضّل الإفطار الإنكليزي فلك ما تريد.

- أتقصد البيض واللحم؟

- كما تقول، ولكن لدينا أكثر من ذلك إذا كنت تريده؛ سمك السلمون ولحم طير الطيهوج البارد ومُربّى أكسفورد...

- يجب أن أتذكر كل ذلك غداً صباحاً فأنا لم أعُد أحصل على مثل هذه الأشياء في موطني.

ابتسم همفريز وقال: معظم الرجال يطلبون البيض واللحم فقط، وهم... حسناً، لقد أقلعوا عن التفكير في الأشياء التي اعتادوها قديماً.

- أجل، أجل، أتذكّر عندما كنت طفلاً أن المائدة كانت تمتلئ بالأطباق الساخنة. لقد كان أسلوب حياة مرفّهاً.

- نحن نحاول أن نوفر للناس أيّ شيء يطلبونه.

- بما فيه الكعكة البذرية وفطيرة الموفينيه... نعم، أفهم هذا؛ كل واحد حسب حاجته.

واستدار الكولونيل لاسكومب مبتعداً وهو يأخذ المفتاح الذي قدّمته له الآنسة غورينج، فقفز خادم صبيّ واقفاً وأرشده إلى المصعد، ورأى وهو يمرّ أن الليدي سيلينا هيزي كانت تجلس مع صديقتها جين ماربل.

❁ ❁ ❁

الفصل الثاني

كانت الليدي سيلينا تسأل: أظن أنك ما زلت تعيشين في تلك القرية اللطيفة المسماة سينت ميري ميد؟ إنها قرية جميلة غير ملوّثة وكثيراً ما أفكّر فيها، أظن أنها باقية كما هي، أليس كذلك؟

- حسناً، ليس تماماً.

فكّرت الآنسة ماربل في مظاهر معيّنة لقريتها التي تسكن فيها: المباني الجديدة والإضافات التي تمّ عملها على مبنى البلدية والمظهر المتغيّر للشارع الرئيسي الذي يحتوي واجهات محلّات حديثة... ثم تنهدت وقالت: أحسب أن على المرء أن يتقبل التغيير.

قالت الليدي سيلينا بغموض: إنه التقدم، على الرغم من أنه يبدو لي أن هذا ليس تقدماً. كل هذه السباكة والأدوات الصحية الأنيقة التي يستعملونها هذه الأيام وجميع الألوان والدهانات الفاخرة أو ما يسمّونه «أعمال التشطيبات»... هل يعمل هذا كله بكفاءة؟ في كل مرّة تذهبين إلى بيت صديق تجدين لوحة تقول: «اضغط بقوة» أو «اسحب إلى اليسار» أو «اتركه بسرعة»... أما في

الأيام القديمة فكان الواحد يسحب فقط مَقبضاً بأية طريقة فتأتي شلالات الماء على الفور.

انغمست المرأتان في حديث مقتضَب عن الأيام القديمة، وتضمّن ذلك تعرّف الليدي سيلينا إلى أصدقاء ومعارف متنوعين لم يكن كثيرٌ منهم هم الأشخاص الذين كانت تعتقد أنهم هم في الحقيقة. تحدثت هي والآنسة ماربل عن تلك «الأيام الخوالي» على الرغم من أن نشأة الآنسة ماربل كانت مختلفة تماماً عن نشأة الليدي سيلينا بالطبع، فقد اقتصرت ذكرياتهما بصورة رئيسية على السنوات القليلة التي كانت الليدي سيلينا فيها مترملة حديثاً وتعاني من أزمة مالية شديدة، وقد اتخذت لنفسها بيتاً في قرية سينت ميري ميد عندما كان ابنها الثاني يعمل في مطار قريب.

قالت الليدي سيلينا: هل تقيمين هنا دائماً عندما تأتين إلى لندن يا جين؟ من الغريب أنني لم أرَكِ هنا من قبل!

- آه، في الحقيقة لا؛ فلم أكُن لأتحمّل نفقات ذلك. وعلى أية حال من النادر أن أغادر بيتي في هذه الأيام. في الواقع لقد كان لطفاً كبيراً من زوجة ابن أختي التي ظنت أنها ستكون متعة لي أن أقوم بزيارة قصيرة إلى لندن. إن جوان فتاة لطيفة جداً، بل ربما كان من الخطأ أن أطلق عليها لفظ فتاة.

فكّرت الآنسة ماربل بارتياب مفاجئ بأن جوان لا بد أن تكون في الخمسين من عمرها الآن، ثم قالت: إنها رسّامة، رسامة مشهورة جداً. اسمها جوان وست، وقد أقامت معرضاً منذ فترة قصيرة.

كان عند الليدي سيلينا قليل من الاكتراث بالرسامين أو في

الحقيقة بأيّ شيء له علاقة بالفن، وكانت تعتبر الكتّاب والفنانين والموسيقيين سلالة ماهرة من الكائنات كانت تشعر باللامبالاة حيال مسلكهم، ولكنها كانت تتساءل في قرارة نفسها لماذا أرادوا أن يعملوا ما عملوه!

قالت وعيناها تتجولان: أظنها من فنّاني العصر الحديث. ها هي سيسلي لونغهرست، أرى أنها قد صبغت شعرها ثانية.

- أظن أن عزيزتي جوان من الطراز العصري.

هنا كانت الآنسة ماربل مخطئة تماماً؛ فقد كانت جوان وست عصرية منذ نحو عشرين عاماً، أما الآن فإنها تُعتبَر من قِبَل شباب الفنّانين المحدَثين فنانة من الطراز القديم تماماً.

وبينما هي تلقي نظرة سريعة على شعر سيسلي لونغهرست تذكرت الآنسة ماربل بسعادة كيف كانت جوان كريمة معها. في الحقيقة لقد قالت جوان لزوجها: أتمنّى أن نستطيع أن نقوم بشيء للعمّة جين المسكينة؛ فهي لا تترك بيتها أبداً. هل تظن أنها ستحب أن تذهب إلى بورنماوث لمدة أسبوع أو اثنين؟

قال زوجها ريموند وست: هذه فكرة جيدة.

كان كتابه الأخير يحقّق نجاحاً كبيراً في الحقيقة، ولذلك شعر بالرغبة في إظهار شهامته فقال: أعتقد أنها استمتعت برحلتها إلى جزر الهند الغربية على الرغم من أنها تورطت في قضية قتل للأسف. هذا الأمر خطير جداً في مثل سنها.

- يبدو أن هذا النوع من الأشياء يحدث لها كثيراً.

كان ريموند مولَعاً بالعمّة العجوز، وكان باستمرار يرتّب لها الدعوات ويرسل لها الكتب التي يظن أنها يمكن أن تكون مشوّقة بالنسبة إليها. كان يُفاجَأ عندما ترفض الدعوات غالباً، ومع أنها كانت تقول دائماً إن الكتب مشوّقة كثيراً إلاّ أنه كان يشكّ أحياناً أنها لم تقرأها! لا شك أن ذلك يعود إلى ضعف قوة إبصارها. ولكنه كان مخطئاً؛ فالآنسة ماربل كانت تتمتع بقوة إبصار رائعة بالنسبة لعمرها، وكانت -في تلك اللحظة بالذات- تلاحظ كل شيء يدور حولها باهتمام واستمتاع شديدَين.

ترددت في قبول عرض جوان للذهاب إلى واحد من أفضل فنادق بورنماوث لأسبوع أو اثنين، وقالت هامسة: هذا لطف كبير، كبير جداً منك يا عزيزتي، ولكني لا أظن...

- لكن هذا مفيد لك يا عمّة جين؛ من الجيّد الابتعاد عن البيت لبعض الوقت فهذا يعطيك أفكاراً جديدة وأشياء جديدة لتفكّري فيها.

- أجل، أنت على حق في هذا تماماً، وسأحب القيام بزيارة قصيرة إلى مكان ما بقصد التغيير، لكن قد لا يكون ذلك المكان بورنماوث.

فوجئت جوان قليلاً؛ فقد كانت تعتقد أن بورنماوث ستكون المكان المفضَّل بالنسبة للعمّة جين، ثم قالت: وماذا عن إيستبورن أو توركي؟

ترددت الآنسة ماربل ثم قالت: الذي أحبه في الحقيقة هو...

- ماذا؟

- أصارحك القول بأنك سوف ترين ذلك غباء مني.

- لا، أنا متأكدة من أن هذا لن يحدث.

كان يدور في رأسها سؤال يقول: إلى أين تريد أن تذهب هذه العجوز العزيزة؟ وقالت الآنسة ماربل: في الحقيقة أحب أن أذهب إلى فندق بيرترام في لندن.

- فندق بيرترام؟!

بدا الاسم مألوفاً لديها على نحو غامض. ثم جاءت الكلمات من فم الآنسة ماربل متدفقة وهي تقول: لقد أقمتُ هناك مرّة عندما كان عمري أربعة عشر عاماً مع عمّي وعمّتي، عمّي توماس الذي كان كاهن إيلي، ولم أنسَ هذا الفندق يوماً. ولو أنني مكثت فيه أسبوعاً مثلاً فسيكون ذلك كافياً تماماً، أما مدة أسبوعَين فسوف تكون أمراً مكلّفاً جداً.

- آه، لا مانع أبداً؛ بالطبع ستذهبين. سوف ندبّر هذه المسألة إذا كان فندق بيرترام ما يزال موجوداً فالكثير جداً من الفنادق اختفى، فبعضها قُصف في أثناء الحرب والبعض الآخر توقّف عن العمل.

- لقد علمت أن فندق بيرترام ما زال مفتوحاً، فقد استلمت رسالة من هناك من صديقتي الأمريكية آمي ماك أليستر من بوسطن، فهي وزوجها كانا يقيمان هناك.

- حسناً، إذن سوف أذهب وأدبّر الأمر. لكن أخشى أنك

ستجدينه قد تغير كثيراً عن الأيام التي كنت تعرفينه فيها، فلا تشعري بالإحباط عندئذ.

لكن فندق بيرترام لم يتغيّر بل كان كما هو دائماً؛ كان برأي الآنسة ماربل شيئاً أقرب إلى المعجزات، شيئاً يدعو إلى التعجب. بدا للآنسة ماربل أنه شيء رائع لدرجة لا تصدَّق، وبحسن إدراكها الجليّ للأمور عرفت أن الذي كانت تريده ببساطة هو تجديد ذكرياتها عن الماضي بألوانه القديمة الأصلية. لقد كان لديها الكثير من الوقت لتمضيه في استعادة الذكريات السعيدة الماضية، وإن استطاعت أن تجد شخصاً لتتذكر هذه الأشياء معه فسيكون هذا هو السعادة بعينها. كان ذلك شيئاً عسيراً في هذه الأيام، لقد عاشت أكثر من معظم معاصريها، ولكنها كانت ما تزال تجلس وتتذكر، وبطريقة غريبة جعلها ذلك تعود إلى الحياة مرّة أخرى... جين ماربل، تلك الفتاة الصغيرة المتلهفة البريئة. كانت فتاة حمقاء في أحيان كثيرة، ولكن مَن كان ذلك الشاب غير المناسب إطلاقاً الذي اسمه... ما هذا؟! إنها لم تستطع حتى أن تتذكر اسمه الآن! كم كانت أمها حكيمة عندما أوقفت تلك الصداقة في مهدها بصلابة! لقد التقت به مصادفة بعد سنوات، وفي الحقيقة كان إنساناً مُريعاً! أما في ذلك الوقت فقد بكت طوال أسبوع كامل على الأقل!

بدأت تفكّر في الزمن الحاضر، في هؤلاء الفتيات الصغيرات المسكينات! بعضهنّ لهنّ أمهات، ولكنهنّ لم يكنّ قط أمهات صالحات بل أمهات غير قادرات على حماية بناتهن من العلاقات العاطفية الغبية ومن الزواج المتسرع سيّئ الحظ... هذا الأمر محزن جداً.

قطع صوتُ صديقتها تأملاتها هذه وهي تقول بدهشة: حسناً، إنها... نعم، إنها بيس سيدجويك تلك التي تقف هناك! في هذا الفندق من دون الأماكن كلها!

كانت الآنسة ماربل تنصت إلى تعليقات الليدي سيلينا على ما حولها بنصف أذن فقط. لقد كانت هي والآنسة ماربل تعيشان في وسطين مختلفَين تماماً، ولذلك كانت الآنسة ماربل غير قادرة على تبادل أخبار الأصدقاء والمعارف المتعددين الذين كانت الليدي سيلينا تعرفهم أو تعتقد أنها تعرفهم. أما بيس سيدجويك فقد كانت مختلفة؛ كانت اسماً يعرفه كل شخص في إنكلترا تقريباً، فمنذ أكثر من ثلاثين عاماً ما زالت الصحف تكتب أن بيس سيدجويك قد فعلت هذا أو ذاك من الأمور غير العادية... لقد كانت عضواً في المقاومة الفرنسية لوقت طويل في زمن الحرب، وقد قيل إن على بندقيتها ست علامات تمثّل قتلى من الألمان. وطارت وحدها عبر المحيط الأطلسي قبل سنوات، وعبرت أوروبا على ظهر حصان حتى وصلت إلى بحيرة فان، وقادت سيارات سباق، وأنقذت مرّة طفلين من داخل بيت يحترق، وتزوجت عدّة مرات، وقد قيل إنها أفضل امرأة في الأناقة في أوروبا، وقيل أيضاً إنها نجحت في إخفاء نفسها داخل غواصة نووية في أثناء رحلتها التجريبية...

انتصبت الآنسة ماربل في مكانها وهي تحدق إليها بنظرة شديدة وصريحة وباهتمام شديد. كانت تتوقع أن ترى أيّ شيء في فندق بيرترام إلاّ أن ترى بيس سيدجويك! لم يكُن أمرٌ كهذا في الحسبان، فهذا الفندق القديم شديد الاحترام يبدو مغايراً بصورة غريبة، ومع ذلك فقد كانت هنا دون شك!

لقد مرّ شهر تقريباً من دون أن يظهر وجه بيس سيدجويك في مجلات الأزياء أو الصحف الشعبية، ثم ها هي موجودة بلحمها ودمها، تتحرك بطريقة تدل على السرعة ونفاد الصبر وتنظر بدهشة إلى صينية الشاي الكبيرة أمامها وكأنها لم ترَ واحدة مثلها من قبل! لقد طلبت... ماذا طلبت؟ أدارت الآنسة ماربل عينيها واختلست النظر لأنها كانت بعيدة بعض الشيء. طلبت كعكة الدونَت المقلية بالدهن. نعم، كعكة الدونت. يا له من أمر مثير للاهتمام!

وبينما كانت تراقبها رفعت بيس سيدجويك الكعكة وقضمت منها جزءاً كبيراً فتدفق مربّى الفراولة الحمراء فوق ذقنها، فألقت بيس برأسها إلى الخلف وضحكت. كانت واحدة من أصخب الضحكات وأكثرها استهتاراً تُسمَع في قاعة فندق بيرترام منذ زمن بعيد!

في الحال كان هنري بجانبها يعرض عليها منديلاً ناعماً صغيراً، فأخذته ومسحت ذقنها بنشاط تلميذ صغير وهي تصرخ قائلة: هذه هي كعكة الدونت الحقيقية، إنها رائعة.

ألقت بالمنديل على الصينية ووقفت، وكالعادة كانت كل الأعين عليها. لقد كانت معتادة على ذلك، وربما كانت تحبّ ذلك، بل ربما لم تعُد تلاحظه. كانت تستحق النظر إليها لأنها امرأة لافتة للنظر أكثر من كونها امرأة جميلة؛ شعرها البلاتيني الفاتح جداً كان ناعماً وأملس وهو يتساقط على كتفيها، وكانت عظام رأسها ووجهها بارزة وأنفها معقوفاً بصورة خفيفة وعيناها غائرتين رماديّتي اللون بالفعل، وكان لها فم واسع مثل فم ممثّل فكاهي. أما لباسها فكان من النوع البسيط لدرجة تحيّر معظم الرجال، فكان يبدو كأنه من أردأ أنواع الخيش ولم يكُن فيه أيّ نوع من الزخرفة أو التكشف،

ولكن النساء كُنّ يعرفن أفضل من الرجال، حتى العجائز القرويات في فندق بيرترام كُنّ يعرفن وكُنّ متأكّدات من أنه لباسٌ غالٍ جداً.

مرّت قريباً من جانب الليدي سيلينا والآنسة ماربل وهي تمشي بسرعة عبر القاعة باتجاه المصعد، وهزّت رأسها للّيدي سيلينا قائلة: مرحباً يا ليدي سيلينا، إنني لم أرَكِ منذ تقابلنا لدى عائلة كرافت. كيف حال معارفك البرجوازيين؟

- ماذا تفعلين هنا يا بيس؟

- أقيم هنا فقط. لقد جئت لتوّي من طرف البلاد، أربع ساعات وثلاثة أرباع الساعة، ليس سيئاً.

- ستقتلين نفسك في يوم من هذه الأيام!

- يا إلهي! آمل أن لا يحدث ذلك.

- ولكن لماذا تقيمين هنا؟

ألقت بيس سيدجويك نظرة سريعة حولها، وقد بدا أنها فهمت المغزى وأقرّت به بابتسامة ساخرة ثم قالت: أحد الأشخاص أخبرني أنني يجب أن أجرّب هذا الفندق، وأظن أنه محقّ في ذلك؛ لقد تناولت لتوي كعكة دونت رائعة جداً.

- عزيزتي، لديهم هنا فطائر موفينيه حقيقية أيضاً.

قالت الليدي سيدجويك متأملة: موفينيه؟ نعم.

ثم بدا أنها استوعبت الأمر فقالت: "موفينيه". ثم هزّت رأسها

واستمرّت في سيرها باتجاه المصعد في حين قالت الليدي سيلينا: يا لها من فتاة غريبة!

كان الأمر بالنسبة لها مثلما هو بالنسبة للآنسة ماربل، فكل امرأة دون الستين من عمرها تُعتبر فتاة.

قالت الليدي سيلينا: لقد عرفتها منذ كانت طفلة، ولم يكُن باستطاعة أحد أن يفعل حيالها شيئاً. لقد هربَت مع سائس خيل أيرلندي عندما كانت في السادسة عشرة، ثم استطاعوا أن يعيدوها في الوقت المناسب... وربما لم يكُن في الوقت المناسب. على أية حال، تخلّصوا منه بواسطة المال وأخذوها لتتزوج العجوز كونستون بأمان. كان يكبرها بثلاثين عاماً وكان رجلاً عجوزاً بغيضاً، وكان مجنوناً بها تماماً. لم يدُم زواجهما طويلاً فقد رحلت مع جوني سيدجويك، وكان يمكن لذلك الزواج أن يستمرّ لو أن الزوج لم يكسر عنقه في أحد سباقات الخيل. بعد ذلك تزوجت ريدجواي بيكر، وهو أمريكي صاحب يخت وقد طلّقها منذ ثلاث سنوات. وسمعتُ أنها تزوجت أخيراً سائق سيارات سباق بولندياً أو شيئاً من هذا القبيل. وبعد طلاقها من الأمريكي عادت لتسمّي نفسها سيدجويك. إنها تخرج مع أشخاص غريبين جداً ويقال إنها تتعاطى المخدرات!

قالت الآنسة ماربل: إن المرء ليتساءل إن كانت سعيدة؟

بدت الليدي سيلينا (والتي كان من الواضح أنها لم تتساءل عن مثل هذه النقطة من قبل) بدت وكأنها قد دُهشت، ثم قالت متشكّكة: أظن أنها قد حصلت على رزم كثيرة من الأموال، نفقة طلاق وأشياء من ذاك القبيل... وليس هذا كل شيء بالطبع، فمن

المعتاد أن يكون لديها رجل أو عدّة رجال يعتنون بها. نعم، كان هناك الكثير من الرجال في حياتها.

- لكن ألا تظنين أن الرجال كانوا بالنسبة إليها نوعاً من أنواع المغامرة؟

سألت الآنسة ماربل هذا السؤال ثم قالت لنفسها: وهل ستأتي أي امرأة إلى فندق بيرترام من أجل لقاء عاطفي مع رجل؟ قَطعاً لم يكُن فندق بيرترام من ذلك النوع من الأماكن.

تنهدت الآنسة ماربل ونظرت إلى ساعة الحائط الأنيقة المعلَّقة في الزاوية وهي تدق، ثم نهضت بتؤدة على قدمَيها بسبب آلام العظام التي تعاني منها ومشت ببطء باتجاه المصعد، في حين ألقت الليدي سيلينا نظرة حولها ثم اتجهت فجأة نحو رجل عجوز عسكري المظهر كان يقرأ صحيفة فقالت له: كم هو جميل أن أراك ثانية! أنت الجنرال آرلنغتون، أليس كذلك؟

وبأدب جمّ نفى الرجل العجوز أن يكون هو الجنرال آرلنغتون، فاعتذرَت الليدي سيلينا ولكنها لم ترتبك كثيراً. لقد اجتمع لديها قِصَر النظر مع التفاؤل، وحيث إن الشيء الذي كانت تستمتع به أكثر من أيّ شيء آخر هو الالتقاء بالأصدقاء القدامى فقد كانت دائماً تقع في مثل هذا النوع من الأخطاء. والكثيرون من الناس الآخرين كانوا يفعلون نفس الشيء لأن الأضواء كانت خافتة وتُلقي ظلالاً ثقيلة، ولكن لم يكُن الناس يغضبون من ذلك عادة، بل ربما سبّب لهم هذا الأمرُ قدراً من السعادة.

ابتسمت الآنسة ماربل لنفسها في حين كانت تنتظر نزول

المصعد، فقد كانت مثل سيلينا، دائماً مقتنعة أنها تعرف كل الأشخاص حولها. بيد أنها لم تستطع أن تنافسها، إذ كان إنجازها الوحيد في هذا المجال هو تعرّفها على مطران وستشستر الأنيق الذي كانت تخاطبه برقّة باسم «العزيز روبي»، والذي ردّ عليها بنفس الشعور متذكراً عندما كان طفلاً يلهو في كنيسة هامبشير ويناديها بقوة قائلاً: كوني تمساحاً الآن يا عمّة جيني، كوني تمساحاً والتهميني.

وصل المصعد ففتح بابه رجلٌ في متوسط العمر يلبس الزيّ الرسمي، ولدهشة الآنسة ماربل كان راكب المصعد الذي خرج هو بيس سيدجويك التي رأتها تصعد قبل دقيقة واحدة فقط أو دقيقتين، ثم وقفت بيس سيدجويك جامدة وهي تتوازن على قدم واحدة فجأة بشكل أدهش الآنسة ماربل وجعلها تخطو إلى الأمام خطوة ضعيفة، وكانت بيس تحدق من فوق كتف الآنسة ماربل بتركيز جعل المرأة العجوز تلتفت برأسها.

كان الحاجب قد دفع لتوّه البابَين الدوّارَين للمدخل وأمسك بهما مفتوحَين لكي يدع امرأتين تعبران منهما إلى القاعة، وكانت إحداهما سيدة متوسطة العمر أنيقة تضع على رأسها قبعة مزخرفة بزهور البنفسج، والأخرى فتاة طويلة في نحو الثامنة عشرة من عمرها ذات شعر طويل كتّاني ناعم ترتدي ملابس بسيطة ولكنها أنيقة.

استجمعت بيس سيدجويك قواها ودارت حول نفسها بسرعة وعادت فدخلت المصعد، وبينما تبعتها الآنسة ماربل إلى داخل المصعد التفتت إليها واعتذرت لها قائلة: أنا آسفة جداً؛ كنت على وشك أن أصطدم بك.

كان صوتها دافئاً وودوداً وهي تقول: لقد تذكرت الآن أنني نسيت شيئاً.

قال العامل: الطابق الثاني يا سيدتي؟

فابتسمت الآنسة ماربل وهزّت رأسها موافِقةً بما يشبه الاعتذار، ثم خرجت وسارت ببطء باتجاه غرفتها وهي تستعيد في ذاكرتها الأحداثَ العديدة التافهة، حيث إن ذلك كان من عاداتها. تذكّرت -على سبيل المثال- أن ما قالته الليدي سيدجويك لم يكُن صحيحاً؛ فقد صعدت إلى غرفتها منذ لحظات ولا بدّ أنها بعد ذلك تذكرت أنها قد نسيت شيئاً (إذا كان في تصريحها بذلك أية صحة) فنزلت لكي تبحث عنه، وربما كانت قد نزلت لمقابلة شخص ما أو لتبحث عن شخص ما، ولكن إذا كان الأمر كذلك فإن ما رأته عندما فُتح باب المصعد قد أخافها وأقلقها، ولذلك اندفعت إلى داخل المصعد مرّة أخرى في الحال وصعدت حتى لا تقابل ذلك الذي رأته أياً كان هذا.

لا بدّ أن ذلك كان القادمتين الجديدتين، المرأة متوسطة العمر والفتاة. هل هما أم وابنتها؟ لا، لم ترهما الآنسة ماربل كذلك. وأحسّت الآنسة ماربل بالسعادة لأنه حتى فندق بيرترام يحدث فيه ما يثير الاهتمام.

* * *

الفصل الثالث

- هل الكولونيل لاسكومب موجود؟

كانت المرأة التي تلبس قبعة بلون البنفسج توجّه السؤال وهي واقفة أمام مكتب الاستقبال، فابتسمت الآنسة غورينج لها بترحاب وفي الحال طلبت من خادم كان يقف على استعداد أن يذهب ليدعوه. ولكن لم تكُن لديها حاجة للقيام بذلك لأن الكولونيل لاسكومب دخل بنفسه إلى القاعة في تلك اللحظة وجاء مسرعاً إلى مكتب الاستقبال ثم قال للسيدة: كيف حالك يا سيدة كاربنتر؟

ثم صافحها بأدب والتفت إلى الفتاة قائلاً: عزيزتي إلفيرا!

وأمسك يديها بحنان وقال: حسناً، حسناً، هذا لطيف، رائع. هيا نجلس.

ثم قادهما إلى بعض الكراسي وقال مكرّراً: حسناً، حسناً، هذا لطيف.

كان الجهد الذي قام به للترحيب بالمرأتين واضحاً مثلما كان اضطرابه جَلياً، وكان من الصعب عليه أن يستمرّ في قوله «كم هذا لطيف» أكثر من ذلك؛ فالسيدتان لم تكونا متعاونتين. ابتسمت إلفيرا

بهدوء شديد في حين ضحكت السيدة كاربنتر ضحكة صغيرة ليس لها معنى وخلعت قفازَيها. قال لها الكولونيل لاسكومب: هل كانت رحلة جيدة؟

ردّت إلفيرا: نعم، شكراً لك.

- لا ضباب، لا شيء من هذا؟

- آه، بلى، لا شيء من هذا.

قالت السيدة كاربنتر: وصلت طائرتنا متقدمة عن موعدها بخمس دقائق.

فاستدرك قائلاً: نعم، نعم، هذا جيد، جيد جداً. أرجو أن يكون هذا المكان مناسباً لكما؟

قالت الآنسة كاربنتر بحرارة وهي تحدّق حولها: آه، أنا متأكدة من أنه مكان لطيف جداً ومريح جداً.

قال الكولونيل بطريقة فيها شيء من الاعتذار: أخشى أن يكون قديم الطراز وفيه كثير من الأشخاص الرجعيين القدامى.

فوافقته إلفيرا قائلة: نعم، أظن أنه كذلك.

نظرت حولها بطريقة خالية من التعبير وكأنها تتأكد من هذه المعلومة، ثم قال الكولونيل لاسكومب وهو يكرر كلامه: يوجد هنا الكثير من الأشخاص الرجعيين القدامى، أخشى ذلك. ربما كان يجب أن آخذكما إلى مكان حديث أكثر من هذا، لكنني لست ماهراً في مثل هذه الأمور.

قالت إلفيرا بأدب: هذا جميل جداً.

فاستمر الكولونيل لاسكومب قائلاً: ستقضون هنا ليلتين فقط. لقد فكرت أن نذهب إلى أحد العروض هذا المساء، عرض موسيقي.

هتفت السيدة كاربنتر: سيكون هذا ممتعاً، أليس كذلك يا إلفيرا؟

قالت إلفيرا دون انسجام: رائع.

- ثم بعد ذلك نتناول العشاء في فندق سافوي.

ارتفعت صيحة دهشة جديدة من السيدة كاربنتر، فابتهج الكولونيل لاسكومب قليلاً وهو يختلس النظر إلى إلفيرا قائلاً لنفسه: أعتقد أن إلفيرا سعيدة على الرغم من أنها قرّرت أن لا تقول شيئاً أكثر من الموافقة المهذّبة أمام السيدة كاربنتر، ولكنني لا ألومها.

قال للسيدة كاربنتر: لعلكما تريدان أن تشاهدا غرفتَيكما؟

- آه، أنا متأكدة من أنها مناسبة.

- حسناً، إذا كان أيّ شيء لا تحبانه بخصوص الغرفتين فسنطلب منهم أن يغيّروهما، إنهم يعرفونني جيّداً هنا.

رحبت الآنسة غورينج المسؤولة عن مكتب الاستقبال بالسيدتين بسعادة ومنحتهما الغرفتين رقمَي ٢٨ و٢٩ في الطابق الثاني ولهما حمّام مجاور.

قالت السيدة كاربنتر: سأصعد وأُخرِج الأغراض من الحقائب. قد تحبين أن تتحدثي قليلاً مع الكولونيل لاسكومب يا إلفيرا.

فكّر الكولونيل لاسكومب بأن ذلك من اللباقة، سوف يتخلص منها لبعض الوقت على أية حال. ولكن في أي شيء كان سيتحدث مع إلفيرا؟ هذا ما لم يعرفه. في الحقيقة كانت إلفيرا فتاة ذات سلوك حسن ولكنه لم يكُن معتاداً على معاملة الفتيات. لقد ماتت زوجته في أثناء ولادة طفلهما وربّي الولد عند عائلة زوجته في حين جاءت أخته الكبيرة لتعيش معه في البيت، ثم تزوّج ابنُه وذهب ليعيش في كينيا، وأحفاده كانوا في سن الحادية عشرة والخامسة والثانية والنصف، وفي أثناء زيارتهم الأخيرة كانوا يتسلّون بلعب كرة القدم والحديث عن علوم الفضاء والقطارات الكهربائية... هذا كله سهل، ولكن الفتيات الشابات أمر مختلف تماماً.

سأل إلفيرا إذا كانت تحب أن تشرب شيئاً، وكان على وشك أن يقترح عليها كأساً من الليمون أو الزنجبيل أو عصير البرتقال ولكن إلفيرا سبقته فقالت: شكراً لك، سأشرب القهوة فقط.

طلب لها ما أرادت ثم سألها: كيف كانت إيطاليا؟

- جميلة جداً.

- وذلك المكان الذي كنت فيه؟ تلك الكونتيسة... ماذا كان اسمها؟ ألم تكُن مَقيتة؟

- إنها متزمتة بعض الشيء، ولكني لم أدع ذلك يكدّرني.

نظر إليها إذ لم يكُن متأكداً تماماً إن كانت الإجابة مبهَمة

قليلاً، ثم قال وهو يتلعثم قليلاً ولكن بطريقة طبيعية أكثر ممّا كان عليه من قبل: أخشى أننا لا نعرف بعضنا بعضاً كما ينبغي. أنا الوصيّ عليك كما تعرفين، وكما تعرفين أيضاً فمن الصعب على رجل كبير مثلي أن يعرف ماذا تريد فتاة مثلك، أو على الأقل... أقصد أن أعرف ما الذي تحتاجه فتاة مثلك. المدارس ثم بعدها... تلك التي كانوا يسمّونها على أيامي المدارس النهائية، أما الآن فأظن أن كل شيء صار أكثر صعوبة، المهن والأعمال وكل ذلك... سنتحدث عن كل ذلك في وقت ما. هل يوجد شيء تريدين أن تعملي فيه على وجه الخصوص؟

قالت إلفيرا دون حماسة: أظن أنني سآخذ دروساً في أعمال السكرتارية.

- حقاً؟ تريدين أن تكوني سكرتيرة؟

- ليس على وجه الخصوص.

- ماذا إذن؟

أوضحت إلفيرا قائلة: سيكون هذا بداية فقط.

كان لدى الكولونيل لاسكومب شعور بأنه قد حطّ من مرتبته وهو يقول: أولاد عمي هؤلاء، عمّي ملفورد، هل تظنين أنك ستحبّين العيش معهم؟ إذا لم يكُن كذلك...

- بالطبع أظن ذلك. أنا أحب نانسي كثيراً، وابنة العم ميلدريد شخصية عزيزة.

- إذن فهل هذا جيد؟

- تماماً، في الوقت الحاضر.

لم يعرف لاسكومب ماذا يقول رداً على ذلك، وبينما كان يفكر فيما سيقوله قالت إلفيرا بأسلوب بسيط ومباشر: هل لدي أيّ أموال؟

مرة أخرى أخذ وقتاً طويلاً قبل أن يجيب، ثم تفحّصها متأملاً وقال: نعم، لديك مال كثير جداً وستحصلين عليه عندما تبلغين الحادية والعشرين.

- من الذي يحفظ المال الآن؟

ابتسم وقال: مالك محفوظ لك وديعةً يتم اقتطاع مبلغ معيَّن من عوائدها كل سنة لتغطية نفقات معيشتك وتعليمك.

- وهل أنت القيّم؟

- يوجد ثلاثة أنا أحدهم.

- ماذا يحدث لو أنني متّ؟

- ما هذا يا إلفيرا؟! إنك لن تموتي، ما هذا الهراء؟

- أرجو أن لا يحدث هذا. ولكن المرء لا يعرف، أليس كذلك؟ لقد وقع حادث سقوط طائرة في الأسبوع الماضي فقط ومات كل ركابها.

قال لاسكومب بقوة: حسناً، هذا لن يحدث لك.

- في الحقيقة أنت لا تستطيع أن تجزم بذلك. كنت أتساءل فقط: من سيحصل على مالي إذا متّ؟

قال الكولونيل باهتياج: ليس عندي أدنى فكرة، لماذا تسألين؟

قالت إلفيرا متأملة: قد يكون شيئاً يبعث على الفضول. لقد كنت أتساءل إذا كان حرياً بأيّ أحد أن يحاول قتلي.

- هذا أكثر الأحاديث انعداماً للجدوى يا إلفيرا! لا أستطيع أن أفهم لماذا تفكّرين في مثل هذه الأشياء.

- إنها مجرّد أفكار؛ فالمرء يريد أن يعرف الحقائق.

- هل ذهب بك تفكيرك إلى عصابات المافيا مثلاً؟

- لا، لا، سيكون هذا سخافة.

ثم سألته فجأة: من سيحصل على مالي إذا تزوجت؟

- ربما كان زوجك.

- هل أنت متأكد من ذلك؟

- لا، لست متأكداً أبداً فهذا يعتمد على شروط الوصيّة، ولكنك لست متزوجة فلماذا القلق؟

لم تردّ إلفيرا وبدا أنها غارقة في التفكير، وأخيراً خرجت من نشوَتها وسألت: هل ترى والدتي؟

- أحياناً، ليس كثيراً.

- أين هي الآن؟

- مسافرة.

- أين؟

- في فرنسا أو البرتغال... لا أعرف على وجه التحديد.

- هل رغبْت يوماً في رؤيتي؟

عيناها الصافيتان كانتا تواجهان عينيه فلم يعرف كيف يردّ. هل كانت تلك لحظة الحقيقة أم لحظة الغموض أم لحظة كذب عظيم؟ ماذا يمكن أن تقول لفتاة سألتك سؤالاً بمثل هذه البساطة عندما يكون جوابه معقَّداً جداً؟

قال عابساً: لا أعرف.

تركّزت عيناها عليه باهتمام فشعر لاسكومب بارتباك شديد؛ كان الأمر يزداد تعقيداً فقد كان من حق الفتاة أن تتساءل، وكانت فعلاً تتساءل، وأيّ فتاة كانت ستعمل نفس الشيء. قال لها: يجب أن لا تعتقدي... أقصد أنه من الصعب شرح الأمر، فأمك... حسناً، أمك مختلفة عن...

هزّت إلفيرا رأسها بقوة موافِقةً وقالت: أعرف، أنا أقرأ عنها في الصحف دائماً. إنها شيء خاصّ، أليس كذلك؟ إنها إنسانة رائعة في الحقيقة.

وافقها الكولونيل قائلاً: "أجل، هذا صحيح تماماً؛ إنها إنسانة رائعة". ثم توقف قليلاً وتابع قائلاً: ولكن الإنسان الرائع غالباً ما...

وتوقّف مرّة أخرى قبل أن يستطرد: ليس دائماً شيئاً جميلاً أن تكون أمك إنسانة رائعة. يمكنك أن تعرفي ذلك مني لأنه الحقيقة.

- أنت لا تحبّ أن تتحدث عن الحقيقة كثيراً، أليس كذلك؟ ولكن أعتقد أن الذي قلتَه الآن هو الحقيقة.

جلس الاثنان ينظران بإمعان إلى الأبواب الدوّارة النحاسية الكبيرة التي تؤدّي إلى الخارج، وفجأة فُتحت الأبواب بقوة وعنف غير معتادَين في فندق بيرترام ودخل شابّ واتجه مباشرة إلى مكتب الاستقبال. كان يرتدي سترة من الجلد الأسود ويفيض بالحيوية بعكس جوّ فندق بيرترام المماثل لجوّ المتاحف حيث يبدو الناس فيه مثل بقايا أجسام بشرية مغطّاة بالتراب من العصور الماضية.

مال الشابّ ناحية الآنسة غورينج وسألها: هل تقيم الليدي سيدجويك هنا؟

في تلك اللحظة لم تكُن الآنسة غورينج تبتسم في وجهه ابتسامة ترحيب بل كانت عيناها جامدتين كالحجر ثم قالت: نعم.

ثم مدّت يدها دون رغبة نحو سمّاعة الهاتف وهي تقول: هل تريد أن...؟

قال الشاب: لا، أريد أن أترك لها رسالة فقط.

ثم أخرج الرسالة من جيب سترته الجلديّة فوضعها على الطاولة وقال: أردت فقط أن أتأكد أن هذا هو الفندق الصحيح.

ربما بدا في عينيه بعضُ الارتياب عندما كان ينظر حوله، ثم التفت مرة أخرى ناحية المدخل ومرّت عيناه دون تمييز على الناس الجالسين حوله، ومرت عيناه على لاسكومب وإلفيرا بنفس الطريقة وبدا غير مهتمّ بالنظر إلى أي واحد بعينه، ثم التفت مرة أخرى ناحية

المكتب وسأل وهو يرفع صوته قليلاً كأنه يريد أن يلفت انتباه الآنسة غوربنج: رقم الهاتف هنا هو ١١٢٩، أليس كذلك؟

- بل ٣٩٢٥.

- منطقة ريجنت؟

- لا، بل ميفير.

هزّ رأسه بالإيجاب ثم سار بسرعة ناحية الباب وخرج جاعلاً الأبواب تدور خلفه بنفس الصوت المدوّي الذي أحدثه عندما دخل.

بدا أن كل واحد من الموجودين قد تنفس الصعداء لدى خروج الشاب وحاولوا استئناف أحاديثهم التي قوطعت. قال الكولونيل لاسكومب بصورة غير ملائمة كما لو أنه فقد التعبير بالكلمات: حسناً، حسناً، في الحقيقة... هؤلاء الشباب في هذه الأيام...

قالت إلفيرا وهي تبتسم: لقد عرفته، أليس كذلك؟

كانت تتكلم بصوت مَشوب ببعض المهابة، ثم باشرت في إفهامه قائلة: لاديسلوس مالينوسكي.

- يا إلهي، ذلك الفتى!

كان الاسم مألوفاً على نحو ضعيف للكولونيل لاسكومب الذي قال: سائق سباق السيارات؟

- نعم؛ لقد كان بطل العالم لمدة سنتين متتاليتين ثم حصل له

حادث سيئ منذ عام فكُسر الكثير من أعضاء جسمه، ولكن أظن أنه قد عاد إلى السباق الآن.

ورفعت رأسها لكي تنصت قليلاً ثم قالت: السيارة التي يسوقها الآن هي سيارة سباق.

كان صوت محرك السيارة قد اخترق فندق بيرترام قادماً من الشارع الخارجي، وأدرك الكولونيل لاسكومب أن لاديسلوس مالينوسكي كان واحداً من أبطال إلفيرا الأسطوريين فقال في نفسه: حسناً، هذا أفضل من أن يكون واحداً من مغنّي موسيقى البوب هؤلاء، أو مغنّي الأغاني العاطفية الحالمة أو أصحاب الشّعر الطويل الذين يسمّون أنفسهم «الخنافس» أو أياً كان ما يسمّون أنفسهم به.

كان واضحاً أن لاسكومب عتيق في وجهات نظره الخاصّة بالشباب.

فُتح الباب الدوّار ثانية فنظر كل من إلفيرا والكولونيل لاسكومب إليه بترقب، ولكن فندق بيرترام عاد إلى وضعه العاديّ. كان الذي دخل مجرّد رجل دين عجوز أبيض الشعر، وقد وقف برهة ينظر حوله بملامح متحيّرة قليلاً كما لو أنه فشل في أن يفهم أين كان أو كيف دخل إلى هذا المكان! مثل هذه الحالة لم تكُن جديدة على الكاهن بينيفاذر؛ لقد أصابته سابقاً وهو يركب القطار ولم يتذكر من أين جاء وإلى أين هو ذاهب أو لماذا! وأصابته عندما كان يسير في الشارع، وعندما وجد نفسه جالساً يحضر اجتماعاً، وأصابته قبل الآن عندما كان على منصّة كاتدرائيته ولم يعرف إذا كان قد ألقى موعظته أو إن كان على وشك أن يلقيها!

قال لاسكومب وهو ينظر إليه: أظن أنني أعرف ذلك العجوز؛ إنه يقيم هنا كثيراً، أظن ذلك. أبركرومبي؟ لا، ليس أبركرومبي ولكن اسمه يشبه أبركرومبي.

نظرت إلفيرا ناحية الكاهن بينيفاذر دون اهتمام؛ فبالمقارنة مع بطل سباق السيارات لم يكُن لديه أيّ جاذبية على الإطلاق. هدأ وجه الكاهن بينيفاذر وهزّ رأسه باطمئنان؛ لقد عرف المكان الذي كان فيه، بالطبع فندق بيرترام حيث كان ذاهباً لقضاء ليلة في طريقه إلى... إلى أين كانت وجهته؟ شادمينستر؟ لا، لا، لقد جاء لتوه من شادمينستر، وكان ذاهباً إلى... بالطبع، إلى مؤتمر في لوسيرن. خطا إلى الأمام مبتسماً باتجاه مكتب الاستقبال، وحيّته الآنسة غورينج بحرارة قائلة: كم تسرّني رؤيتك يا حضرة الكاهن بينيفاذر. إنك تبدو في صحة جيدة.

- شكراً لك. لقد أُصبتُ ببرد شديد في الأسبوع الماضي ولكني عُوفيتُ منه الآن. لديك غرفة محجوزة لي، لقد كتبتُ إليكم بذلك.

طمأنته الآنسة غورينج قائلة: أجل، أجل يا حضرة الكاهن بينيفاذر، لقد استلمنا رسالتك وحجزنا لك الغرفة رقم ١٩، وهي الغرفة التي أقمتَ فيها آخر مرة.

- شكراً لك، شكراً لك. أرجو أن تحجزيها لي لمدة... دعيني أفكّر. سأحتاجها لأربعة أيام، فأنا في الحقيقة ذاهب إلى لوسيرن وسأغيب ليلة واحدة، ولكن أرجوك أن تحجزي الغرفة لأنني سأترك معظم أغراضي هنا وآخذ حقيبة صغيرة فقط إلى سويسرا. أرجو أن لا يكون في ذلك أي صعوبة؟

ومرّة أخرى طمأنته الآنسة غورينج قائلة: كل شيء سيسير على ما يرام، لقد شرحتَ بصورة واضحة في رسالتك.

قد لا يستخدم الناس الآخرون كلمة «بصورة واضحة»؛ ذلك أن تعبير «بصورة كاملة» يمكن أن يكون أفضل حيث إنه كتب رسالته بتفصيل تام.

عندئذٍ هدأ كل قلق الكاهن بينيفاذر وتنفس بارتياح وتوجّه مع حقائبه إلى الغرفة ١٩.

* * *

في الغرفة ٢٨ كانت السيدة كاربنتر ترتب لباس النوم فوق سريرها بعناية، ثم نظرت إلى أعلى في حين كانت إلفيرا تدخل الغرفة فقالت لها: ها أنتِ هنا يا عزيزتي، هل تريدين أن أساعدك في إخراج أغراضك؟

قالت إلفيرا بأدب: لا، شكراً لك. لن أخرج الكثير من ملابسي.

- أيّ غرفة من الغرفتين تحبّين أن تأخذي؟ الحمام يقع بينهما، وقد أخبرتهم أن يضعوا حقائبك في الغرفة البعيدة لأنني ظننت أن هذه الغرفة قد تكون مزعجة قليلاً.

قالت إلفيرا بصوت جامد: هذا لطف كبير منك.

- هل أنت متأكدة من أنك لا تريدين منّي مساعدتك؟

- نعم، شكراً. أظن أنني أحتاج إلى الاستحمام.

- هذه فكرة جيّدة جداً. هل تريدين أن تستحمي قبلي؟ أنا أفضّل أن أنهي وضع أغراضي في الخزائن أولاً.

هزّت إلفيرا رأسها بالموافقة، ثم ذهبت إلى الحمّام المجاور فأغلقت الباب الذي يصل بين الحمام وغرفة السيدة كاربنتر وأقفلته بالمزلاج، ثم عبرت باب الحمام الآخر إلى غرفة نومها وفتحت حقيبتها وبعثرت بعض الأغراض على السرير، ثم ذهبت إلى الحمّام وفتحت صنبور الماء، ثم عادت إلى غرفتها فجلست على السرير والهاتف إلى جوارها. وأرهفت السمع لمدة دقيقة أو اثنتين ثم رفعت السماعة وقالت لعامل الاتصالات في الفندق: هنا الغرفة ٢٩، هل يمكنك أن تطلب لي رقم ١١٢٩ في منطقة ريجنت من فضلك؟

* * *

الفصل الرابع

في داخل إدارة اسكتلنديارد كان الاجتماع منعقداً. كان اجتماعاً غير رسمي؛ ستة رجال أو سبعة لكل منهم أهميته في مجال عمله جلسوا حول الطاولة. كان الموضوع الذي شغل اهتمام حرّاس القانون هؤلاء موضوعاً يزداد أهمية بصورة كبيرة في أثناء السنوات القلائل الأخيرة؛ كان يخصّ نوعاً من الجرائم حقّق نجاحاً يبعث على القلق! لقد ازدادت جرائم السرقة الكبيرة بصورة مخيفة: عمليات اقتحام البنوك وسرقات الودائع الثمينة التي تُرسَل بالبريد والسطو على القطارات... ونادراً ما كان يمرّ شهر واحد دون حدوث ضربة جريئة وضخمة يُكتَب لها النجاح!

كان السير رونالد غريفز مساعد قائد اسكتلنديارد يرأس الاجتماع في مقدمة الطاولة، وحسب عادته كان يستمع أكثر مما يتكلم. لم تُقدَّم أيّ تقارير رسمية بهذا الخصوص في هذا الاجتماع، كل ما قُدِّم كان من المعتاد في عمل إدارة المباحث الجنائية. وكان هذا اجتماعاً استشارياً على مستوى رفيع، اجتماعاً عاماً للاختصاصيين لتبادل الأفكار بين رجال ينظرون إلى الجرائم من وجهات نظر مختلفة قليلاً.

دارت عينا السيد رونالد غريفز حول مجموعته الصغيرة ببطء،

ثم هزّ رأسه بالإيجاب باتجاه رجل يجلس في نهاية الطاولة وقال: حسناً أيها الأب، دعنا نسمع منك بعضاً من ملاحظاتك البارعة.

كان الرجل الذي خوطب بلقب «الأب» هو كبير المحققّين فريد ديفي الذي كان قد أصبح على وشك التقاعد، ولكنه مع ذلك بدا أكبر سناً ممّا هو عليه ولذلك كان يلقّب بهذا اللقب. كان له حضور مريح وأسلوب عذب لطيف يفاجئ الكثيرين من المجرمين عندما يجدونه أقل لطفاً وسذاجة ممّا كان يبدو.

قال رئيس محققين آخر: هيّا أيها الأب، دعنا نسمع وجهات نظرك.

قال كبير المحققين ديفي وهو يسحب نفَساً عميقاً: إنها كبيرة. نعم، كبيرة، وربما كانت في ازدياد.

تدخل رجل آخر هو كومستوك صاحب الوجه الحادّ الماكر والعينين اليقظتين فقال: هل يمكنك أن تقول إن ذلك يصبّ في مصلحتهم؟

قال الأب: نعم ولا؛ يمكن أن تصير كارثة عليهم ولكن حتى الآن فالأمر ما زال تحت سيطرتهم تماماً.

تنحنح المراقب أندروز، وهو رجل أشقر نحيل يبدو غامضاً، وقال متأملاً: الذي ظننته دائماً هو أن في مسألة الحجم هذه كثيراً مما لا يدركه الناس. خذ مثلاً عملاً صغير الحجم يملكه رجل واحد، إذا أديرَ هذا العمل جيّداً وإذا كان حجم العمل صحيحاً فإنه سينجح بالتأكيد. وسّع العمل، اجعله أكبر، قم بزيادة عدد الموظّفين...

قد تجد نفسك فجأة تدير عملاً ذا حجم خاطئ فيذهب عملك أدراج الرياح. الأمر ذاته ينطبق على مخازن متعددة الفروع أو على إمبراطورية صناعية، إذا كانت هذه كبيرة بما فيه الكفاية فستنجح وإذا لم تكُن كبيرة بما فيه الكفاية فستفشل. كل شيء له حجمه الصحيح، وعندما يكون في حجمه الصحيح فسيصل إلى القمة.

أعلن السيد رونالد بصوت مرتفع قائلاً: ما حجم هذا الموضوع حسب اعتقادك؟

قال كومستوك: أكبر ممّا ظننا في البداية.

قال رجل خشن المظهر هو المحقق ماكنيل: يمكنني أن أقول إنه يكبر. الأب على حق؛ إنه ينمو طول الوقت.

قال ديفي: يمكن أن يكون هذا أمراً جيّداً، يمكنه أن ينمو بسرعة أكبر من اللازم، ثم بعد ذلك يفلت من نطاق السيطرة.

قال ماكنيل: المسألة هي مَن المشبوه الذي يمكن أن نعتقله أيها السيد رونالد.

قال كومستوك: ثمة دستة من الرجال تقريباً يمكن أن نعتقلهم. نحن نعرف أن عائلة هاري متورّطة في الموضوع، ويوجد جيب صغير لطيف أسفل طريق لوتون وحانة قرب ميدنهيد ومزرعة على طريق غريت نورث...

- وهل يستحق أيٌّ من هؤلاء أن نمسك به؟

- لا أظن ذلك. كلهم جماعات صغيرة، حلقات... مجرّد

حلقات في السلسلة هنا وهناك: مكان يتمّ فيه تغيير معالم السيارات ثم تمضي لحالها بسرعة، وحانة محترَمة يتمّ فيها تمرير الرسائل، ومتجر للملابس المستعمَلة حيث يمكن تغيير المظهر، وخيّاط للملابس المسرحية في الطرف الشرقي يمكن استخدامه أيضاً... هؤلاء الناس مدفوع لهم، مدفوع لهم جيداً، ولكنهم لا يعرفون أيّ شيء في الحقيقة.

قال أندروز الغامض ثانية: إننا نجابه بعض العقول الذكية، كما أننا لم نقترب منهم حتى الآن. نحن نعرف بعضاً من مؤسَّساتهم الفرعية، وهذا كل ما في الأمر. كما قلت فإن زمرة عائلة هاري مشتركون فيها وأيضاً زمرة عائلة مارك مشتركون في الأمر من الناحية المالية. الاتصالات الخارجية تتم عن طريق المدعوّ ويبر، ولكنه مجرّد عميل. في الحقيقة ليس عندنا أيّ شيء ضدّ أيٍّ من هؤلاء الناس. نحن نعرف أن لهم جميعاً طرقاً في المحافظة على الاتصال بعضهم ببعض وبالفروع المختلفة المَعنيّة، ولكننا لا نعرف كيف يفعلون ذلك بالضبط. إننا نراقبهم ونتبعهم، وهم يعرفون أننا نراقبهم. يوجد مركز اتصالات في مكان ما، ولكن الذي نريد الإمساك به هو العقول المدبِّرة.

قال كومستوك: إنها شبكة عملاقة! أنا موافق على الرأي القائل بوجود قيادة عمليات في مكان ما، مكان يتمّ فيه التخطيط لكل عملية ورسمها بالكامل. في مكان ما يوجد شخص يخطط للعمليات كلها، هؤلاء هم الناس الذين يجب علينا أن نتوصل إليهم.

قال الأب بهدوء: من المحتمَل أنهم ليسوا موجودين في هذا البلد.

- هذا محتمَل بالطبع.

قال ماكنيل وهو يهزّ رأسه: أنا لا أؤمن بفرَضية العقول الموجِّهة هذه. قد يبدو هذا مقبولاً في رواية بوليسية. بالطبع يوجد رأس مدبّر، ولكني لا أؤمن بوجود مجرم أستاذ غير عاديّ، ويمكنني أن أقول إنه يوجد مجلس إدارة صغير ذكيّ جداً يقف وراء هذا، تخطيط مركزيّ له رئيس. لقد نجحوا في الوصول إلى نتائج جيدة ويقومون الآن بتطوير تقنيتهم طوال الوقت، ومع ذلك...

قال السيد رونالد وهو يشجعه: ماذا؟ أكمل.

- حتى في الفريق الصغير المحكَم من المحتمَل وجود تضحيات. أنا أسمّيه «مبدأ المطرقة الروسية من وقت لآخر». فإذا اعتقدوا أننا نشتمّ رائحتهم فإنهم يتخلصون من واحد منهم، واحد يعتقدون أنه أفضل مَن يستطيعون أن يتحمّلوا الاستغناء عنه.

- وهل يجرؤون على فعل ذلك؟ ألن تكون هذه مخاطرة؟

- أستطيع أن أقول إنه يمكن فعل ذلك بطريقة تجعل هذا الشخص (أيّاً كان) لا يعرف أنه قد تمّ دفعه إلى المطرقة. سيظنّ فقط أنه قد سقط وسيبقى صامتاً لأنه سيعتقد بأنه من الأفضل له أن يبقى صامتاً. وهكذا يستمرّ الحال بالطبع. إن لديهم الكثير من المال ليتلاعبوا به وهم قادرون على أن يتحمّلوا الإنفاق بسخاء، وإذا تمّ الإمساك بواحد منهم فهم يقومون برعاية عائلته عندما يكون في السجن، ومن المحتمَل أن يخططوا لتهريبه من السجن أيضاً.

قال كومستوك: لقد حدث الكثير من ذلك.

قال السيد رونالد: أعتقد أنه ليس من الجيد أن نعيد تخميناتنا ونكررها؛ نحن نقول الشيء نفسه دائماً.

ضحك ماكنيل قائلاً: ولماذا أردت الالتقاء بنا يا سيدي؟

فكّر السيد رونالد لحظة ثم قال: حسناً، نحن جميعاً متفقون على الأمور الرئيسية ونحن متفقون على سياستنا العامة، على الذي نحاول أن نقوم به. أظن أن من الأجدى أن ننظر حولنا بحثاً عن الأمور الصغيرة، الأشياء التي لا تهمّ كثيراً، الأشياء غير الطبيعية بعض الشيء. من الصعب أن أشرح ما أقصده، ولكنه مثل ذلك العمل الذي قمنا به قبل بضع سنوات في قضية كالفر: بقعة الحبر، هل تذكرونها؟ بقعة حبر حول حفرة فأر، بالله عليكم لماذا يقوم رجل بتفريغ زجاجة حبر في داخل حفرة فأر؟ لم يظهر أن ذلك مهمّ وكان من الصعب الحصول على إجابة، ولكن عندما توصّلنا إلى الإجابة فعلاً فإنها قادتنا إلى شيء محدّد. مثل هذه الأشياء هو ما كنت أفكّر فيه، أي الأشياء الغريبة. وأضيفُ أنك إذا صادفك شيء فسوف يذهلك قليلاً على غير العادة! سمّه تافهاً إذا أردت، ولكنه مثير لأنه ليس في مكانه الصحيح تماماً. حسناً، أرى الأب يهزّ رأسه موافقاً.

قال كبير المحقّقين ديفي: أوافقك تماماً. هيّا يا شباب، حاولوا التوصل إلى شيء ما، حتى لو كان ذلك مجرّد رجل يلبس قبعة مضحكة فقط.

لم تكن لديهم أية إجابة فورية، كلّ واحد منهم بدا غير متأكد ومرتاباً قليلاً فقال الأب: هيّا، سأبدأ بنفسي أولاً. إنها مجرّد قصة سخيفة في الحقيقة ولكنكم قد تعتبرونها ذات قيمة، قصّة اقتحام بنك

لندن وميلروبوليتان فرع شارع كارمولي. هل تتذكرونها؟ كانت لدينا قائمة كاملة بأرقام السيارات وألوانها وأنواعها. لقد ناشدنا الناس أن يأتونا بمعلوماتهم، وقد استجابوا، ولكن أيّ استجابة؟ لقد حصلنا منهم على نحو مئة وخمسين معلومة مضلّلة! وقد فرزناها في النهاية إلى نحو سبع سيارات تمّت مشاهدتها في المنطقة المجاورة، وأيّ واحدة منها قد تكون مرتبطة بحادث السرقة.

قال السيد رونالد: أجل، استمر.

- كانت هناك سيارة أو سيارتان لم نستطع ملاحقتهما؛ بدا وكأن أرقام اللوحات قد تم تغييرها. لم يكُن في ذلك شيء غير عاديّ فهذا يحدث كثيراً، ولكن معظمها جرى تعقّبه في النهاية. سأضرب على ذلك مثالاً واحداً فقط: سيارة موريس أكسفورد صالون سوداء رقم لوحتها «س م ج ٢٦٥» تمّ التبليغ عنها بواسطة ضابط مراقبة سلوك المذنبين الذين يُطلَق سراحهم، قال إن القاضي لدغروف كان يقودها.

قالها ونظر حوله، وكانوا يستمعون إليه ولكن دون أيّ اهتمام ظاهر فقال: أنا أعرف، كان ذلك خطأً كالعادة فالقاضي لدغروف رجل عجوز مميّز الشكل قبيح الهيئة. حسناً، لم يكُن ذلك الرجل هو القاضي لدغروف لأنه في ذلك الوقت تماماً كان في المحكمة، وقد كانت عنده سيارة موريس أكسفورد ولكن رقمها لم يكُن «س م ج ٢٦٥».

ونظر حوله برهة ثم قال: حسناً، حسناً، أنتم ترون أنه لا مغزى لهذه القصة، ولكن هل تعرفون ماذا كان رقم السيارة؟ إنه «س م ج

«٢٥٦». قريب منه، أليس كذلك؟ هذا تماماً هو نوع من الخطأ الذي يقع فيه الإنسان عندما يحاول أن يتذكر رقم سيارة.

قال السيد رونالد: عذراً، أنا لا أفهم تماماً.

قال كبير المحقّقين ديفي: لا يوجد شيء لفهمه في الحقيقة. فقط كان مثل رقم السيارة الحقيقي تماماً، أليس كذلك؟ «٢٦٥ و٢٥٦ س م ج». في الحقيقة كانت مصادفة أن توجد سيارة موريس أكسفورد من نفس اللون مختلفة في ترتيب رقم واحد وفيها شخص يشبه تقريباً صاحب السيارة الأخرى!

- هل تقصد...؟

- فقط اختلاف في ترتيب رقم واحد. خطأ متعمَّد، إنها تبدو كذلك تقريباً.

- آسف يا ديفي، ما زلت لا أفهم.

- حسناً، لا يوجد شيء لفهمه! فقط سيارة موريس أكسفورد رقمها «س م ج ٢٦٥» تسير في الشارع بعد سرقة البنك بدقيقتين ونصف، وقد تعرف ضابط السلوك على القاضي لدغروف فيها.

- هل تظن أن هذا الرجل كان في الحقيقة هو القاضي لدغروف؟ ماذا أصابك يا ديفي؟

- لا، أنا لا أقول إنه كان القاضي لدغروف أو إن للقاضي علاقة بسرقة البنك. كان القاضي يقيم في فندق بيرترام في شارع بوند، وفي ذلك الوقت تماماً كان موجوداً في المحكمة؛ هذا أمر

تمّ التحقق منه وإثباته بصورة قطعية. ولكنني أقول إن رقم السيارة ونوعها والتعرف على شخصية قائدها بواسطة ضابط المراقبة الذي كان يعرف لدغروف العجوز جيّداً بمجرّد النظر إليه هو نوع من المصادفة التي يجب أن تعني شيئاً، ومن الواضح أنها لم تكُن تعني شيئاً، وهذا سيّئ جداً!

تحرك كومستوك باضطراب ثم قال: لقد وقعت في برايتون حادثة شبيهة بهذه، قضية سرقة جواهر، وكان فيها أدميرال عجوز نسيت اسمه الآن. لقد جزمت إحدى السيدات بصورة أكيدة بأنه كان في مكان الحادث.

- ولم يكُن هناك؟

- نعم، كان في لندن في تلك الليلة؛ فقد ذهب لتناول عشاء في سلاح البحرية على ما أذكر.

- وهل كان يقيم في نادي البحرية؟

- لا، بل كان يقيم في فندق، وأظن أنه هو الفندق ذاته الذي ذكرته الآن أيها الأب؛ فندق بيرترام، أليس كذلك؟ مكان هادئ أظن أن الكثيرين من رجال الخدمة العسكرية العجائز غريبي الأطوار يذهبون إليه.

قال كبير المحقّقين ديفي متفكراً: فندق بيرترام!

* * *

الفصل الخامس

-١-

استيقظت الآنسة ماربل مبكراً كعادتها دائماً، وقد أعجبت بسريرها لأنه كان مريحاً جداً. أسرعت نحو النافذة وسحبت الستائر لتسمح بدخول ضوء نهار لندن الشاحب، ومع ذلك فإنها لم تحاول أن تستغني عن المصباح الكهربائي حتى تلك اللحظة. لقد أعطوها غرفة نوم جميلة جداً، وكان من عادات فندق بيرترام أن يكون في الغرفة ورق حائط بشكل زهور وخزانة أدراج كبيرة مدهونة بلون خشبي وطاولة تسريحة تتناسب معها وكرسيّان عموديان وآخر مربع مرتفع ارتفاعاً معقولاً عن الأرض، وباب يؤدي إلى الحمّام الذي كان حديثاً ذا حوائط مبلّطة ببلاط على أشكال زهور ناقضاً المظهر الجامد للحمامات الصحية.

عادت الآنسة ماربل إلى السرير ورتّبت وسائدها ثم نظرت إلى ساعتها التي كانت تشير إلى السابعة والنصف، ثم التقطت كتابها المفضّل الصغير الذي كان يرافقها دائماً، وكالعادة قرأت الصفحة ونصف الصفحة الخاصة بهذا اليوم ثم التقطت إبرة الصوف وبدأت

تشتغل بها. في البداية كانت بطيئة لأن أصابعها متصلبة بسبب ما تعانيه من آلام المفاصل عندما تستيقظ من نومها، ولكن بعد ذلك بقليل زادت سرعتها وتخلصت أصابعها من التصلّب الأليم.

قالت الآنسة ماربل لنفسها بابتسامة سعيدة رقيقة: لقد بدأ يوم آخر، ومن يعرف ماذا سيجلب معه؟

استرخت وتخلّت عن الإبرة وتركت الأفكار تمرّ من خلال رأسها بتكاسل. فكّرت في سيلينا هيزي: يا له من كوخ جميل هذا الذي تملكه في سينت ميري ميد! ولكن أحدهم قد بالغ في عمل ذلك السقف الأخضر البشع! فطائر الموفينيه... إسراف كبير في الزبد ولكنها جيدة جداً. وتصورت الكعكة البذرية بتلك الطريقة القديمة! لم تكُن تتوقع قط ولا للحظة واحدة أن الأمور ستكون مثلما اعتادت أن تكون عليه؛ فالزمن لم يبقَ كما هو، وحتى تجعله كما هو بهذه الطريقة فلا بدّ أن يكلف ذلك الكثير من المال. لا شيء في هذا المكان يبدو حقيقياً على الإطلاق. حسناً، ولماذا يجب أن يكون؟ لقد مضى خمسون... لا، بل ستون عاماً تقريباً على آخر مرة أقامت فيها هنا، ولم يبدُ لها حقيقياً أنها كانت قد تأقلمت على الوقت الحاضر. في الحقيقة كانت كل هذه الأمور قد كشفت عن بضع مسائل مثيرة للاهتمام ولا سيما بالجوّ وبالناس.

هل كان هذا مردّه إلى ذلك الشعور الغريب بالقلق الذي ألَمّ بها الليلة الماضية؟ ذلك الشعور بأن هناك شيئاً غير طبيعي. في الحقيقة إن كل الناس العجائز هنا يشبهون كثيراً أولئك الذين تذكرتهم عندما أقامت هنا قبل خمسين عاماً. إذن فقد كانوا طبيعيين؟ لكنهم لم

يكونوا طبيعيين في تلك اللحظة. الكبار هذه الأيام لا يشبهون الكبار في تلك الأيام؛ فلديهم نظرة قلق وانزعاج داخلي، كانوا يسرعون إلى الاجتماعات العامة ويحاولون أن يُظهروا الكفاءة والنشاط، أو كانوا يصبغون شعورهم بلون أزرق أو يلبسون الشعر المستعار، وكذلك أيديهم لم تكُن نفس الأيدي التي تتذكرها كأيدي دقيقة ناعمة، بل كانت خشنة من أثر الغسيل والمنظّفات الصناعية.

حسناً، إذن فهؤلاء الناس لم يَبدوا حقيقيين، ولكنهم كانوا حقيقيين بالفعل؛ سيلينا هيزي كانت حقيقية، وذلك الرجل العسكري العجوز الأنيق عند الركن كان حقيقياً. لقد التقت به مرّة رغم أنها لا تتذكر اسمه، وكذلك المطران العزيز روبي.

نظرت الآنسة ماربل إلى ساعتها الصغيرة التي كانت عقاربها تشير إلى الثامنة والنصف، وهو وقت إفطارها. تفحّصت تعليمات الفندق التي كانت مطبوعة بخطٍّ كبير فلم تُضطر إلى وضع النظارات: الوجبات يمكن طلبها بواسطة الهاتف بالاتصال بخدمات الغرف، أو يمكنك أن تضغط الزر المكتوب عليه «خدمة الغرف»، وذلك ما اختارته الآنسة ماربل لأن الاتصال بخدمات الغرف كان يربكها دائماً.

كانت النتيجة ممتازة؛ لم يمر وقت طويل حتى سمعت صوت دقّات على الباب وظهرت خادمة ذات هيئة مُرضِية جداً، خادمة غرف حقيقية تبدو غير حقيقية تلبس ثوباً أرجوانياً فاتحاً مقلّماً وتضع قبّعة حقيقية نظيفة، وكان وجهها الوردي يبتسم... إذن فهي من الريف بالتأكيد. أين يجدون هؤلاء الناس؟!

طلبت الآنسة ماربل إفطارها: شاياً وبيضاً مسلوقاً وخبزاً

طازجاً، وكانت الخادمة ذات فراسة ونباهة ولذلك لم تعرض عليها الحبوب ولا عصير البرتقال.

بعد ذلك بخمس دقائق وصل الإفطار: صينية لطيفة عليها إبريق شاي كبير وحليب وإبريقٌ فضيّ فيه ماء ساخن، وبيضتان مسلوقتان جميلتا الشكل فوق الخبز المحمّص، كانتا مسلوقتين بطريقة صحيحة غير جامدتين ككرات من رصاص صُبّت في كؤوس قصدير، وقطعة كبيرة من الزبد ومربّى برتقال وعسل ومربّى فراولة وخبز جميل الشكل ليس من ذلك النوع الصلب كأن بداخله ورقاً، وكانت رائحته رائحة خبز طازج (أعظم رائحة لذيذة في الدنيا!)، كما كانت في الإفطار أيضاً تفاحة وموزة وثمرة كمّثرى.

غرزت الآنسة ماربل سكّيناً بنشاط وبثقة ولم يخِب ظنّها؛ فقد انساب صفار البيضة بكثرة من داخلها. كان غليظاً ودسماً، بيضاً حقيقياً!

كل شيء كان ساخناً جداً، كان إفطاراً حقيقياً. كان يمكنها أن تجهز ذلك الطعام بنفسها ولكنها لم تكُن مضطرّة لذلك، لقد أُحضرَ لها وكأنها... لا، ليس وكأنها ملكة ولكن وكأنها سيدة في متوسط العمر تقيم في فندق جيد ولكنه ليس غالياً جداً. في الحقيقة أعادها هذا إلى ذكرياتها في عام ١٩٠٩. عبّرت الآنسة ماربل عن إعجابها فقالت خادمة الغرف مبتسمة: بالطبع يا سيدتي، إن الطاهي دقيق جداً في إعداد وجبات الإفطار.

تفحّصتها الآنسة ماربل برهة. إن فندق بيرترام يستطيع أن ينتج الأشياء الرائعة بالتأكيد مثل هذه الخادمة الحقيقية. سألت الخادمة: هل تعملين هنا منذ فترة طويلة؟

- منذ ثلاث سنوات فقط يا سيدتي.

- وقبل ذلك؟

- كنت في فندق في إيستبورن. كان فندقاً عصرياً جداً، ولكني أفضّل الأماكن القديمة كهذا المكان.

رشفت الآنسة ماربل من كوب الشاي وهي تهمهم بطريقة غامضة بكلمات كانت تناسب أغنية طويلة منسية فتقول: آه، أين كنت طوال حياتي؟

بدا شيء من الاضطراب على الخادمة فضحكت الآنسة ماربل وقالت معتذرة: كنت فقط أتذكّر أغنية قديمة، كانت مشهورة جداً في وقت من الأوقات.

ثم عادت تتمتم مرّة أخرى بهدوء قائلة: "آه، أين كنت طوال حياتي؟"، ثم سألت الخادمة: هل سمعتِها من قبل؟

فبدا على الخادمة شيء من الاعتذار وهي تقول: حسناً، أظن...

- إنها أغنية قديمة بالنسبة لك. آه، يمكن للإنسان أن يتذكر بعض الأشياء في مكان كهذا.

- نعم يا سيدتي، الكثير من السيدات اللاتي يُقِمن هنا يشعرن بمثل هذا على ما أظن.

- أحسب أن هذا هو سبب مجيئهن إلى هنا إلى حدّ ما.

خرجت الخادمة التي كان من الواضح أنها معتادة على العجائز

اللائي كنّ يُدَندِنّ ويتذكرن، في حين أنهت الآنسة ماربل إفطارها ونهضت مسرورة على غير عجل. كانت لديها خطّة جاهزة لقضاء صباح جميل في التسوق حتى تُذهِب الضجر عن نفسها. قد تذهب اليوم إلى شارع أكسفورد وغداً إلى نايتسبريدج، لقد خططت لذلك مسبقاً بسرور.

كانت الساعة العاشرة تقريباً عندما خرجت من غرفتها وهي جاهزة تماماً ترتدي قبعة وقفازات وتمسك مظلّة (للاحتياط فقط على الرغم من أن الجوّ بدا صحواً) وتمسك حقيبة يد، أكثر حقائب تسوّقها أناقة.

فُتح الباب المجاور والوحيد في الممر بحدّة وأطلّ شخص برأسه منه، كان ذلك الشخص هو بيس سيدجويك التي انسحبت متراجعة إلى غرفتها وأغلقت الباب بحدة كما فتحته، فشعرت الآنسة ماربل بالدهشة في حين كانت تنزل على الدرَج، وقد كانت تفضّل الدرج على المصعد في الصباح لأن هذا يجعلها أكثر رشاقة. بدأت تبطئ من وقع خطواتها شيئاً فشيئاً، ثم توقفت.

-٢-

بينما كان الكولونيل لاسكومب يمشي في الممر خارجاً من غرفته فُتح باب في أعلى الدرَج بحدّة وتكلمت الليدي سيدجويك معه فقالت: ها أنت ذا أخيراً! لقد كنتُ أراقبك وأنتظر الفرصة للانقضاض عليك. أين يمكن أن نذهب ونتحدث؟ أريد مكاناً لا يزعجنا فيه العجائز كل ثانية.

- حسناً، في الحقيقة يا بيس... أنا لست متأكداً تماماً من... أظن أن هناك غرفة كتابة في الطابق الثاني.

- من الأفضل أن تدخل إلى هنا، أسرع الآن قبل أن تكوّن خادمة الغرف أفكاراً غريبة عنّا.

خطا الكولونيل لاسكومب إلى عتبة الغرفة وهو كاره وأغلق الباب خلفه بقوة ثم قال: لم يكُن عندي أيّ فكرة عن أنك تقيمين هنا يا بيس، لم يكُن عندي أدنى فكرة عن ذلك.

- هذا ما ظننتُه.

- أقصد أنني ما كنت لأُحضر إلفيرا إلى هنا لو كنتُ علمتُ. هل تعرفين أنها هنا؟

- نعم، لقد رأيتها معك الليلة الماضية.

- ولكني لم أعرف أنكِ كنتِ هنا في الحقيقة؛ فلم يبدُ وجودك متوقعاً في مثل هذا المكان.

قالت بيس سيدجويك ببرود: لا أفهم لماذا تظنّ هذا. إنه مكان بعيد ومتزنٍ، وهو أكثر فنادق لندن راحة فلماذا لا أقيم هنا؟

- يجب أن تعرفي أنني لم تكُن عندي أدنى فكرة، أقصد...

نظرت إليه وضحكت. كانت مرتدية ملابسها وجاهزة للخروج في سترة داكنة أنيقة وقميص أخضر زمرّدي، وكانت تبدو مرحة وحيوية جداً، وإلى جانبها بدا الكولونيل لاسكومب عجوزاً وشاحباً فقالت له: عزيزي ديريك! لا تنزعج فأنا لا أتهمك بعمل مسرحية

لجمع أم بابنتها في لقاء عاطفي. إنه مجرّد واحد من هذه الأمور التي تحدث والتي يلتقي فيها الناس بعضهم ببعض في أماكن غير متوقَّعة. ولكن يجب أن تُخرِج إلفيرا من هذا المكان يا ديريك، يجب أن تُخرجها من هنا اليوم، في الحال.

- حسناً، سوف تذهب... أقصد... لقد أحضرتُها هنا لقضاء ليلتين فقط، لحضور عرض، وستذهب غداً إلى عائلة ميلفورد.

- يا لها من فتاة مسكينة! هذا سيسبّب لها الضجر.

نظر لاسكومب إليها باهتمام وقال: هل تعتقدين أنها ستصاب بالضجر؟

فأحسّت بيس بالشفقة عليه وقالت: قد لا تشعر بالضجر بعد حبسها في إيطاليا، بل إنها قد تراه أمراً مثيراً جداً.

استجمع لاسكومب شجاعته وقال: اسمعيني يا بيس، لقد اضطربتُ حين وجدتك هنا، ولكن ألا تعتقدين أن هذا... حسناً، ألا تعتقدين أن هذا يمكن أن يكون ذا مغزى معيَّن؟ أقصد أنها قد تكون فرصة، لا أظن أنك تعرفين كيف... كيف تشعر الفتاة!

- ما الذي تحاول أن تقوله يا ديريك؟

- أعني أنك أمّها.

- بالطبع أنا أمها وهي ابنتي، ولكن ماذا استفدنا من هذه الحقيقة هي أو أنا؟ أو أيّ فائدة ستعود علينا منها مستقبلاً؟

- لا يمكنك التأكد، أظن... أظن أنها تحسّ بهذا.

قالت بيس سيدجويك بحدّة: ما الذي يجعلك تظن هذا الرأي؟

- شيء قالته بالأمس. سألَت أين كنتِ وماذا كنتِ تفعلين.

سارت بيس سيدجويك ناحية النافذة ووقفت هناك لحظة وهي تضرب بأصابعها على لوح الزجاج ثم قالت: أنت لطيف جداً يا ديريك ولديك أفكار جميلة كهذه، ولكنها غير ذات جدوى يا ملاكي المسكين! كل ما يجب أن تقوله لنفسك هو أن هذا غير ذي جدوى وأنه قد يكون خطيراً.

- ماذا؟! ماذا تقولين يا بيس؟ خطير؟!

- نعم، نعم، نعم، خطير. إنني خطيرة، لقد كنت خطيرة دائماً.

- عندما أفكر في بعض الأشياء التي فعلتِها...

- هذا هو شأني الخاصّ؛ الركض إلى الخطر، وقد أصبح عادة بالنسبة لي. لا، ليس عادة، بل أصبح إدماناً كالمخدّرات، مثل تلك الجرعة الصغيرة من الهيروين التي يأخذها المدمنون من حين لآخر. حسناً، هذا جيّد، إنها جنازتي أنا! والآن لا تكن عجوزاً أحمق عنيداً يا ديريك، أبقِ تلك الفتاة بعيدة عنّي جداً؛ فأنا لن أفيدها بل سأؤذيها فقط. وليتك لا تدعها تعرف أنني كنت أقيم في نفس الفندق. اتصل بعائلة ميلفورد وخذها إلى هناك اليوم، اخترع أيّ عذر بخصوص أمر طارئ.

بدا على الكولونيل لاسكومب التردد وهو يسحب شواربه ثم

قال: أظن أنك ترتكبين غلطة كبيرة يا بيس. لقد سألَت عن مكانك فقلت لها إنك كنت مسافرة.

- حسناً، سأكون مسافرة بعد اثنتي عشرة ساعة، إذن فكل شيء يبدو مناسباً بصورة جميلة.

قالتها ثم دارت حوله بخفة ورشاقة ومرح وكأنها تلاعبه، ثم فتحت الباب ودفعته دفعة خفيفة إلى الخارج. وبينما كان الباب يُغلَق خلفه لمح الكولونيل لاسكومب امرأة عجوزاً عند الركن تنزل الدرَج وهي تهمهم لنفسها ببضع كلمات وتنظر إلى حقيبة يدها قائلة: يا إلهي!. لا بدّ أنني تركتُه في غرفتي. يا إلهي!

مرّت من جانب الكولونيل لاسكومب دون أن تُعيره اهتماماً كبيراً على نحو واضح، ولكن بينما كان ينزل الدرَج توقّفت الآنسة ماربل بجانب باب غرفتها ووجّهت إليه نظرة ثاقبة، ثم نظرت ناحية باب بيس سيدجويك وقالت لنفسها: هذا ما كنتُ أنتظره. لماذا يا تُرى؟

-٣-

بعد أن تَقَوّى الكاهن بينيفاذر بتناوله الإفطار تجول داخل القاعة، ثم تذكر أن يترك مفتاحه في مكتب الاستقبال، وبعد ذلك شقّ طريقه من خلال الباب الدوّار ودخل في سيارة أجرة استدعاها له الحاجب الأيرلندي الذي كان موجوداً لهذا الغرض، ثم سأله الحاجب: إلى أين ستذهب يا سيدي؟

قال الكاهن بينيفاذر بفزع مفاجئ: نعم... دعني أتذكّر. إلى أين كنت ذاهباً؟

تعطّل المرور في شارع بوند بضع دقائق في حين كان الكاهن بينيفاذر وحاجب الفندق يتناقشان في هذه النقطة المعقّدة، وأخيراً رجعت الذاكرة إلى الكاهن بينيفاذر وتمّ توجيه سيارة الأجرة إلى المتحف البريطاني.

بقي الحاجب واقفاً على الرصيف وعلى وجهه ضحكة عريضة، وحيث لم يخرج أحدٌ آخر من الفندق فقد سار يخطو قليلاً على طول واجهة الفندق وهو يصفر ويترنم بلحن قديم. ثم فُتحت إحدى نوافذ الطابق الأرضي من فندق بيرترام، ولكن الحاجب لم يلتفت برأسه ناحيتها إلا حين تكلّم صوت من خلال النافذة المفتوحة على نحو غير متوقع يقول: إذن فهذا هو المكان الذي رسوتَ فيه يا ميكي؟ ما الذي أحضرك إلى هذا المكان بالله عليك؟!

التفت الحاجب بسرعة مرعوباً وحدّق نحو مصدر الصوت، فأخرجت الليدي سيدجويك رأسها من النافذة المفتوحة ثم سألته قائلة: ألا تعرفني؟

ظهرت على وجه الرجل ومضة مفاجئة تدلّ على معرفته بها فقال: يا إلهي! أليست هذه هي بيسي الصغيرة؟ هل هذا معقول؟! بعد كل هذه السنين... بيسي الصغيرة!

- لا أحد غيرك يناديني باسم بيسي، وهو اسم مقزّز للنفس. ماذا كنت تفعل طوال هذه السنين؟

قال ميكي مع بعض التحفّظ: هذا وذاك... لكنني لم أكُن موضوع الأخبار كما كنتِ أنت. لقد كنت أقرأ عن أفعالك في الجرائد من وقت لآخر.

ضحكت بيس سيدجويك قائلة: على أية حال فأنا أبدو أفضل منك؛ فأنت تشرب كثيراً، وقد كنت دائماً تفعل ذلك.

- أنت تبدين بخير لأنك تملكين المال دائماً.

- ما كان المال ليفيدك بأيّ شيء، ولو كان عندك مال لشربتَ أكثر ولَعشتَ حياة مضطربة تماماً. نعم، كان حالك سيصير كذلك. ما الذي أحضرك إلى هنا؟ هذا ما أريد أن أعرفه، كيف وصلت إلى هذا المكان؟

- كنت أريد عملاً، وكان عندي هذه.

وضرب بيده على صف من الميداليات يكسو صدره فقالت: نعم، إنني أرى.

كانت مستغرقة في التفكير فقالت: إنها كلها حقيقية، أليس كذلك؟

- بالتأكيد حقيقية، ولماذا لا تكون كذلك؟

- إنني أصدقك؛ لقد كنتَ تملك الشجاعة دائماً، كنتَ دائماً محارباً جيداً. نعم، لقد كان الجيش يناسبك، أنا متأكدة من ذلك.

- الجيش جيد في وقت الحرب ولكنه ليس كذلك في وقت السلم.

- ولذلك التجأتَ إلى هذا العمل؟ لم يكُن عندي أدنى فكرة...

وتوقفت عن الكلام فجأة فقال: لم يكُن عندك أدنى فكرة عن ماذا يا بيسي؟

- لا شيء. من الغريب رؤيتك مرّة أخرى بعد كل هذه السنين.

قال الرجل: أنا لم أنسَ، لم أنسَكِ قط يا بيسي الصغيرة، آه، كم كنتِ فتاة جميلة... فتاة جميلة وصغيرة!

- فتاة حمقاء لعينة، هذا ما كنتُه.

- هذا صحيح، أجل؛ لم يكُن عندك كثير من الإدراك، ولو كان عندك لما وافقت على العيش معي. كم كنتِ بارعة في ركوب الخيل! هل تتذكرين تلك المهرة...؟ ماذا كان اسمها؟ مولي أو فلين، لقد كانت شيطانة شريرة تلك المهرة!

قالت الليدي سيدجويك: لقد كنتَ الوحيد الذي يستطيع ركوبها.

- كانت تريد إسقاطي لو استطاعت، وعندما وجدَت أنها لا تستطيع استسلمَت. آه، لقد كانت جميلة، ولكن إن تحدثنا عن ركوب الخيل فلم تكُن أيّ امرأة تفعل ذلك أفضل منكِ. لقد كان ركوبك جميلاً ولم تخافي قط ولا لدقيقة واحدة، وقد أصبح هذا دأبك دائماً في كل شيء كما هو واضح في ركوب الطائرات وسيارات السباق.

ضحكت بيس ثم قالت: يجب أن أتابع كتابة رسائلي.

وسحبت رأسها من النافذة، في حين مال ميكي فوق حافة النافذة وقال قاصداً مغزى معيّناً: أنا لم أنسَ بالبغولان... أحياناً كنت أفكر أن أكتب إليك.

خرج صوت بيس سيدجويك غليظاً وهي تقول: ماذا تقصد من قولك هذا يا ميك غورمان؟

- فقط كنت أقول أنني لم أنسَ أي شيء، كنت فقط أذكّرك بذلك.

كان صوت بيس سيدجويك ما يزال ذا نبرة غليظة وهي تقول: إذا كنت تقصد الذي أعتقد أنك تقصده فسأقدّم إليك نصيحة صغيرة: أيّ مشكلة من طرفك ستجعلني أقتلك بنفس السهولة التي أقتل بها فأراً... لقد قتلتُ رجالاً من قبل.

- أظن هذا في الخارج فقط.

- في الخارج أو هنا، لا فرق لديّ.

- يا إلهي، أعتقد أنك ستفعلين ذلك!

وحمل صوته معه شيئاً من الإعجاب وهو يقول: في بالبغولان...

فقاطعته قائلة: في بالبغولان دفعوا لك لكي تُبقي فمك مغلَقاً، دفعوا لك بسخاء. لقد أخذتَ المال ولن تأخذ المزيد مني، لذلك لا تفكر في هذا.

- ستكون قصة رومَنسية جميلة لصحف يوم الأحد.

- لقد سمعتَ ما قلتُه لك.

- يا إلهي!

ثم ضحك قائلاً: أنا لست جاداً بل كنت أمزح فقط. لن أفعل أيّ شيء يؤذي صغيرتي بيسي، سأُبقي فمي مغلقاً.

- احرص على ذلك.

ثم أغلقت النافذة وهي تحدّق إلى الطاولة أمامها، ونظرت إلى رسالتها التي لم تنتهِ من كتابتها بعد على ورق نشّاف، ثم أخذتها بيدها ونظرت إليها وكوّرتها ورمتها في سلة المهملات، ثم نهضت عن مقعدها وخرجت من الغرفة دون أن تلقي نظرة حولها قبل أن تذهب.

كان لغرف الكتابة الصغيرة في فندق بيرترام شكل يكاد يدلّ على أنها خالية حتى عندما لا تكون كذلك. طاولتان موضوعتان بشكل جيّد مقابل النوافذ، وطاولة على اليمين عليها بعض المجلات، وعلى اليسار مقعدان طويلان جداً في جهة المدفأة. كانت هذه هي الأماكن المفضّلة للجلوس فيها بعد الظهر بالنسبة إلى الرجال العسكريين أو رجال البحرية كبار السن لكي يُخفوا أنفسهم ويغفوا نائمين بسعادة حتى تحين ساعة الشاي. أيّ شخص يدخل لكي يكتب رسالة كان من العادة أن لا يلاحظهم، ولم يكُن الطلب كثيراً على الكراسي في أثناء فترة الصباح.

ولكن مع ذلك كانت الكراسي مشغولة في ذلك الصباح بصفة خاصّة، فعلى أحد الكرسيَّين جلست سيدة عجوز هي الآنسة ماربل

وعلى الكرسي الآخر جلست فتاة شابّة هي إلفيرا بليك. نهضت الفتاة على قدميها ووقفت لحظة تنظر غيرَ واثقة ناحية الباب الذي مرّت الليدي سيدجويك من خلاله، ثم تحركت ببطء تجاهه، وكان وجهها شاحباً شحوب الأموات!

مرّت خمس دقائق أخرى قبل أن تتحرك الآنسة ماربل، وقد قرّرت أن فترة الاستراحة القصيرة التي كانت تأخذها دائماً بعد أن ترتدي ملابسها وتنزل الدرَج قد دامت طويلاً بما فيه الكفاية. لقد حان الوقت للخروج والتمتع بمباهج لندن. يمكنها أن تسير في شارع البيكاديللي وتستقلّ الحافلة رقم ٩ إلى هاي ستريت أو كنسينغتون، أو يمكنها أن تسير في شارع بوند وتستقلّ الحافلة رقم ٢٥ إلى محلاّت مارشال وسنلغروف، أو يمكن أن تستقلّ الحافلة رقم ٢٥ في الاتجاه الآخر والذي كان ينزلها عند محلاّت الجيش والبحرية حسبما تتذكر... كانت ما تزال تفكر في تلك الأشياء المبهجة وهي تمرّ خارجةً من الباب الدوّار، واتخذ الحاجب الأيرلندي الذي عاد إلى عمله القرارَ بالنيابة عنها فقال بتأكيد: هل تريدين سيارة أجرة يا سيدتي؟

قالت الآنسة ماربل: لا أظن ذلك. أريد الحافلة رقم ٢٥، أستطيع أن أستقلّها من مكان قريب جداً من هنا، أو الحافلة رقم ٢ من بارك لين.

- لا يمكنك ركوب الحافلة يا سيدتي؛ من الخطر جداً أن تقفزي إلى الحافلة عندما تتقدم بك الحياة، كما أن الطريقة التي تنطلق بها الحافلة وتتوقف ثم تنطلق مرّة أخرى خطيرة لأنها تدفعك فجأة دفعة شديدة. سائقو الحافلات هؤلاء لا قلوب لهم على الإطلاق

في هذه الأيام. سوف أستدعي لك سيارة أجرة لتذهبي بها إلى حيث تشائين كالملكات.

فكّرت الآنسة ماربل قليلاً ثم أذعنت لرأيه قائلة: حسناً، ربما كان من الأفضل أن أستقل سيارة أجرة.

لم يكُن الحاجب بحاجة لكي يصفر لسيارة الأجرة، بل أشار بإصبعه فقط فظهرت على الفور سيارة أجرة مثل السحر. قام الحاجب بمساعدة الآنسة ماربل على الدخول إلى السيارة بكل حذر ممكن، وقرّرت ارتجالاً أن تذهب إلى محلاّت روبنسون وكليفر وتنظر إلى عرضهم الرائع بخصوص الملاءات الكتّانية. جلست بسعادة في سيارة الأجرة تشعر بذلك الشعور الحقّ الذي وعدها به الحاجب... تماماً مثل الملكات. كان عقلها مليئاً بالتفكير الممتع بالملاءات الكتّانية وأغطية الوسائد الكتّانية ومناشف وملابس المطبخ الكتّانية غير المطبوع عليها صور الموز أو صور الكلاب أو أيّ رسوم تافهة تشتّت التفكير وتزعجك عندما تقومين بغسل الأطباق!

* * *

جاءت الليدي سيدجويك إلى مكتب الاستقبال وسألت قائلة: هل السيد همفريز في مكتبه؟

قالت الآنسة غورينج وقد بدت قلقة: نعم يا ليدي سيدجويك.

مرّت الليدي سيدجويك من خلف مكتب الاستقبال وطرقت على الباب ودخلت دون أن تنتظر أي ردّ، فرفع السيد همفريز بصره إليها فزعاً وقال: ما هذا؟

- من الذي وظّف مايكل غورمان؟

غمغم السيد همفريز ببعض الكلمات غير المفهومة قليلاً ثم قال: لقد غادرَنا بارفيت بعد أن أصيب في حادث سيارة منذ شهر، وكان علينا أن نعيّن أحداً مكانه بسرعة. هذا الرجل بدا مناسباً؛ فقد كان يعمل في الجيش وله سجلّ نظيف تماماً. قد لا يكون ذكياً جداً ولكن هذا أفضل الموجود أحياناً. أنت لا تعرفين أيّ شيء ضدّه، أليس كذلك؟

- أعرف ما يكفي لإبعاده من هنا.

- إذا أصررتِ...

ثم أكمل همفريز ببطء: سوف نعطيه تبليغاً بالفصل.

قالت الليدي سيدجويك: لا، لا، لقد فات الوقت كثيراً الآن. لا عليك.

* * *

الفصل السادس

-١-

- إلفيرا!

- مرحباً بريدجيت.

شقّت إلفيرا طريقها من خلال الباب الأمامي للبناية رقم ١٨٠ في ميدان أونسلو بعدما نزلت صديقتها بريدجيت من أعلى لتفتح لها الباب حيث كانت تراقبها من خلال النافذة.

قالت إلفيرا: دعينا نصعد إلى الطابق العلوي.

- نعم، سيكون هذا أفضل وإلاّ فسوف نقع في مشكلة مع أمّي.

أسرعت الفتاتان إلى الطابق العلوي حيث تخلّصتا من والدة بريدجيت التي خرجت إلى الدرَج من باب غرفة نومها ولكن متأخرة جداً.

قالت بريدجيت متقطّعة الأنفاس في حين كانت تأخذ صديقتها

إلى غرفة نومها وهي تغلق الباب بقوة: في الحقيقة أنت محظوظة لأنك بلا أمّ! بالطبع لا أقصد أنني لا أحب أمي ولكن الأسئلة التي تسألها في الصباح وعند الظهر وفي الليل: أين أنت ذاهبة؟ مَن قابلتِ؟... أعني كل هذه الأسئلة التي لا جدوى منها.

قالت إلفيرا بغموض: ربما لم يكن لديها شيء تفكر فيه سوى هذا. حسناً يا بريدجيت، ثمة أمر مهم جداً أريد أن أعمله وعليك مساعدتي.

- حسناً، سأفعل إذا كنت أستطيع. ما هو؟

- يجب أن أذهب إلى أيرلندا لمدة أربع وعشرين ساعة أو قد تزيد، وعليك أن توفري لي الغطاء.

- أيرلندا؟ لماذا؟!

- لا أستطيع أن أخبرك عن كل ذلك الآن فلا وقت لديّ؛ يجب أن أذهب لأقابل الوصيّ عليّ، الكولونيل لاسكومب، في مطعم برونير لأتناول معه الغداء في الواحدة والنصف.

- وماذا فعلت مع السيدة كاربنتر؟

- لقد أفلتّ منها في ديبنهام.

قهقهت بريدجيت في حين أكملت إلفيرا قائلة: وبعد الغداء سيأخذونني إلى عائلة ميلفورد، سأعيش معهم حتى بلوغي الحادية والعشرين من العمر.

- يا له من أمر مريع!

- أظن أنني سأتدبر الأمر؛ فمن السهل تماماً خداع ابنة عمي ميلدريد. لقد خططوا لقدومي من أجل الدراسة وهذه الأمور... المحاضرات والمتاحف ومعارض الصور ومجلس اللوردات وكل هذه الأماكن... المغزى كله هو أنه لا أحد سيعرف إن كنتِ موجودة في المكان الذي يجب أن تكوني فيه أم لا. سوف نخطط لأشياء كثيرة.

قهقهت بريدجيت مرّة ثانية وقالت: أعتقد أننا سنفعل. لقد قمنا بذلك في إيطاليا، أليس كذلك؟ لقد ظنّت تلك العجوز أنها كانت صارمة معنا، ولكنها كانت تجهل كل الذي خططنا له عندما قمنا به.

وضحكت كلتا الفتاتين تعليقاً على نجاح خططهما الخبيثة ثم قالت إلفيرا: رغم ذلك فالأمر يحتاج إلى تخطيط.

قالت بريدجيت: وإلى بعض الكذب المتقَن أيضاً! هل سمعتِ أخباراً من غويدو؟

- نعم؛ لقد كتب لي رسالة طويلة موقَّعة باسم جينيفرا (وكأنه صديقة لي). ولكن لا تطيلي الحديث يا بريدجيت؛ لدينا الكثير لكي نفعله في نحو ساعة ونصف فقط. الآن وقبل كل شيء استمعي إليّ، لديّ موعد غداً مع طبيب الأسنان، هذا سهل وأستطيع أن أتخلص منه بواسطة الهاتف أو أنك تستطيعين ذلك من هنا، ثم في منتصف النهار يمكنك أن تتصلي ببنات العمّ ميلفورد وتتظاهري بأنك أمّك وتشرحي أن طبيب الأسنان يريد أن يراني مرة أخرى في اليوم التالي، وهكذا سأقيم معكما هنا.

- يجب أن يتمّ هذا بصورة جيدة. ولكن ماذا لو أنك لم تعودي في اليوم التالي؟

- إذن سيكون عليك أن تقومي بالمزيد من الاتصالات الهاتفية.

بدت بريدجيت متشككة فقالت إلفيرا بنفاد صبر: سيكون عندنا وقت طويل لنفكّر في شيء قبل ذلك الوقت.

ثم أردفت بنبرة فيها نوع من اليأس: ما يقلقني الآن هو المال. لا أظن أن لديك مالاً؟

- لديّ نحو جنيهين فقط.

- هذا غير كافٍ. يجب عليّ أن أشتري تذكرة طائرة. لقد نظرت في جدول الرحلات فوجدت أن الرحلة تستغرق ساعتين فقط، والأمر يعتمد بشدة على الزمن الذي سيستغرقني في إنجاز مهمتي هناك.

- ألا يمكنك أن تخبريني ماذا ستفعلين؟

- لا أستطيع، ولكنه أمر مهمّ، مهمّ جداً.

بدا صوت إلفيرا مختلفاً جداً لدرجة جعلت بريدجيت تنظر إليها بدهشة وتقول: هل هو مهم حقاً يا إلفيرا؟

- نعم، إنه كذلك.

- هل هو شيء يجب أن يتمّ دون أن يعرف عنه أحد؟

- نعم، هو كذلك. إنه سر مخيف، مخيف! يجب عليّ أن أكتشف شيئاً هل هو حقيقي أم لا. لكن ما يشغلني الآن هو موضوع ذلك المال، وما يثير الجنون هو أنني غنية جداً في الحقيقة! لقد

أخبرني الوصيّ بذلك، ولكن كل الذي يعطونه لي هو مصروف تافه للملابس، وهذا تجدينه قد أُنفقَ بمجرّد الحصول عليه.

- ألا يستطيع وصيّك الكولونيل فلان هذا أن يُقرضك بعض المال؟

- هذا غير ممكن بتاتاً؛ سوف يسأل العديد من الأسئلة وسيسعى إلى معرفة سبب حاجتي إلى المال.

- نعم يا عزيزتي، سيفعل ذلك. آه، لست أدري لماذا يريد الجميع أن يسألوا أسئلة كثيرة!

وافقتها إلفيرا بإيماءة سريعة لأن عقلها كان يسلك مسلكاً آخر، ثم قالت: هل رهنت أيّ شيء من قبل يا بريدجيت؟

- أبداً، ولا أظن أنني أعرف كيف أعمل ذلك.

- إنه سهل جداً على ما أظن.

- لكني لا أملك أيّ شيء يمكن رهنه.

- ألا تملك والدتك شيئاً من الحلي؟

- لا أحبّذ أن نطلب منها المساعدة.

- لا أظننا سنفعل، ولكن قد نستطيع أن نسرق بعضاً منها.

قالت بريدجيت مصدومة: ماذا؟! لا أظن أننا نستطيع عمل ذلك.

- لكني أراهن أنها لن تلاحظ شيئاً. يمكننا أن نعيدها إليها قبل

أن تدري بفقدها. حسناً، لا عليك، سوف نذهب إلى السيد بولارد.

- ومَن السيد بولارد؟

- ألا تعرفينه؟ إنه صاحب محلّ الجواهر الذي تتعامل معه العائلة وأنا آخذ ساعتي إليه دائماً لكي يصلحها، إنه يعرفني منذ كنت في السادسة من عمري. هيا يا بريدجيت، سوف نذهب إليه على الفور فوقتنا ضيّق جداً.

- من الأفضل أن نخرج من الخلف، وبذلك لن تسألنا أمّي إلى أين نحن ذاهبتان.

* * *

في خارج محل جواهر بولارد ووايتلي في شارع بوند قامت الفتاتان بعمل ترتيباتهما الأخيرة. سألت إلفيرا: هل أنت متأكدة من أنك تفهمين يا بريدجيت؟

قالت بريدجيت بصوت يخلو من السرور: أظن ذلك.

- أولاً نريد أن نجعل ساعتَينا متزامنتين.

ابتهجت بريدجيت قليلاً لكلمة «متزامنتين»، تلك الكلمة الأدبية المألوفة التي لها وقع ممتع على السمع. ثم جعلتا ساعتيهما متوافقتين حيث قامت بريدجيت بتعديل ساعتها دقيقة واحدة، ثم قالت إلفيرا: ساعة الصفر ستكون بعد خمس وعشرين دقيقة بالضبط. هذا سيعطيني الكثير من الوقت، ربما أكثر مما أحتاجه، ولكن هذا أفضل.

قالت بريدجيت: ولكن افترضي...

- أفترض ماذا؟

- حسناً، أقصد افترضي أن مكروهاً وقع؟

- لن يحدث هذا بالطبع؛ أنت رشيقة وسريعة العدو، والسيارات في لندن معتادة على التوقفات المفاجئة. لا تقلقي، سيكون الأمر على ما يرام.

بدا أن بريدجيت غير مقتنعة فقالت إلفيرا: أنت لن تخذليني يا بريدجيت، أليس كذلك؟

قالت بريدجيت: حسناً، لن أخذلك.

قالت إلفيرا: اتفقنا يا عزيزتي.

عبرت بريدجيت إلى الجانب الآخر من شارع بوند وفتحت إلفيرا باب محل بولارد وورايتلي تاجرَي الجواهر وصانعَي الساعات القديمَين. في الداخل كان الجوّ جميلاً والهدوء مخيّماً، ثم جاء رجل نبيل يلبس سترة طويلة وسأل إلفيرا إن كان بوسعه أن يخدمها بأي شيء فقالت: هل أستطيع أن أرى السيد بولارد؟

- السيد بولارد؟ ومَن الذي يريده؟

- الآنسة إلفيرا بليك.

اختفى الرجل النبيل، وذهبت إلفيرا إلى طاولة حيث صُفّت تحت ألواح زجاجية جواهرُ تضمّ خواتمَ وعقوداً معروضة على

قواعد ذات ألوان مخملية مناسبة، وبعد دقائق قليلة ظهر السيد بولارد الذي كان كبير الشركاء في الشركة.

كان رجلاً كبيراً في الستين من عمره، وقد حيّا إلفيرا بمودّة حارّة قائلاً: مرحباً يا آنسة بليك! إذن فأنت في لندن؟ جميل جداً أن أراك. هل من خدمة أستطيع أن أؤدّيها لك؟

أخرجت إلفيرا ساعة يد صغيرة أنيقة وقالت: هذه الساعة لا تعمل بصورة صحيحة، هل يمكنك أن تصلحها؟

- نعم، بالطبع؛ لا صعوبة في ذلك.

أخذها السيد بولارد منها وقال: ما العنوان الذي سأرسلها إليه؟

أعطته إلفيرا العنوان ثم قالت: وهناك شيء آخر، وصيّي الكولونيل لاسكومب... هل تعرفه؟

- نعم، بالطبع.

- سألني عمّا أحبه كهدية لعيد الميلاد، وقد رأى أن أحضر إلى هنا وأشاهد بعض الأشياء المختلفة، وسألني إذا كنت أريده أن يحضر معي فقلت إنني أفضّل أن آتي وحدي أولاً لأنني أرى أن هذا مربك، أليس كذلك؟ أقصد الأسعار وما إلى ذلك.

قال السيد بولارد بطريقة لطيفة مبتهجاً: حسناً، هذه وجهة نظر حسنة. والآن ماذا في رأسك يا آنسة بليك؟ دبوس؟ عقد؟ خاتم؟

- في الحقيقة أعتقد أن الدبابيس مفيدة أكثر، ولكني أتساءل إن كان بوسعي أن أنظر إلى عدّة أشياء؟

ورفعت بصرها إليه بتوسل فابتسم متعاطفاً معها وقال: بالطبع، بالطبع، لن يكون ممتعاً أن يقرّر المرء بسرعة، أليس كذلك؟

مرت الدقائق الخمس التالية بصورة مقبولة؛ ذهب السيد بولارد وأحضر أشياء من بعض العلب، ثم نُثرت أمام إلفيرا دبابيس وعقود مكوّمة على قطعة من المخمل، ومن وقت لآخر كانت تلتفت جانباً لكي تنظر إلى نفسها في المرآة تجرب شكل الدبوس أو القرط عليها، وفي النهاية وضعت جانباً بنوع من التردد سواراً صغيراً جميلاً وساعة يد صغيرة من الألماس ودبوسين.

قال السيد بولارد: سنكتب ملاحظة بهذه الأشياء، وعندما يحضر الكولونيل لاسكومب إلى لندن في المرة القادمة قد يأتي إلى هنا ويقرر بنفسه ما سيحضره لك.

- أظن أن هذه الطريقة ستكون جميلة جداً؛ سيشعر أنه قد اختار هديتي بنفسه، أليس كذلك؟

ارتفعت عيناها الزرقاوان ناحية وجه الرجل وهي تدرك أن خمساً وعشرين دقيقة بالضبط قد انقضت منذ دخلت إلى هذا المتجر. وفي الخارج دوّى صوت كوابح سيارة قوي وصرخة فتاة عالية، فالتفتت كل الأعين في المحل بصورة يتعذّر اجتنابها ناحية النوافذ التي تُطل على شارع بوند. كانت حركة يد إلفيرا على الطاولة التي أمامها ثم إلى داخل جيب معطفها الأنيق سريعة جداً وغير ملاحَظة حتى لو كان شخصٌ ما ينظر إليها.

قال السيد بولارد وهو يعود بنظره من المكان الذي كان ينظر إليه في الخارج: كاد أن يصبح حادثاً؛ يا لها من فتاة غبية! كيف تندفع عابرة الشارع بهذه الطريقة؟

مضت إلفيرا في طريقها نحو الباب وهي تنظر إلى ساعة يدها وتقول متصنّعة الدهشة: يا إلهي! لقد مكثت هنا طويلاً. سيفوتني القطار العائد إلى الريف. شكراً جزيلاً لك يا سيد بولارد، لن تنسى الأشياء الأربعة التي اخترتها، أليس كذلك؟

وبعد دقيقة أخرى كانت خارج الباب، ودارت بسرعة ناحية اليسار ثم إلى اليسار مرّة أخرى ثم توقفت تحت مظلّة أمام محل أحذية إلى أن انضمّت إليها بريدجيت وهي متقطعة الأنفاس وقالت: يا إلهي كم كنتُ خائفة! ظننت أنني سأُقتل، لقد مُزّق جورباي أيضاً.

- لا تهتمّي.

ثم أخذت صديقتها وسارتا بسرعة على طول الشارع ثم استدارتا عند زاوية أخرى جهة اليمين ثم قالت إلفيرا: هيّا، أسرعي.

- هل... هل تمّت العملية على ما يرام؟

أدخلت إلفيرا يدها إلى جيبها وأخرجتها وهي تعرض عقداً من الألماس والياقوت في راحة يدها، فقالت بريدجيت متبهرة: يا لك من جريئة يا إلفيرا!

- الآن عليك أن تذهبي إلى محل الرهونات ذلك الذي حددناه، ادخلي إليه وانظري كم تستطيعين الحصول على مال مقابل هذا، اطلبي مئة.

- هل تظنين؟ افترضي أنهم قالوا... أقصد... أعني... قد تكون هذه الحلي في قائمة الأشياء المسروقة.

- لا تكوني غبية؛ كيف تكون في القائمة بهذه السرعة؟ إنهم لم يلاحظوا أنها قد سُرقت حتى الآن.

- ولكن يا إلفيرا، عندما يلاحظون أنها ذهبت فسوف يعتقدون... قد يعرفون أنك لا بدّ قد أخذتِها.

- قد يعتقدون ذلك لو اكتشفوا الأمر في التو.

- حسناً، إذن فسيذهبون إلى الشرطة و...

توقفت في حين كانت إلفيرا تهزّ رأسها ببطء وشعرها الأصفر الشاحب يتمايل جيئة وذهاباً وابتسامة باهتة تبدو على شفتيها، ثم قالت: لن يذهبوا إلى الشرطة يا بريدجيت، بالتأكيد لن يذهبوا إذا اعتقدوا أنني أنا التي أخذته.

- لماذا؟ هل تقصدين...؟

- كما قلت لك، سوف أحصل على الكثير من المال عندما أكون في الحادية والعشرين وسأكون قادرة على شراء الكثير من الجواهر منهم. صدّقيني، إنهم لن يفضحوا الأمر. اذهبي واحصلي على النقود بسرعة، ثم اذهبي إلى شركة طيران لينغاس واحجزي تذكرة باسمي. يجب أن أستقلّ سيارة أجرة إلى مطعم بروتير فقد تأخرت عشر دقائق. سأكون معك غداً صباحاً في العاشرة والنصف.

تأوّهت بريدجيت وقالت: آه يا إلفيرا! كنت أتمنّى أن لا تقعي في مثل هذه المجازفات المخيفة.

ولكن إلفيرا كانت قد أوقفت سيارة أجرة وانطلقت بها.

-٢-

قضت الآنسة ماربل وقتاً ممتعاً جداً في محلاّت روبنسون وكليفر، وإلى جانب شراء ملاءات غالية رائعة كانت تحب الملاءات الكتّانية بنسيجها وملمسها النديّ، كما أنها كانت مولَعة بشراء مناشف الزجاج من النوعية الجيّدة ذات الحاشية الحمراء. في الحقيقة كان من الصعب الحصول على مناشف زجاج مناسبة في تلك الأيام، وبدلاً من ذلك كانوا يعرضون أشياء قد تكون أغطية طاولات للزينة مزخرَفة برسومات الفجل أو برج إيفل أو ساحة ترافلغار أو أشياء أخرى متناثرة مثل الليمون والبرتقال... وبعد أن أعطت عنوانها في سينت ميري ميد وجدت الآنسة ماربل حافلة مناسبة فاستقلّتها إلى محلاّت الجيش والبحرية.

كانت عمّة الآنسة ماربل تُكثر من التردد على محلاّت الجيش والبحرية في الأيام البعيدة الماضية، وبالطبع لم يكُن تماماً نفس المكان الذي هو عليه الآن. سافرت الآنسة ماربل بأفكارها بعيداً إلى الوراء متذكّرةً العمّة هيلين وهي تتسوق في قسم البقالة ثم تجلس على كرسي لترتاح وهي تلبس قلنسوة والشيء الذي كانت تسمّيه دائماً معطفاً من البوبلين الأسود، وتخيلتها وهي تمضي ساعة طويلة دون أيّ استعجال وهي تفكر في كل غرض يمكن شراؤه وتخزينه لاستعمالات المستقبل... وعندما كانت الصغيرة جين تتململ نوعاً ما كانت عمّتها تخبرها أن تذهب وتنظر إلى قسم الزجاج لتسلّي

نفسها. وبعد أن تنهي مشترياتها كانت العمّة هيلين تبدأ استفساراتها الطويلة عن والدة مساعد المحل وزوجته والولد الثاني وأخت زوجته المشلولة... وبعد أن تقضي صباحاً ممتعاً جداً كانت العمّة هيلين تقول بطريقة المداعبة في تلك الأيام: "وكيف يكون شعور فتاة صغيرة بشأن تناول الغداء؟"، ومن ثَم يصعدان في المصعد إلى الطابق الرابع وتتناول الآنسة ماربل وعمّتها الغداء الذي كان ينتهي دائماً بأكل الفراولة المجمّدة، وبعد ذلك كانتا تذهبان في عربة حصان لحضور حفل مبكر.

بالطبع أجرَت محلاّت الجيش والبحرية تغييرات كثيرة جداً منذ تلك الأيام، وفي الحقيقة لا يمكن مقارنتها الآن بما كانت عليه في الأيام القديمة؛ فقد كانت أكثر مرحاً وأكثر تألقاً، وعلى الرغم من أن الآنسة ماربل كانت تلقي ابتسامة لطيفة ومرحة على الماضي إلاّ أنها لم تعترض على التعديلات الحالية على المحل. كان المطعم ما يزال موجوداً فذهبت لتطلب غداءها، وبينما كانت تنظر في قائمة الطعام بعناية وتقرّر ماذا تريد نظرَت عبر الغرفة وارتفع حاجباها قليلاً من الدهشة؛ يا لها من مصادفة غريبة! كانت هناك امرأة لم ترَها من قبل إلاّ بالأمس فقط على الرغم من أنها كانت ترى صورها في العديد من الصحف وهي تحضر السباقات في برمودا أو وهي تقف بجانب طائرتها الخاصّة أو سيارتها... بالأمس التقت بها لأول مرة والآن -كما كان يحدث غالباً- رأتها مصادفة مرة أخرى في مكان بعيد الاحتمال، فبشكل ما لم تجد الآنسة ماربل رابطة يمكن أن تجمع تناول الغداء في محلات الجيش والبحرية مع بيس سيدجويك. لم تكُن الآنسة ماربل لتفاجأ إذا رأت بيس سيدجويك

تخرج من أحد المقاهي في سوهو أو تخرج من دار أوبرا كوفنت غاردن في لباس المساء وعلى رأسها عصابة مرصّعة بالألماس... ولكن ليس في محلات الجيش والبحرية التي كانت -حسب تفكير الآنسة ماربل- مرتبطة دائماً بأفراد القوّات المسلّحة وزوجاتهم وبناتهم وعمّاتهم وجدّاتهم! ورغم ذلك كانت بيس سيدجويك هناك تبدو أنيقة جداً كالعادة في ردائها الداكن وقميصها الزمرّدي تتناول الغداء على طاولة مع شاب ذي وجه نحيل يشبه وجه الصقر ويرتدي معطفاً من الجلد الأسود، كانا متقاربين ويتكلمان بجدّية ويغرسان شوكتيهما في الطعام وكأنهما لم يكونا يدركان تماماً ما الذي يأكلانه.

هل هو موعد عاطفي؟ من المحتمَل أنه كذلك. لا بدّ أن الرجل يصغرها بخمسة عشر عاماً أو بعشرين، ولكن بيس سيدجويك كانت امرأة جذّابة ساحرة!

نظرت الآنسة ماربل إلى الشاب نظرة تأمّل وقرّرت أنه كان رجلاً وسيماً، كما قرّرت أيضاً أنه لم يرُق لها كثيراً. وقالت لنفسها وهي تتذكر نموذجاً أصلياً من الماضي كما هي عادتها: تماماً مثل هاري راسل، لم تُرجَ منه أي فائدة قط، لم يقدّم فائدة لأي امرأة كانت على علاقة به.

قالت الآنسة ماربل لنفسها: "أظنها لن تقبل بنصيحتي رغم أنني أستطيع أن أقدّم لها بعض النصيحة". ثم قررت أنها غير معتنية بعلاقات الناس الآخرين، كما أن بيس سيدجويك تستطيع أن تعتني بنفسها في كل الأحوال بصورة جيدة بالتأكيد.



تنهّدت الآنسة ماربل وأكلت طعام غدائها واعتزمت زيارة قسم الأدوات المكتبية.

كان الفضول (أو ما كانت تفضل أن تسميه «الاهتمام بشؤون الآخرين») إحدى الصفات الشخصية للآنسة ماربل دون شك. نهضت وهي تترك قفّازيها عن عمد على الطاولة وعبرَت ناحية طاولة دفع الحساب وأخذت الطريق الذي كان يمرّ قريباً من طاولة السيدة سيدجويك، وبعد أن دفعت حسابها «اكتشفت» غياب قفّازيها فعادت لتأخذهما، ولسوء الحظّ سقطت حقيبة يدها في طريق العودة فانفتحَت وتبعثرت منها الأغراض فاندفعت ناحيتها نادلة لكي تساعدها على التقاطها، وكانت الآنسة ماربل مضطرّة إلى إظهار كثير من الاضطراب فأسقطت النقود المعدنية والمفاتيح مرة أخرى.

لم تحظَ الآنسة ماربل بالكثير من الفائدة من وراء القيام بهذه الحِيَل، ولكن جهودها لم تضع كلها هباء، وكان من المثير للاهتمام أن كلاً من هدفَي فضولها (السيدة سيدجويك وصديقها) قد أحجما عن النظر إلى السيدة العجوز التي كانت ترتجف وتداوم على إسقاط الأغراض على الأرض. وبينما كانت الآنسة ماربل تنتظر المصعد النازل تذكّرت فُتات الكلام الذي سمعَته بين المرأة وصديقها:

- ماذا عن توقعات الأحوال الجوّية.

- جيّدة؛ لا يوجد ضباب.

- هل كل شيء جاهز بخصوص لوسيرن؟

- نعم، ستغادر الطائرة في الساعة التاسعة وأربعين دقيقة.

كان ذلك كل الذي حصلت عليه في المرة الأولى، وفي طريق عودتها كان الذي سمعته أطول قليلاً، كانت بيس سيدجويك تتكلم بغضب وتقول: ما الذي أصابك وجعلك تأتي إلى فندق بيرترام أمس؟ ما كان ينبغي أن تقترب من المكان.

- كل شيء على ما يرام. لقد سألتُ إذا كنتِ تقيمين هناك، وكل الناس يعرفون أننا صديقان حميمان.

- ليس هذا هو الموضوع. فندق بيرترام مناسب لي وليس لك، لقد خرجتَ بطريقة مزعجة وكل الناس كانوا يحدّقون إليك.

- دعيهم يحدّقون.

- كم أنت غبي! لماذا؟ لماذا؟ ماذا عندك من الأسباب؟ حسناً، لديك سبب، إنني أعرف أنك...

- اهدئي يا بيس.

- يا لك من كاذب!

كان ذلك كل ما استطاعت أن تسمعه، وكان شيئاً مثيراً للاهتمام.

* * *

الفصل السابع

في مساء يوم التاسع عشر من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) أنهى الكاهن بينيفاذر طعام العشاء مبكّراً في مطعم الأثينيوم، ثم هزّ رأسه محيّياً صديقاً أو اثنين وخاض نقاشاً ممتعاً بشأن بعض النقاط الحاسمة في تاريخ وثائق البحر الميّت، والآن وهو ينظر إلى ساعته رأى أن الوقت قد حان للمغادرة للّحاق بطائرته إلى لوسيرن.

وبينما كان يعبر القاعة حيّاه صديق آخر هو الدكتور ويتاكر الذي قال مبتهجاً: كيف حالك يا بينيفاذر؟ لم أرَك منذ وقت طويل. كيف سارت الأمور في المؤتمر؟ هل نوقشت فيه نقاط تثير الاهتمام؟

- أنا متأكد من أن ذلك سيحدث.

- لقد عدتَ لتوّك منه، أليس كذلك؟

- بل أنا في طريقي إلى هناك، سأركب طائرة هذا المساء.

- آه، نعم.

بدا ويتاكر متحيراً قليلاً وهو يقول: لسبب ما اعتقدت أن المؤتمر كان اليوم.

- لا، لا، بل غداً، التاسع عشر من الشهر.

خرج الكاهن بينيفاذر من الباب في حين كان صديقه ينظر إليه ويقول: ولكن -يا عزيزي- اليوم هو التاسع عشر!

إلاّ أن الكاهن بينيفاذر كان قد ذهب بعيداً عن مدى السمع واستقلّ سيارة الأجرة من بول مول فأقلّته إلى المطار في كنسينغتون حيث كان الزحام شديداً في ذلك المساء، وبعد أن وصل إلى شباك التذاكر أخيراً قدّمَ الجواز وتذكرة السفر والأشياء الضرورية الأخرى للرحلة، فتوقفت الفتاة المسؤولة عن استلام التذاكر بسرعة بعد أن كانت على وشك ختم أوراقه وقالت: عذراً يا سيدي، يبدو أن في هذه التذكرة خطأ.

- خطأ! لا، لا، بل هي صحيحة تماماً، الرحلة رقم مئة و... حسناً، في الحقيقة لا أستطيع القراءة دون نظاراتي، رحلة رقم مئة وشيء المتجهة إلى لوسيرن.

- أقصد التاريخ يا سيدي، هذه تاريخها الأربعاء ١٨ من الشهر.

- لا، لا بالتأكيد، على الأقل... أقصد أن اليوم هو الأربعاء الثامن عشر من الشهر.

- آسفة يا سيدي، اليوم هو التاسع عشر.

- التاسع عشر؟!

بدا الفزع على وجه الكاهن وأخرج مذكّرة صغيرة فقلّب

الصفحات بشغف، وفي النهاية كان عليه أن يقتنع أن اليوم كان هو التاسع عشر فعلاً وأن الطائرة التي كان يريد اللحاق بها قد غادرت بالأمس! قال بيأس: إذن فهذا يعني... هذا يعني... يا إلهي! يعني أن المؤتمر في لوسيرن قد عُقد اليوم!

حدّق بفزع عميق تجاه الموظّفة، ولكن كان هناك كثيرون آخرون يريدون السفر فتنحى الكاهن جانباً هو وحيرته ووقف حزيناً يحمل التذكرة عديمة الفائدة بيده. تراوح تفكيره بين عدّة احتمالات: قد يمكن تغيير التذكرة، ولكن هذا لن يفيد، لن يفيد أبداً. كم كانت الساعة؟ كانت تقترب من التاسعة مساء، أي أن المؤتمر قد عُقد فعلاً. لقد بدأ في العاشرة من صباح هذا اليوم. بالطبع هذا ما كان ويتاكر يعنيه في مطعم الأثينيوم إذ اعتقد أن الكاهن بينيفاذر قد انتهى من المؤتمر. قال الكاهن لنفسه بيأس: يا إلهي، يا إلهي! أيّ خبَل هذا الذي أصابني؟

ثم سار بحزن وصمت في شارع كرومويل الذي لم يكُن مكاناً مفرحاً في أفضل حالاته. مشى بطيئاً على طول الشارع يحمل حقيبته ويدير أموره المربكة في رأسه، وعندما حقّق قناعته بالأسباب المختلفة التي جعلته يخطئ في التاريخ هزّ رأسه بحزن ثم قال لنفسه: أعتقد الآن... أعتقد... حسناً، لقد تجاوزت التاسعة الساعة، من الأفضل أن آكل شيئاً.

فكّر أن ممّا يدعو إلى التعجّب أنه لم يشعر بالجوع! وبعد أن تجول مغموماً في شارع كرومويل استقرّ رأيه أخيراً على مطعم صغير يقدّم طعاماً هندياً. بدا له أنه على الرغم من كونه غير جائع تماماً كما

كان يجب أن يكون إلاّ أنه من الأفضل له أن يحافظ على معنوياته مرتفعة بتناول وجبة، وبعد ذلك لا بدّ أن يجد فندقاً و... ولكن لا، لم تكُن به حاجة لفعل ذلك؛ فلديه فندق بالفعل! بالطبع، لقد كان يقيم في فندق بيرترام وقد حجز غرفته لمدّة أربعة أيام، يا له من حظ رائع! إذن فغرفته هناك تنتظره، وكان عليه فقط أن يطلب مفتاح غرفته من مكتب الاستقبال، و... وهنا أسعفَته الذاكرة مرّة أخرى، يوجد شيء ثقيل في جيبه!

أدخل يده وأخرج واحداً من تلك المفاتيح الكبيرة الصلبة التي تحاول الفنادق بها أن لا تشجع ضيوفها الغامضين على أخذها معهم في جيوبهم، ولكن هذا لم يمنع الكاهن من فعل ذلك! قال الكاهن بسعادة لكونه تذكّر: رقم ١٩، هذا صحيح، من حسن الحظّ أنني لا أحتاج إلى أن أذهب وأبحث عن غرفة في فندق. يقولون إن الفنادق مزدحمة جداً في هذا الوقت، نعم، لقد كان إرموند يقول ذلك في مطعم الأثينيوم هذا المساء، كان عثوره على غرفة عملاً صعباً.

كان مسروراً من نفسه إلى حدّ ما بسبب حرصه على القيام بترتيبات سفره عن طريق حجز الفندق مسبقاً. أنهى طعامه وتذكّر أن يدفع ثمنه، ثم خرج إلى شارع كرومويل من جديد.

بدا من غير المناسب أن يعود إلى الفندق بهذه الطريقة في حين كان يجب أن يكون في لوسيرن يتناول عشاءه ويتكلم في جميع أنواع المشكلات المثيرة للاهتمام. ولمحَت عيناه دار عرض تعرض فلم «أسوار أريحا» فقرر الدخول لمشاهدته.

انتهى الفِلم وأضيئت الأنوار وخرج الكاهن بينيفاذر إلى شوارع

لندن المُضاءة وقد تعزّى قليلاً بعد الأحداث الحزينة التي حدثت له في وقت مبكّر من ذلك المساء. كانت ليلة جميلة مشى فيها إلى محل إقامته في فندق بيرترام بعد أن استقل حافلة أخذته إلى اتجاه معاكس أولاً. كان الوقت منتصف الليل عندما وصل، وعند منتصف الليل يكون فندق بيرترام ذا مظهر يدل على أن كل واحد في الفندق قد ذهب إلى سريره. كان المصعد في الطابق العلويّ فصعد الكاهن على الدرَج حتى وصل إلى غرفته، وأدخل المفتاح في القفل ودفع الباب ثم دخل، ثم توقّف مدهوشاً وهتف: يا إلهي!

هل كان يتخيل أشياء؟ ولكن مَن...؟! كيف...؟!

وحين رأى اليد المرفوعة فوقه كان الوقت متأخراً جداً... تفجّرَت النجوم داخل رأسه بطريقة تماثل عروض الساحر الشهير غاي فوكس!

* * *

الفصل الثامن

كان قطار البريد الأيرلندي يجري خلال الليل، أو بالأحرى خلال ظلام الساعات الأولى من الصباح، ومن وقت لآخر كان محرك القطار يُصدِر صوته الغريب كأنه صوت نحيب وهو يسير بسرعة تزيد على ثمانين ميلاً في الساعة، وكان منضبطاً في موعده.

ثم بشكل مفاجئ إلى حدَ ما خفّف القطار من سرعته عندما عملت الكوابح عملها، وارتفع صرير العجلات وهي تحتكّ بالحديد وأبطأ القطار أكثر وأكثر، ثم أخرج الحارس رأسه من النافذة وهو ينظر إلى الإشارة الحمراء أمامه في حين كان القطار يتوقّف تماماً، واستيقظ بعض الركّاب ولكن معظمهم لم يفعل.

فتحت امرأة عجوز باب غرفتها بعد أن تنبهت إلى تخفيف السرعة المفاجئ، ونظرت في الممر فلمحت أحد الأبواب التي تؤدي إلى قضبان السكة الحديدية مفتوحاً، وكان رجل عجوز ذو شعر كثيف أبيض كالقش يتسلق إلى داخل القطار قادماً من الخارج، فافترضت أنه كان قد نزل من القطار قبل ذلك لكي يستكشف الموقف، وكان هواء الصباح بارداً بصورة مميّزة.

قال شخص في نهاية الممر: "إنها إشارة ضوئية فقط"، فتراجعت السيدة العجوز إلى غرفتها وحاولت أن تعود إلى النوم. ومن بعيد كان رجل فوق السكّة يركض باتجاه القطار وهو يلوّح بمصباح يحمله قادماً من عند الإشارة الضوئية، ونزل رجل الإشعال من جهة المحرك وجاء الحارس الذي نزل من القطار لكي ينضمّ إليه، ثم وصل الرجل الذي يحمل المصباح وهو مقطوع الأنفاس وقال لاهثاً: أمامكم حادث اصطدام كبير، قطار البضائع خرج عن السكّة!

أطل سائق القطار من مقصورته ثم نزل أيضاً لكي ينضمّ إلى الآخرين. وفي مؤخرة القطار دخل ستة رجال كانوا قد تسلّقوا حاجز القطار لتوّهم إلى داخل القطار من خلال باب تُرك لهم مفتوحاً من العربة الأخيرة، وقابلهم ستّة ركّاب من عربات مختلفة، وبسرعة تدرّبوا عليها مسبّقاً باشروا العمل في عربة البريد فعزلوها عن بقية القطار، ووقف رجلان أحدهما في المقدمة والآخر في المؤخرة يحرسان العربة وفي يد كل واحد منهم بندقية.

ذهب رجل يلبس زيّ عمال شركة السكك الحديدية إلى الأمام على طول ممرّ القطار المتوقف وهو يشرح الوضع للركاب بصورة ودّية وكأنه يطمئنهم قائلاً: الطريق مقطوع أمامنا فوق السكة وقد نتأخر عشر دقائق، ليس أكثر من ذلك.

وبجانب المحرك كان السائق ورجل الإشعال ممدّدين وهما مكمّمان ومربوطان بإحكام، ونادى الرجل الذي كان يحمل المصباح قائلاً: كل شيء جيّد هنا.

كان الحارس ممدّداً بجانب حاجز القطار وهو مكمّم ومربوط

بنفس الطريقة، وقام خبراء السرقة بعملهم في عربة البريد، وكان هناك جسدان آخران مربوطان بإحكام وممددان على الأرض، وتمّ إخراج حقائب البريد الخاصة إلى حيث كان ينتظرها رجال آخرون على حاجز القطار.

في داخل مقصوراتهم كان الركاب يقولون إن القطارات لم تعُد كما اعتادوا عليها سابقاً، وبينما بدؤوا يخلدون إلى النوم من جديد جاء هدير محرك يزأر خلال الظلام فهمست امرأة: يا إلهي! هل هذه طائرة نفاثة؟

فأجابها أحد الركاب: أظنّها سيارة سباق.

وبدأ الهدير يتلاشى شيئاً فشيئاً.

* * *

على طريق بيدهامبتون السريع وعلى بُعد تسعة أميال كانت قافلة من الشاحنات الليلية تشقّ طريقها تجاه الشمال، ومرّت من جانبها سيارة سباق بيضاء كبيرة بسرعة، وبعد عشر دقائق انحرفت عن الطريق السريع.

كان المرأب القائم على ركن الطريق الفرعي يحمل علامة «مغلَق»، ولكن الأبواب الكبيرة فُتحت فدخلت السيارة البيضاء إلى المرأب، ثم أُغلقت الأبواب خلفها مرّة أخرى وبدأ ثلاثة رجال في العمل بسرعة البرق، فتمّ وضع لوحات سيارة جديدة وغيّر السائق معطفه وقبعته حيث كان يلبس معطفاً من الجلد الأبيض فأصبح يلبس جلداً أسود، ثم خرج بالسيارة مرة أخرى. وبعد ثلاث دقائق

من مغادرته كانت سيارة من نوع موريس أكسفورد قديمة يقودها رجل دين تتحرك خارجةً إلى الطريق وسارت لتأخذ طريقاً من خلال منعطفات مختلفة وطرق ريفيّة ملتوية.

أبطأت سيارة طويلة كانت تسير في طريق ريفي من حركتها عندما التقت بسيارة الموريس أكسفورد التي كانت واقفة بجانب حاجز الطريق في حين كان رجل كبير السنّ يقف متفحصاً إياها، فأخرج سائق السيارة الطويلة رأسه من عربته وقال: هل من مشكلة؟ هل يمكنني مساعدتك؟

- هذا لطف منك، إنها مصابيح السيارة.

اقترب السائق الأول من الثاني وأنصتا قليلاً ثم قال أحدهما للآخر: كل شيء تمام.

وبدأ تحويل عدّة حقائب أمريكية الطراز غالية الثمن من السيارة الموريس أكسفورد إلى السيارة الطويلة.

بعد مسافة ميل أو ميلين انعطفَت السيارة الطويلة ناحية ما كان يبدو مثل طريق وعر اتضح أنه طريق يقود إلى عزبة كبيرة فخمة. كانت تقف في ساحة الإسطبل سيارة مرسيدس بيضاء كبيرة، ففتح سائق السيارة الطويلة صندوقها بمفتاح ونقل الحقائب إليها ثم ابتعد بسيارته مرّة أخرى.

وفي مزرعة مجاورة صاح ديكٌ بصورة مزعجة!

* * *

الفصل التاسع

-١-

نظرت إلفيرا بليك إلى السماء ولاحظت أنه كان صباحاً جميلاً، ثم ذهبت إلى كشك الهاتف وأدارت القرص على رقم هاتف بريدجيت في منطقة ميدان أونسلو، ثم قالت بعد أن فُتح الخط من الطرف الآخر: مَن؟ بريدجيت؟

بدا في صوت بريدجيت اهتياج وهي تقول: إلفيرا! هل هذا أنت؟

- نعم، هل كل شيء على ما يرام؟

- آه! لا، لقد أضحى الوضع سيئاً؛ ابنة عمك السيدة ميلفورد اتصلت بأمي بعد ظهر أمس.

- ماذا؟ بخصوصي؟

- نعم. ظننت أنني دبرت المسألة جيّداً عندما اتصلتُ بها وقت الغداء، ولكن يبدو أنها كانت قلقة على أسنانك ولذلك اتصلت

بطبيب الأسنان بنفسها فوجدت بالطبع أنك لم تذهبي إلى هناك أصلاً، ولهذا اتصلَت بأمي. ولسوء الحظّ كانت أمي واقفة بجانب الهاتف فلم أستطع أن أردّ عليه أولاً، ومن الطبيعي أن تقول لها أمي إنها لا تعلم شيئاً عن الموضوع وإنك لم تكوني تقيمين هنا. لم أعرف ماذا أفعل.

- ماذا فعلت؟

- تظاهرت بأنني لا أعرف شيئاً عن ذلك وقلت إنني سمعتك تقولين شيئاً بخصوص ذهابك لرؤية بعض الأصدقاء في ويمبلدون.

- لماذا ويمبلدون؟

- كان أول مكان خطر على بالي.

تنهدت إلفيرا وقالت: آه، حسناً، يبدو أن عليّ أن أجهز أمراً ما... قد يكون عن مربية قديمة تعيش في ويمبلدون. كل هذا الاهتمام بي يعقّد الأمور كثيراً. آمل أن لا تقوم ابنة عمي ميلدريد بحماقة كبيرة وتتصل بالشرطة مثلاً.

- هل أنت ذاهبة إلى هناك الآن؟

- ليس قبل المساء؛ يجب أن أقوم ببعض الأمور أولاً.

- لقد ذهبتِ إلى أيرلندا فهل كانت رحلة جيّدة؟

- لقد اكتشفت ما أردت معرفته.

- لماذا تبدين متجهمة؟

- لأنني أشعر بالضيق والقلق.

- ألا يمكن أن أساعدك يا إلفيرا؟ هل أعمل لك شيئاً؟

- في الحقيقة لا أحد يستطيع مساعدتي، فهو أمر عليّ أن أعمله بنفسي. كنت أرجو أن لا يكون شيء من هذا صحيحاً، ولكنه صحيح ولا أعرف ماذا أصنع بشأنه.

- هل أنت في خطر يا إلفيرا؟

- لا تكوني انفعالية يا بريدجيت. سيكون عليّ أن أكون حذرة، هذا كل ما في الأمر. يجب أن أكون حذرة جداً.

- إذن فأنت في خطر!

قالت إلفيرا بعد لحظة توقف: ربما كنت أتخيل أموراً فقط، هذا كل ما في الأمر.

- إلفيرا، ماذا ستعملين بخصوص ذلك العقد؟

- الأمر على ما يرام؛ لقد دبّرت الحصول على بعض النقود من شخص ما، ولذلك أستطيع أن أذهب فأستردّه من محل الرهونات وأعيده إلى محلات بولارد.

- هل تظنين أنهم لم يفعلوا شيئاً بخصوص ذلك؟

ثم التفتت بريدجيت إلى أمها التي كانت تتساءل عن سبب المكالمة الهاتفية وقالت لها: لا يا أمي، إنها المصبغة. يقولون لم ترسل تلك الملاءة قط. حسناً يا أمي، حسناً، سأخبر المديرة.

ابتسمت إلفيرا في الطرف الآخر من الخط، ثم وضعت السماعة وفتحت حافظتها وفرزت نقودها وعدّت القطع النقدية التي كانت تحتاج إليها ووضعتها أمامها ثم شرعت في إجراء مكالمة هاتفية، وعندما حصلت على الرقم الذي أرادته أدخلت القطع النقدية اللازمة وضغطت على الزر وبدأت تتكلم بصوت مقطوع النفَس قليلاً قائلة: مرحباً، ابنة العم ميلدريد؟ نعم، هذه أنا. أنا آسفة جداً، نعم، أعرف، حسناً، لقد كنت ذاهبة إلى... نعم، لقد كانت العجوز مادي العزيزة، تعرفينها، خادمتنا العجوز... نعم، لقد كتبتُ بطاقة بريدية ثم نسيت أن أرسلها، إنها ما زالت في جيبي حتى الآن. حسناً، لقد كانت مريضة ولم يكُن عندها أحد يعتني بها ولذلك توقفتُ فقط لأرى إذا كانت بخير... نعم، لقد كنت ذاهبة إلى بريدجيت ولكن هذا الأمر غير الخطّة. سأشرح لك ذلك عندما أعود. نعم، هذا المساء... لا، سأنتظر فقط وأرى الممرضة التي ستأتي لتقوم على رعاية العجوز مادي. حسناً، في الواقع هي ليست ممرضة حقيقية بل هي واحدة من اللائي يقدّمن المساعدات العملية وما إلى ذلك... لا، إنها تكره أن تذهب إلى المستشفى. ولكنني آسفة يا ابنة عمّي ميلدريد، في الحقيقة أنا آسفة جداً جداً.

وضعت السماعة وتنهدت بطريقة غاضبة وهمست لنفسها: كم أتمنى أن لا يتوجب عليّ الكذب على كل الناس!

ثم خرجت من كشك الهاتف، وفي أثناء ذلك لاحظت العناوين العريضة في الصحيفة: «سرقة قطار كبرى»، «قطار البريد الأيرلندي هوجم من قِبَل اللصوص»!

-٢-

كان السيد بولارد يخدم أحد العملاء عندما فُتح باب المحل، فرفع بصره ليرى إلفيرا بليك تدخل وتقول لموظّف جاء إليها: لا، سأنتظر إلى أن يفرغ السيد بولارد.

وفي الحال تمّ الانتهاء من العمل مع عميل السيد بولارد وتحركت إلفيرا إلى المكان الخالي وقالت: صباح الخير يا سيد بولارد.

- يؤسفني أن ساعتك لم تُصلَح حتى الآن يا آنسة إلفيرا.

- لا، ليست الساعة هي الموضوع. بل جئت لكي أعتذر؛ لقد حصل شيء فظيع.

ثم فتحت حقيبتها وأخرجت علبة صغيرة أخرجت منها عقد الألماس والياقوت وقالت: لعلك تذكر أنني عندما جئت لإصلاح ساعتي كنت أنظر إلى بعض الأشياء من أجل هدية عيد الميلاد ووقع حادث في الشارع... أظن أن شخصاً داهمته سيارة أو كان على وشك ذلك، وأعتقد أنني كنت أمسك بالعقد في يدي ثم وضعته في جيب ردائي دون إدراك. ولم أكتشفه إلا هذا الصباح ولذلك جئت على عجل لكي أعيده إليك. أنا متأسفة جداً يا سيد بولارد ولا أعرف كيف حصل لي هذا الأمر الغبي.

قال السيد بولارد ببطء: الأمر بسيط يا آنسة إلفيرا.

- أظنك اعتقدتَ أن شخصاً قد سرقه؟

قابلت عيناها الزرقاوان الصافيتان عينيه فقال: لقد اكتشفنا

ضياعه، شكراً جزيلاً لك يا آنسة إلفيرا لإعادته إلينا بهذه السرعة.

- لقد شعرت بالرعب عندما وجدته! حسناً، شكراً جزيلاً لك يا سيد بولارد لأنك كنت لطيفاً جداً في هذا الموضوع.

قال السيد بولارد: يحدث الكثير من الأخطاء الغريبة.

ثم ابتسم لها بطريقة لطيفة وقال: نحن لن نفكر في هذا الأمر بعد الآن، ولكن مع ذلك لا تفعليها ثانية.

وضحك ضحكة رجل بمزح مزحة لطيفة فقالت: سأكون حريصة جداً في المستقبل بالطبع.

ثم ابتسمت له ودارت على عقبيها وغادرت المحل، فقال السيد بولارد في نفسه: هذا مدهش حقاً!

كان أحد شركائه يقف قريباً منه فاقترب منه أكثر وقال: إذن فقد أخذته، أليس كذلك؟

قال السيد بولارد: بلى، لقد أخذَته. هذا صحيح.

فأشار الشريك بيده وقال: ولكنها أعادته!

وافق السيد بولارد: أجل، لقد أعادته، ولم أكن أتوقع ذلك في الحقيقة.

سأل الشريك بصورة فضولية: هل تعتقد أن قصّتها صحيحة؟ أقصد قولها إنها أدخلته في جيبها عن غير قصد.

قال بولارد متفكراً: ربما كان هذا ممكناً.

- أو أنها يمكن أن تكون مصابة بهوس السرقة، الكليبتومانيا؟ أظن ذلك.

وافق بولارد: يمكن أن تكون كذلك، لكن الأكثر احتمالاً أنها أخذته عن قصد. ولكن إذا كان كذلك فلماذا أعادته بمثل هذه السرعة؟ هذا يثير التساؤل!

- لقد أحسنّا بعدم إبلاغنا الشرطة، وأعترف بأنني كنت أريد الاتصال بهم.

- أعرف، أعرف، ليس عندك خبرة مثل خبرتي. في هذه الحالة كان من الأفضل قطعاً أن لا تفعل ذلك.

ثم أضاف قائلاً لنفسه متفكراً: ورغم ذلك فإن الأمور مشوّقة، مشوقة تماماً. كم عمرها؟ أظنه ثمانية عشر عاماً، ويمكن أن تكون قد وضعت نفسها في ورطة من نوع ما.

- أتذكّر أنك قلت إنها غنية جداً.

قال بولارد: يمكنك أن تكون وريثاً غنياً جداً، ولكن في عمر الثامنة عشرة لا تستطيع أن تضع يديك على المال. الشيء الذي يثير السخرية هو أنهم يُبقُون على الورثة محتاجين إلى النقود أكثر من المفلسين، وهذه ليست فكرة جيدة دائماً. حسناً، لا أظن أننا سنعرف حقيقة هذا الأمر.

وأعاد العقد إلى مكانه في صندوق العرض ثم أقفل الغطاء.

* * *

الفصل العاشر

كانت مكاتب شركة إيغرتون وفوربس وويلبورو في بلومزبري في إحدى تلك الساحات الراقية التي لم تصلها رياح التغيير حتى ذلك الوقت، وكانت اللوحة النحاسية للشركة قد بليَت وأصبحت معالمها غير واضحة. لقد كانت الشركة تعمل منذ أكثر من مئة عام، وكان من عملائها نسبة جيّدة من الطبقة العليا من أصحاب الأراضي في إنكلترا. لم يعُد في الشركة لا فوربس ولا ويلبورو، وبدلاً منهما كان أتكنسون الأب والابن ولويد الويلزي وماك أليستر الإسكتلندي، أما إيغرتون فكان ما يزال هناك، وهو رجل في الثانية والخمسين من عمره وكان مستشاراً لعدة عائلات كانت تستشير جده وعمّه وأباه في أيامها القديمة.

في تلك اللحظة كان يجلس خلف مكتب كبير من الخشب الأحمر في غرفته الأنيقة في الطابق الأول يتكلم بلطف ولكن بصلابة مع عميل مكتئب المظهر. كان ريتشارد إيغرتون رجلاً أنيقاً طويلاً داكن البشرة مع لمسة من اللون الرمادي على صدغيه وأعيُن رمادية لاذعة، وكانت نصيحته دائماً نصيحة جيّدة ولكنه نادراً ما كان يتصنّع الكلام.

في تلك اللحظة كان يقول: بصراحة تامة ليست عندك حجة تبرر بها موقفك يا فريدي، ليس بعد تلك الرسائل التي كتبتَها.

همس فريدي باكتئاب: ألا تظن...؟

قال إيغرتون: نعم، لا أظن. والأمل الوحيد هو تسوية المسألة خارج المحكمة، لأنك إذا وصلت إلى المحكمة تكون قد جعلت نفسك عرضة لتهمة جنائية.

- يا إلهي! ماذا أصابك يا ريتشارد؟ أنت تبالغ قليلاً ولا شكّ.

ثم سمع رنيناً صغيراً للهاتف على طاولة إيغرتون فالتقط السماعة وهو عابس وقال: لقد قلت إنني لا أريد أن يزعجني أحد.

كان الطرف الآخر يتحدث همساً فقال إيغرتون: حقاً! نعم، نعم، اطلبي منها أن تنتظر.

ثم وضع السماعة والتفت مرّة أخرى إلى عميله الذي بدا غير سعيد وقال: انتبه يا فريدي، أنا أعرف القانون وأنت لا تعرفه. أنت في ورطة كبيرة وسأبذل جهدي لأخرجك منها ولكن هذا سيكلفك كثيراً. أنا أشك في أنهم سيسوّون المسألة بأقل من اثني عشر ألفاً.

قال فريدي التعس جَزِعاً: اثنا عشر ألفاً؟ يا إلهي! ولكنني لا أملك هذا المبلغ يا ريتشارد.

- حسناً، عليك أن تدبّره إذن. توجد دائماً طرق وأساليب، وإذا كانت ستسكت مقابل اثني عشر ألفاً فستكون محظوظاً، أما إذا خضتَ القضية فسوف تكلفك أكثر بكثير.

قال فريدي: آه منكم أيها المحامون! كلكم مفترسون كأسماك القرش!

ثم نهض على قدميه وقال: حسناً، افعل ما بوسعك من أجلي أيها العجوز ريتشارد.

ثم انصرف وهو يهزّ رأسه بحزن، وأخرج ريتشارد إيغرتون فريدي وشؤونَه من ذهنه وفكّر في العميل التالي. قال لنفسه بهدوء: إلفيرا بليك! تُرى كيف تبدو؟

ثم رفع سماعة هاتفه وقال: اللورد فريدريك خرج، أرسلي الآنسة بليك لو سمحتِ.

وبينما كان ينتظر قام بإجراء بعض الحسابات في دفتر ورقيّ على مكتبه وهو يقول لنفسه: كم مضى من السنوات منذ...؟ لا بدّ أنها في الخامسة عشرة، بل السابعة عشرة... وقد يكون أكثر من ذلك. الزمن يجري بسرعة كبيرة!

ثم فكّر في نفسه قائلاً: ابنة كونستون وبيس، تُرى أيهما تشبه؟

فُتح الباب وأعلنت الموظّفة عن وصول الآنسة إلفيرا بليك، ودخلت الفتاة الغرفة فنهض إيغرتون عن كرسيه وتقدم تجاهها. فكّر أنها لا تشبه أياً من والديها من حيث المظهر؛ فقد كانت طويلة ونحيفة وجميلة جداً، وكان لها لون بشرة بيس ولكنها ليست بحيوية بيس، ولها ملامح فتاة من الطراز القديم.

قال وهو يصافحها: مرحباً، مرحباً، يا لها من مفاجأة! آخر

مرة رأيتك فيها كان عمرك إحدى عشرة سنة. تفضلي واجلسي هنا.

وسحب كرسياً إلى الأمام فجلست عليه وقالت مترددة: أظن أنه كان من الواجب عليّ أن أكتب إليك قبل حضوري، أكتب وأحدّد موعداً كما تقتضي الأصول. ولكني في الحقيقة اتخذت القرار فجأة، وقد بدَت فرصة لأنني موجودة في لندن.

- وماذا تفعلين في لندن؟

- أعالج أسناني.

- الأسنان أشياء بغيضة! إنها تسبب لنا المتاعب من المهد إلى اللحد، ولكنني ممتنّ للأسنان لأنها أعطتني فرصة لأراك.

ثم شبّك أصابعه وقال بلهجة عملية لا تخلو من الودّ: حسناً، لقد كنتِ في إيطاليا تتعلمين، ألم تُنهي تعليمك هناك في إحدى هذه الأماكن التي تذهب إليها الفتيات هذه الأيام؟

- بلى، عند الكونتيسة مارتينيلي. ولكني انتهيت منها إلى الأبد وأعيش الآن مع عائلة ميلفورد في كِنْت إلى أن أقرّر إذا كنت أحب عمل شيء ما.

- حسناً، أرجو أن تجدي شيئاً يرضيك. ألا تفكرين في الدراسة في الجامعة أو شيء من هذا القبيل؟

- لا أظن أنني ذكية بما فيه الكفاية لذلك.

ثم توقفت قبل أن تقول: أعتقد أنني بحاجة إلى موافقتك على أيّ شيء إذا كنتُ أريد القيام به.

تركزت عينا إيغرتون الحادّتان على وجه الفتاة بقوة وقال: أنا أحد أوصيائك والقيّم عليك بموجب وصيّة والدك، نعم، ولذلك فلديك الحق الكامل في الاتصال بي في أيّ وقت.

قالت إلفيرا بأدب: شكراً لك.

سألها إيغرتون: هل يقلقك أيّ شيء؟

- في الحقيقة لا، ولكني لا أعرف أيّ شيء كما ترى. لم يخبرني أحد بأيّ شيء، وأنت تعلم أن المرء لا يحب كثرة السؤال.

نظر إليها باهتمام وقال: أتقصدين أموراً تخصّك؟

قالت إلفيرا: "نعم". ثم أردفت بتردد: لطيف منك أن تفهم، فالعم ديريك...

- تقصدين ديريك لاسكومب؟

- نعم، دائماً أناديه بالعمّ ديريك.

- لقد فهمت.

- إنه لطيف جداً ولكنه ليس من ذلك النوع من الأشخاص الذي يخبرك بأيّ شيء، بل هو فقط يرتّب الأمور ويبدو قلقاً بعض الشيء إذا سارت الأمور على غير ما يحب. بالطبع هو يستمع إلى كثير من الناس، أقصد النساء اللاتي يخبرنه بأشياء مثل الكونتيسة مارتينيلي... كما أنه يقوم بترتيب ذهابي إلى مدارس البنات.

- وبالطبع لم تكُن هذه المدارس من الأماكن التي كنت تريدين الذهاب إليها.

- لم أقصد ذلك. لقد كانت كلها على ما يرام، تلك هي الأماكن التي تذهب إليها كل البنات تقريباً.

- لقد فهمت.

- ولكني لا أعرف أيّ شيء عن نفسي، أقصد عن المال الذي ورثته وكم هو المبلغ وماذا أستطيع أن أعمل إذا احتجتُ إليه.

قال إيغرتون بابتسامته الجذّابة: تريدين أن تتحدثي عن المال، أليس كذلك؟ حسناً، أعتقد أنك على صواب. لنرَ، كم عمرك الآن؟ ستة عشر عاماً أم سبعة عشر؟

- لقد اقتربت من العشرين.

- يا إلهي! لم تكُن عندي فكرة.

شرحت إلفيرا قائلة: كما ترى أنا أحسّ طوال الوقت أنني محجوبة ومعزولة. هذا جميل أحياناً، ولكنه يمكن أن يكون مثيراً للسخط بشدّة.

وافقها إيغرتون قائلاً: هذا سلوك قديم، ولكني أدرك تماماً أن هذا هو أسلوب ديريك لاسكومب.

- إنه شخص عزيز، ولكن من الصعب أن تتحدث معه بجدّية.

- أجل، أستطيع أن أفهم هذا وهو صحيح تماماً. حسناً، ماذا تعرفين عن نفسك يا إلفيرا؟ ماذا تعرفين عن ظروف عائلتك؟

- أعرف أن أبي مات عندما كنت في الخامسة وأن أمي هربت منه مع شخص آخر عندما كنت في الثانية، وأنا لا أتذكرها على الإطلاق، بل أنا بالكاد أتذكر والدي. كان رجلاً كبيراً جداً في السن وكان مُقعَداً، وكان معتاداً على السباب والشتم حتى إنني كنت أخاف منه. وبعد أن مات عشت أولاً مع عمّة أو ابنة عم أو واحدة من أقارب والدي إلى أن ماتت، ثم عشت مع العم ديريك وأخته، ولكنها ماتت بعد ذلك فذهبتُ إلى إيطاليا. لقد رتّب لي العم ديريك أن أعيش الآن مع عائلة ملفورد الذين هم أبناء عمّه، وهم لطفاء جداً ودمثون ولهم ابنتان في مثل عمري تقريباً.

- هل أنت سعيدة هناك؟

- لا أعرف بعد. لقد ذهبتُ إلى هناك منذ وقت قصير وأراهم جميعاً مملّين. في الحقيقة كنت أريد أن أعرف كم هو المبلغ الذي أمتلكه.

- إذن فما تريدينه في الحقيقة هو المعلومات المالية، أليس كذلك؟

- بلى، هل المال الذي أمتلكه كثير؟

قال إيغرتون بصوت أكثر جدية: نعم، لديك مال كثير. كان أبوك رجلاً غنياً جداً وكنتِ طفلته الوحيدة، وعندما مات آلَ لقبُه والضيعةُ إلى ابن عمّ له. ولم يكُن يحب ابن عمّه هذا فترك كل أملاكه الشخصية (والتي كانت كثيرة جداً) لابنته، لك يا إلفيرا. أنت فتاة غنية جداً، أو ستكونين كذلك عندما تبلغين الحادية والعشرين.

- أتقصد أنني لست غنية الآن؟

- بل أنت غنية الآن، ولكن ليس لك أن تتصرفي في المال إلى أن تبلغي الحادية والعشرين أو تتزوجي، وحتى ذلك الوقت سيبقى المال بأيدي الأوصياء عليك، لاسكومب وأنا وشخص آخر.

وابتسم لها ثم أضاف: نحن لم نختلسه بالطبع! بل هو ما زال موجوداً. وفي الحقيقة لقد زدنا رأس مالك كثيراً عن طريق الاستثمارات.

- كم هو المبلغ الذي سأحصل عليه؟

- عند سنّ الحادية والعشرين أو عند زواجك ستحصلين على مبلغ يقدَّر تقريباً بستمئة ألف أو بسبعمئة ألف جنيه.

قالت إلفيرا وهي متأثرة: هذا كثير جداً!

- نعم، إنه كثير. وربما كان هذا هو السبب الذي جعلنا لا نخبرك بشأنه.

كان يراقبها في حين كانت تفكر في ذلك. رآها فتاة مثيرة للاهتمام جداً، فقد بدت رقيقة بصورة لا تصدَّق. ولكنها كانت أكثر من ذلك، أكثر من ذلك بكثير!

قال بابتسامة باهتة ساخرة: هل يرضيك هذا؟

ابتسمت له ابتسامة مفاجئة وقالت: يجب أن يرضيني، أليس كذلك؟

- هذا أفضل من أرباح عمليات القمار.

هزّت رأسها بالموافقة ولكن عقلها كان في مكان آخر، ثم سألته بشكل مفاجئ قائلة: من الذي يحصل على المال في حال وفاتي؟

- حسب ما هي عليه الأمور الآن سيذهب المال إلى أقرب الناس إليك، أعني قرابة الدم.

- أقصد... أقصد أنني لا أستطيع أن أكتب وصية الآن، أليس كذلك؟ لقد أخبرني شخصٌ ما أنني لا أستطيع كتابة وصيتي إلاّ بعد بلوغي الحادية والعشرين.

- إنه على حق تماماً.

- هذا أمر مزعج في الحقيقة. إذا تزوجت ومتّ فأحسب أن زوجي سيأخذ المال، أليس كذلك؟

- بلى.

- وإذا لم أتزوج فإن أمي ستكون أقرب أقاربي وتحصل عليه. يبدو أن لي أقارب قليلين جداً، إنني حتى لا أعرف والدتي، كيف شكلها؟

قال إيغرتون باختصار: إنها امرأة رائعة جداً، الجميع يتفق على ذلك.

- ألم ترغب في رؤيتي قط؟

- يمكن أن تكون قد فعلت ذلك، من المحتمَل جداً أنها فعلت، ولكن لأن حياتها أصبحت فوضوية بشكل كبير فلعلها اعتقدَت أنه من الأفضل لك أن تنشئي بعيداً عنها تماماً.

- هل تعرف أنها تعتقد ذلك حقيقة؟

- لا، في الحقيقة لا أعرف أيّ شيء عن ذلك.

نهضت إلفيرا وقالت: شكراً لك، لطفٌ كبير منك أن تخبرني بكل هذا.

- ربما كان يجب أن تُقال لك أشياء أكثر من قبل.

- من المخزي أن لا أعرف شيئاً، العمّ ديريك يعتقد أنني مجرّد طفلة.

- حسناً، ولكنه ليس رجلاً صغيراً جداً كما تعرفين. لقد تقدمت بنا السنون أنا وهو، يجب أن تلتمسي الأعذار لنا عندما ننظر إلى الأمور من وجهة نظر عمرنا المتقدم.

وقفت إلفيرا تنظر إليه برهة قصيرة، ثم مدّت يدها وقالت برقّة: أشكرك كثيراً، أرجو أن لا أكون قد قطعت عليك بعض أعمالك المهمة.

ثم خرجت، ووقف إيغرتون ينظر ناحية الباب الذي أغلقته خلفها وزمّ شفتيه وصفر قليلاً، ثم هزّ رأسه وجلس مرة أخرى وأخذ قلماً ودقّ به على طاولته متأملاً، وسحب بعض الأوراق ناحيته ثم دفعها إلى الخلف والتقط سماعة هاتفه وقال: آنسة كورديل، من

فضلك اطلبي الكولونيل لاسكومب، اتصلي به في ناديه أولاً ثم في عنوان شروبشاير.

ثم أعاد السماعة، ومرة أخرى سحب أوراقه ناحيته وبدأ يقرأ فيها ولكن عقله لم يكُن فيما كان يفعله، وبعد هُنيهة رنَ جرس الهاتف الداخلي وسمع السكرتيرة تقول له: الكولونيل لاسكومب على الخطّ الآن يا سيد إيخرتون.

- حسناً، صليني به. مرحباً يا ديريك، معك ريتشارد إيخرتون، كيف حالك؟ لقد زارتني الآن فتاة تعرفها، فتاة في وصايتك.

ظهرت المفاجأة في لهجة ديريك لاسكومب وهو يقول: من؟ إلفيرا؟!

- نعم.

- ولكن لماذا؟ لماذا بالله عليك؟! لماذا جاءت إليك؟ هل وقعَت في أيّ مشكلة؟

- لا، لا أقول هذا، بل بالعكس لقد بدت بحالة جيدة وكانت مسرورة من نفسها. أرادت فقط أن تعرف كل شيء عن وضعها المالي.

قال الكولونيل لاسكومب بذعر: أرجو أن لا تكون قد أخبرتَها.

- ولِمَ لا؟ ما الغرض من السرّية؟

- حسناً، لا أستطيع منع نفسي من الشعور أنه من غير الحكمة

بالنسبة لفتاة أن تعرف أنها ستحصل على مثل هذا المبلغ الكبير من المال.

- إذا لم نفعل نحن فسيخبرها شخص آخر بذلك. يجب أن تكون مستعدّة؛ المال مسؤولية.

- أجل، ولكنها ما زالت طفلة.

- هل أنت متأكد من ذلك؟

- ماذا تقصد؟ إنها طفلة بالطبع.

- أنا لا أستطيع وصفها بذلك. مَن صديقها؟

- ماذا تعني؟

- سألتك: مَن صديقها؟ يوجد صديق شابّ في الخفاء، أليس كذلك؟

- في الحقيقة لا يوجد شيء من هذا. ما الذي يجعلك تفكر في ذلك؟

- هي لم تقُل شيئاً عن ذلك، ولكن عندي بعض الخبرة كما تعرف وأظن أنك ستجد أن لديها صديقاً.

- حسناً، أستطيع أن أؤكّد لك أنك مخطئ تماماً، أقصد أنها قد تمّت تربيتها بعناية بالغة فكانت تدرس في مدارس متزمّتة جداً وكانت في مدرسة بنات مختارة بحرص في إيطاليا. كنت سأعرف لو وقع أيّ شيء من هذا النوع. يمكنني أن أقول إنها التقت بشاب أو اثنين ولكني متأكد من عدم وجود شيء ممّا تقوله.

- حسناً، تشخيصي أنه صديق شاب، ومن المحتمَل أن يكون من النوع غير المناسب لها.

- ولكن لماذا يا ريتشارد؟ لماذا؟ ماذا تعرف عن الفتيات الصغار؟

قال إيغرتون باقتضاب: الكثير. لقد كان عندي ثلاث عميلات في السنة الماضية، اثنتان منهنّ وُضعتا تحت وصاية المحكمة والثالثة أجبرت والديها على الموافقة على زواج مشؤوم بصورة محتومة. الفتيات لا تتم تربيتهنّ الآن كما كان الحال سابقاً، ظروف الحياة تجعل من الصعب عليك أن ترعاهنّ في كل الأحوال.

- ولكني أؤكد لك أن إلفيرا حصلت على أكبر قدر من الرعاية.

- ذكاء هذا النوع من الفتيات الشابّات فوق أيّ شيء تستطيع تصوّره! أبقِ عينيك عليها يا ديريك، قُم ببعض الاستفسارات عمّا تريد فعله.

- هراء، إنها مجرّد فتاة بسيطة لطيفة.

- ما لا تعرفه عن الفتيات البسيطات اللطيفات يمكن أن يملأ مرجعاً! أمها هربت وسبّبت فضيحة، هل تذكر هذا؟ وقد كان ذلك عندما كانت أصغر من إلفيرا اليوم.

- أنت تكدّرني يا ريتشارد، تكدّرني بشدّة.

- كُن على حذر. ما لم أحبّه إطلاقاً كان واحداً من أسئلتها

الأخرى، لماذا هي مهتمة بأن تعرف مَن الذي سيرث مالها في حالة وفاتها؟

- من الغريب قولك هذا لأنها سألتني نفس السؤال!

- حقاً؟ لماذا يدور تفكيرها حول الموت المبكّر؟ بالمناسبة، لقد سألتني عن أمها.

بدا الكولونيل لاسكومب قلقاً عندما قال: أتمنى أن تتصل بيس بالفتاة.

- هل تحدثتَ مع بيس في هذا؟

- حسناً، نعم، لقد فعلت. لقد قابلتُها بالمصادفة لأننا كنا نقيم في نفس الفندق، وفي الواقع لقد ألححتُ علي بيس بأن نقوم ببعض الترتيبات لرؤية الفتاة.

سأله إيغرتون بفضول: وماذا قالت؟

- رفضت تماماً. قالت بشكل أو بآخر إنها لم تكُن شخصاً آمناً بالنسبة للفتاة لكي تعرفها.

- هذه وجهة نظر وجيهة، أعتقد أنها كذلك. إنها مجنونة ببطل السباق، أليس كذلك؟

- لقد سمعت بعض الإشاعات.

- نعم، وأنا أيضاً سمعتها ولكنني لا أعرف إن كانت صحيحة أم لا. أظن أنها يمكن أن تكون كذلك، هذا يمكن أن يكون هو

السبب الذي يجعلها تشعر بما تشعر به الآن؛ أصدقاء بيس يكونون أشخاصاً غريبين أحياناً!

قال ديريك لاسكومب بطريقة فظّة: إنها أسوأ عدوّ لنفسها دائماً.

- هذه ملاحظة مناسبة في الحقيقة. حسناً، آسف لإزعاجك يا ديريك ولكن استمرّ في البحث عن غير المناسبين الموجودين في الخفاء هؤلاء، لا تقُل إنني لم أحذّرك.

وضع السماعة وسحب الأوراق التي كانت على طاولته ناحيته من جديد، وفي هذه المرة كان قادراً على تركيز كل انتباهه على الذي كان يفعله.

* * *

الفصل الحادي عشر

طلبت السيدة ماك كري مدبّرة منزل الكاهن بينيفاذر سمك موسى من دوفر مساء يوم عودته. كانت مميّزات سمك دوفر الجيد متعددة، فلم يكُن بحاجة إلى وضعه في المقلاة لقليه إلا حين يصل الكاهن إلى بيته في أمان، كما كان يمكن حفظه حتى اليوم التالي إذا كان ذلك ضرورياً. لقد كان الكاهن بينيفاذر مولَعاً بسمك دوفر، وإذا وصلت مكالمة هاتفية أو برقية تقول إن الكاهن سيتوجه إلى مكان آخر في ذلك المساء المحدَّد فإن السيدة ماك كري يمكنها أن تستمتع بسمك دوفر الجيّد بنفسها، ولذلك فكل شيء كان في حالة جيدة من أجل عودة الكاهن، وسوف يتبع سمك دوفر أكل الفطائر المحلاّة.

وُضع السمك على طاولة المطبخ، وكانت حلوى الفطائر جاهزة في طبق كبير وكل شيء في حالة استعداد، النحاسيات كانت تلمع والفضّيات تتلألأ، لم تكُن في أي مكان أيّ ذرة غبار. كان شيء واحد فقط ناقصاً، الكاهن نفسه!

كان من المقرّر عودته في القطار الذي يصل من لندن في السادسة والنصف، وعندما أصبحت الساعة السابعة لم يكُن قد

وصل بعدُ فاعتقدت أن القطار تأخر. تنهّدت السيدة ماك كري بصورة تدل على غيظها وشكّت أن ذلك سيكون شيئاً مزعجاً. أصبحت الساعة الثامنة ولم يعُد الكاهن بعد! تنهدت السيدة ماك كري بطريقة لا تخلو من الغضب وتوقعت أن تأتيها مكالمة هاتفية بين لحظة وأخرى. لكن لعله كتب لها رسالة، لا شكّ أنه قد كتب رسالة ولكن من المحتمَل أنه غفل عن إرسالها في البريد.

قالت السيدة ماك كري: عجباً، عجباً!

وعندما صارت الساعة التاسعة صنعت لنفسها ثلاث فطائر محلاّة من حلوى الفطيرة ووضعت السمك في الثلاجة بعناية وقالت لنفسها: أين الرجل الطيب الآن؟

كانت تعرف من خبرتها أنه يمكن أن يكون في أيّ مكان، والمرجّح أنه سوف يكتشف خطأه في الوقت المناسب ويرسل إليها برقية أو يكلمها هاتفياً قبل أن تذهب إلى النوم. قالت السيدة ماك كري: سأنتظر حتى الساعة الحادية عشرة ولكن ليس أكثر من ذلك.

كان موعد نومها العاشرة والنصف واعتبرت تمديده حتى الساعة الحادية عشرة واجباً عليها، ولكن إذا لم يحدث شيء حتى الساعة الحادية عشرة وإن لم يصلها شيء من الكاهن فسوف تذهب إلى النوم.

لا يمكن أن يُقال إنها كانت قلقة، فمثل هذا الشيء حدث من قبل. لم يكُن بوسعها عمل أيّ شيء غير انتظار خبر ما. الاحتمالات متعددة: من الممكن أن يكون الكاهن بينيفاذر قد ركب في القطار الخطأ ولم يستطع اكتشاف خطئه إلاّ بعد أن وصل إلى المحطة

الأخيرة، وربما كان لا يزال في لندن وأخطأ في معرفة التاريخ ولذلك اقتنع بأن ميعاد عودته هو الغد، أو قد يكون التقى بصديق أو أصدقاء في هذا المؤتمر الأجنبي الذي كان ذاهباً إليه وتمّ إقناعه بالبقاء معهم طوال عطلة الأسبوع مثلاً... يمكن أن يكون قد قصد إعلامها ولكنه نسي كلّياً أن يفعل ذلك. وهكذا -كما قلنا قبل قليل- لم تكُن قلقة.

بعد غد سيأتي صديقه القديم رئيس الأساقفة سيمونز ليبقى عنده. كان ذلك شيئاً من الأشياء التي لا ينساها الكاهن أبداً، ولذلك فلا شكّ في أنه هو بنفسه سيصل أو ستصل برقية منه غداً، وعلى أبعد تقدير سيعود إلى البيت في اليوم الذي يليه، أو يمكن أن يرسل رسالة.

ومع ذلك جاء صباح اليوم التالي دون كلمة منه، ولأول مرة بدأت السيدة ماك كري تقلق. وبين الساعة التاسعة صباحاً والواحدة ظهراً كانت تنظر إلى جهاز الهاتف بارتياب. لقد كانت للسيدة ماك كري آراؤها الثابتة الخاصة بالهاتف، كانت تستخدمه وتعترف بفائدته ولكنها لم تكُن تحبّه. كانت بعض مشترياتها الخاصة بالمنزل تتمّ بواسطة الهاتف رغم أنها كانت تفضل أن تذهب بنفسها بسبب اعتقاد راسخ لديها أنها إذا لم ترَ الشيء الذي تودّ شراءه فإن صاحب المتجر سيحاول غشها بالتأكيد. ورغم ذلك فالهاتف مفيد للأمور المنزلية؛ فقد كانت تقوم بين الفينة والأخرى بالاتصال بأصدقائها أو أقاربها المجاورين، على الرغم من أن هذا كان نادراً. كان إجراء مكالمة لمكان بعيد مثل لندن يزعجها بشدّة؛ كان ذلك تضييعاً مخزياً للمال في رأيها، ومع ذلك فقد بدأت تفكّر في مواجهة تلك المشكلة.

أخيراً وعندما بزغ فجر يوم جديد دون أيّ خبر عن الكاهن قرّرت أن تفعل شيئاً بخصوص هذا الأمر. كانت تعرف أين كان الكاهن يقيم في لندن، فندق بيرترام الجميل القديم الطراز. ربما كان من الأفضل أن تتصل وتستفسر عنه؛ فمن المحتمَل أنهم يعرفون مكان الكاهن لأنه لم يكُن فندقاً عادياً. كان يمكنها الاتصال بالآنسة غورينج التي كانت دائماً قديرة وكثيرة الاهتمام، وبالطبع يوجد احتمال أن يكون الكاهن عائداً في قطار الساعة الثانية عشرة والنصف، وإذا كان هذا صحيحاً فسيكون أمامها بين لحظة وأخرى.

ولكن مرّت الدقائق ولم يكُن أمامها أيّ كاهن، فسحبت السيدة ماك كري نفَساً عميقاً وشجّعت نفسها وطلبت مكالمة إلى لندن، وانتظرت وهي تعضّ شفتيها وتحمل السماعة وهي تمسك بها بقوة إلى جانب أذنها حتى سمعت صوتاً يقول: فندق بيرترام في خدمتك.

قالت السيدة ماك كري: أريد أن أتكلم مع الآنسة غورينج من فضلك.

- لحظة واحدة، من الذي يطلبها؟

- مدبّرة منزل الكاهن بينيفاذر السيدة ماك كري.

- لحظة واحدة من فضلك.

وفي الحال دخل صوت الآنسة غورينج الهادئ الفعّال على الخط وهي تقول: معك الآنسة غورينج، هل قلتِ إنك مدبّرة منزل الكاهن بينيفاذر؟

- هذا صحيح، السيدة ماك كري.

- نعم، بالطبع، ماذا يمكن أن أقدم لك يا سيدة ماك كري؟

- هل ما يزال الكاهن بينيفاذر يقيم في الفندق؟

- يسرّني أنك اتصلتِ؛ لقد كنا حائرين بخصوص ما ينبغي أن نعمله بالضبط.

- هل تقصدين أن شيئاً قد حدث للكاهن بينيفاذر؟ هل جرى له حادث؟

- لا، لا، لا شيء من ذلك، ولكننا توقعنا أن يعود من لوسيرن يوم الجمعة أو السبت.

- أجل، هذا صحيح.

- ولكنه لم يصل، إلاّ أن هذا لم يكُن ليثير الدهشة في الحقيقة؛ لقد حجز غرفته، حجزها حتى الأمس، ولكنه لم يعُد بالأمس ولم يرسل أيّ خبر وأغراضه ما زالت هنا، أعني الجزء الأكبر من أمتعته. إننا لم نكن متأكدين تماماً ماذا نصنع بها، بالطبع...

واستمرّت الآنسة غورينج في حديثها فقالت: نحن نعرف أن الكاهن... أعني أنه ينسى في بعض الأحيان.

- هذا صحيح.

- هذا يجعل الأمر صعباً علينا قليلاً؛ فندقنا محجوز بالكامل وفي الحقيقة كانت غرفة الكاهن قد حُجزت لنزيل آخر، فهل لديك أيّ فكره عن مكانه؟

قالت السيدة ماك كري بمرارة: الرجل يمكن أن يكون في أيّ مكان!

ثم استجمعت قواها وقالت: حسناً، شكراً لك يا آنسه غورينج.

قالت الآنسة غورينج على سبيل المساعدة: هل من شيء أستطيع عمله؟

قالت السيدة ماك كري: لا بدّ أنني سأسمع خبراً عنه في القريب العاجل.

ثم شكرت الآنسة غورينج مرّة أخرى ووضعت السماعة، وجلست بجانب الهاتف وهي تبدو منزعجة! إنها لم تكُن تخاف على سلامة الكاهن الشخصية، ولو أنه حدث له حادث لكانت قد بُلّغت بذلك فعلاً. إنها متأكدة من هذا؛ فلم يكُن الكاهن من النوع الذي تسمّيه عرضة للحوادث. كانت السيدة ماك كري تسمّيه في نفسها «من ذوي العقول الشاردة»، وذوو العقول الشاردة كانوا يبدون كأنهم دائماً تحت العناية الإلهية الخاصة، ولأنهم لا يهتمّون ولا يفكرون فيمكنهم النجاة من الموت حتى لو عبروا من أمام سيارة مسرعة. لم تتصور يوماً الكاهن بينيفاذر راقداً في مستشفى وهو يئنّ، كان في مكان ما يثرثر مع أصدقائه بسعادة وبراءة لا شكّ في ذلك، أو لعله ما زال في الخارج.

كانت مشكلتها أن رئيس الأساقفة سيمونز سيصل هذا المساء متوقّعاً أن يجد مُضيفاً في استقباله، وهي لم تستطع أن تؤجل زيارة رئيس الأساقفة سيمونز لأنها لم تكُن تعلم مكانه. كان كل شيء صعباً

جداً، ولكنها -مثل معظم المصاعب- فيها بصيص أمل، وهو أن رئيس الأساقفة سيمونز سيعرف ماذا يفعل. سوف تضع المسألة بين يديه.

كان رئيس الأساقفة سيمونز على النقيض من سيدها تماماً؛ كان يعرف إلى أين هو ذاهب وماذا كان يفعل، وكان دائماً متأكداً بابتهاج من معرفة الشيء الصحيح الذي يجب فعله وكيف يفعله... رجل واثق من نفسه تماماً.

عندما وصل رئيس الأساقفة سيمونز وواجهته توضيحات واعتذارات وقلق السيدة ماك كري كان قلعة من القوّة ولم ينتَبهُ الذعر أبداً، ثم قال بأسلوبه اللطيف حينما كان يجلس لتناول الوجبة التي أعدّتها استعداداً لوصوله: لا تقلقي يا سيدة ماك كري، سوف نبحث عن صاحب العقل الشارد. ألم تسمعي قط بقصة شيسترتون الكاتب؟ لقد أرسل برقية لزوجته عندما ذهب في جولة لإلقاء محاضرات وقال لها: أنا في محطة كريوي، أين يجب أن أكون؟

ثم ضحك، وابتسمت السيدة ماك كري على سبيل المجاملة فهي لم ترَ أن تلك القصة كانت مسلية لأنها من النوع الذي يمكن أن يفعله الكاهن بينيفاذر بالضبط. قال رئيس الأساقفة سيمونز بإعجاب: يا لها من شريحة لحم ممتازة هذه التي طبختِها! أنت طاهية رائعة يا سيدة ماك كري. أرجو أن يكون صديقي العجوز يوفيك حقّك من التقدير.

وبعد أن أتبعت شرائح اللحم ببعض فطائر الحلوى الصغيرة التي كانت من حلوى رئيس الأساقفة المفضّلة كرّس الرجل الطيب نفسه بجدّية لتعقب صديقه المفقود، فتوجّه صوب الهاتف وبدأ

يتحدث فيه بنشاط دون اكتراث بالنفقات ممّا جعل السيدة ماك كري تزمّ شفتيها بلهفة، على الرغم من أنها لم تكُن تستهجن ذلك في الحقيقة لأنه يجب التفتيش عن مكان وجود سيدها دون شك.

اتصل بأخت الكاهن لأنها كانت تعرف بعضاً من الأماكن التي يذهب إليها ليستفسر منها عن المكان الذي يمكن أن يكون فيه، وأيضاً ليعلمها بأمر غياب أخيها من قبيل الواجب، ولكن -كالعادة- لم يكُن عندها أدنى فكرة عن مكان وجوده أو أين يمكن أن يكون. وسّع رئيس الأساقفة شبكة اتصالاته فاتصل بفندق بيرترام وأخذ معلومات دقيقة بقدر الإمكان. من المؤكّد أن الكاهن قد غادر المكان في وقت مبكر من مساء يوم التاسع عشر، وكان يحمل معه حقيبة يد صغيرة عليها علامة الخطوط الجوّية البريطانية ولكن أمتعته الأخرى بقيت في غرفته التي حجزها، وذكر الكاهن أنه ذاهب إلى مؤتمر يُعقَد في لوسيرن. لم يذهب مباشرة إلى المطار من الفندق، فقد أدخله الحاجب (الذي كان يعرفه جيداً بمجرّد النظر) في سيارة أجرة ووجّهها إلى نادي الأثينيوم كما أخبره الكاهن. كانت تلك آخر مرة يرى فيها شخصٌ من فندق بيرترام الكاهن بينيفاذر و... ولكن توجد معلومة صغيرة أخرى، لقد نسي أن يترك مفتاحه خلفه وأخذه معه، ولم تكُن تلك المرة الأولى التي يحدث فيها هذا.

توقّف رئيس الأساقفة سيمونز ليضع دقائق من أجل التفكير قبل أن يقوم بإجراء مكالمته التالية. كان بإمكانه الاتصال بمطار لندن وكان ذلك سيستغرق بعض الوقت دون شك، ولكن يمكن اختصار ذلك عن طريق الاتصال بالدكتور ويسغارتين عالم اللغات الشرقية الذي كان شبه متأكد من أنه قد حضر المؤتمر.

كان الدكتور ويسغارتين في بيته، وحالما سمع من كان يتكلم معه انطلق في سيل من اللغو يتكون في معظمه من نقد وذمّ لبحثَين مما قُدِّم في المؤتمر الذي عُقِد في لوسيرن فقال: كان بحث زميلنا هوغاروف غير صحيح في معظمه، غير صحيح! كيف يفعل ذلك؟ لا أعرف! هذا الرجل ليس عالماً على الإطلاق! هل تعرف ماذا قال حقيقةً؟

تنهد رئيس الأساقفة الذي كان عليه أن يكون صارماً وإلاّ فالأرجح أن بقية المساء كانت ستمضي في الاستماع إلى نقد العلماء الزملاء الذين شاركوا في مؤتمر لوسيرن، وأُجبرَ الدكتور كارهاً على التركيز على الأمور الأكثر شخصية فسأله رئيس الأساقفة عن الكاهن بينيفاذر فقال: بينيفاذر؟ كان يجب أن يكون هناك، لا أعرف لماذا لم يكُن هناك! لقد قال إنه ذاهب، أخبرني بذلك قبل أسبوع واحد من رؤيتي له في نادي أثينيوم.

- أتقصد أنه لم يكُن في المؤتمر أصلاً؟

- هذا ما قلته لتوّي، كان يجب أن يكون هناك.

- هل تعرف لماذا لم يكُن هناك؟ هل أرسل اعتذاراً؟

- كيف لي أن أعرف؟ بالتأكيد تحدّث عن حضوره إلى هناك. نعم، الآن تذكرت، لقد كان منتظَراً والعديد من الحضور لاحظوا غيابه. ربما أصيب بنزلة برد مثلاً فالجو قاس جداً.

كان على وشك العودة إلى انتقاداته لزملائه العلماء ولكن رئيس الأساقفة سيمونز وضع السماعة. كان قد حصل على حقيقة،

ولكنها حقيقة أيقظت في نفسه شعوراً بالقلق لأول مرة! الكاهن بينيفاذر لم يكُن في مؤتمر لوسيرن، ولكنه قصد الذهاب إلى ذلك المؤتمر، وقد بدا غريباً جداً لرئيس الأساقفة عدم وجوده هناك. بالطبع يمكن أن يكون قد استقلّ الطائرة الخطأ على الرغم من أن موظفي الخطوط الجوية البريطانية كانوا شديدي الحرص على المسافر ويجنّبونه مثل هذه الاحتمالات. هل يمكن أن يكون الكاهن بينيفاذر قد نسي اليوم الصحيح الذي سيذهب فيه إلى المؤتمر؟ ظنّ رئيس الأساقفة أن هذا كان ممكناً جداً، ولكن إذا كان الأمر هكذا فإلى أين ذهب بدلاً من ذلك؟!

بعد ذلك اتصل بالمطار، واستغرق ذلك وقتاً طويلاً من الانتظار الصّبور وتطلّب الانتقال من قسم إلى قسم، وفي النهاية حصل على حقيقة قطعية وهي أن الكاهن بينيفاذر حجز مقعداً على الطائرة المغادرة إلى لوسيرن بتاريخ الثامن عشر من الشهر، ولكنه لم يكُن على متن الطائرة!

قال رئيس الأساقفة سيمونز للسيدة ماك كري التي كانت تحوم خلفه: نحن نحرز تقدماً. والآن لنفكر من التالي الذي سأتصل به.

قالت السيدة ماك كري: هذه الاتصالات الهاتفية ستكلّف مبلغاً مخيفاً من المال.

- أخشى ذلك بالطبع، ولكن يجب البحث عنه كما تعلمين. إنه ليس شاباً صغيراً.

- يا إلهي! أتعتقد أن شيئاً قد حدث له؟

- حسناً، أرجو أن لا يكون الأمر كذلك. لا بد أنك كنت ستسمعين لو حدث له شيء. لقد كان يحمل اسمه وعنوانه معه دائماً، أليس كذلك؟

- آه، بلى، كان يحمل معه بطاقات كما كان يحمل رسائل أيضاً وكل أنواع الأغراض الأخرى في محفظته.

- حسناً، إذن لا أظن أنه موجود في مستشفى، ولكنه عندما غادر الفندق استقلّ سيارة أجرة إلى نادي أثينيوم. حسناً، سأتصل بهم مرة أخرى.

هنا حصل على بعض المعلومات الأكيدة لأن الكاهن بينيفاذر كان معروفاً جيّداً لديهم. قالوا إنه تناول العشاء هناك في الساعة السابعة والنصف مساء يوم التاسع عشر، فخطر في بال رئيس الأساقفة شيء كان غافلاً عنه حتى تلك اللحظة. لقد كانت تذكرة الطائرة ليوم الثامن عشر من الشهر، ولكن الكاهن غادر فندق بيرترام بسيارة أجرة إلى نادي أثينيوم بعد أن قال إنه ذاهب إلى المؤتمر في اليوم التاسع عشر من الشهر... وبدأ الضوء يبزغ في ذهن رئيس الأساقفة فقال في نفسه: يا له من غبي!

ولكنه كان حذراً من أن يقولها بصوت مرتفع أمام السيدة ماك كري فأكمل في نفسه: لقد أخطأ في التاريخ بالطبع! كان المؤتمر يوم التاسع عشر من الشهر، أنا متأكّد من ذلك. لا بدّ أنه اعتقد أن اليوم الذي غادر فيه هو الثامن عشر، لقد أخطأ في يوم واحد.

ثم أخذ يستعرض الأحداث التي تخيل إمكانية حدوثها، فقال إن الكاهن يمكن أن يكون قد ذهب إلى نادي أثينيوم ويمكن أن

يكون قد تناول عشاءه هناك، كما يمكن أن يكون قد ذهب إلى مطار كنسينغتون، وهناك أوضحوا له أن تذكرته كانت لليوم السابق ففهم بعد ذلك أن المؤتمر الذي كان ذاهباً إليه كان قد انتهى. قال رئيس الأساقفة سيمونز بانفعال: هذا ما حدث، ثقي في هذا.

ثم شرح الأمر للسيدة ماك كري التي وافقت على هذا الاحتمال فأضاف متسائلاً: إذن ماذا يفعل بعدها؟

قالت السيدة ماك كري: يعود إلى فندقه.

- نعم، فما كان ليأتي إلى هنا مباشرة؛ أقصد أنه لم يكُن ليذهب مباشرة إلى محطة القطار ليأتي إلى هنا.

- لم يكُن ليفعل ذلك إذا كانت أمتعته في الفندق، ولكن على أية حال كان يمكن أن يتصل بهم هناك بشأن أمتعته.

- هذا صحيح. حسناً، سنفكر بهذه الطريقة: غادر المطار مع حقيبته الصغيرة وعاد إلى الفندق أو أراد أن يعود إلى الفندق على أية حال. قد يكون تناول العشاء... لا، بل كان قد تناول العشاء في نادي أثينيوم. حسناً، لقد عاد إلى الفندق ولكنه لم يصل إليه.

وتوقف برهة ثم قال بارتياب: أو هل فعل ذلك؟ يبدو أن أحداً لم يرَه هناك. ماذا حدث له في الطريق إذن؟!

قالت السيدة ماك كري متشككة: ربما قابل شخصاً ما.

- نعم بالطبع، هذا احتمال ممكن، صديق قديم لم يرَه منذ وقت طويل، ويمكن أن يكون قد ذهب مع صديقه إلى فندق

الصديق أو بيت الصديق. ولكنه لن يقيم هناك ثلاثة أيام، أليس كذلك؟ إنه لا يمكن أن ينسى لمدة ثلاثة أيام أن أمتعته كانت في الفندق، كان سيتصل هاتفياً بخصوص ذلك على الأقل أو كان سيذهب إلى هناك لهذا الغرض، أو في حالة نوبة شديدة من شرود الذهن يمكن أن يأتي إلى البيت مباشرة... أما ثلاثة أيام من الصمت! هذا هو الذي لا يمكن تفسيره.

- لو أنه حصل له حادث...

- نعم يا سيدة ماك كري، بالطبع هذا ممكن. يمكننا الاتصال بالمستشفيات. أنت تقولين إنه كان يحمل معه الكثير من الأوراق للتعريف به، حسناً، أظن أنه توجد طريقة واحدة فقط لحلّ هذا اللغز.

نظرت السيدة ماك كري إليه بقلق فقال رئيس الأساقفة: أعتقد أن علينا أن نذهب إلى الشرطة.

* * *

الفصل الثاني عشر

لم تجد الآنسة ماربل صعوبة في الاستمتاع بإقامتها في لندن؛ لقد عملت الكثير من الأشياء التي لم يكُن عندها الوقت لكي تعملها خلال زياراتها القصيرة السابقة للعاصمة. ومع ذلك وللأسف لم تُفِد نفسها من الأنشطة الثقافية الواسعة التي كانت ممكنة بالنسبة لها، فلم تزُر أياً من المعارض أو المتاحف، كما أن فكرة حضور عرض أزياء من أي نوع لم تخطر على بالها قط. كل ما زارته كان فقط أقسام الزجاج والفخار الصيني في المتاجر الكبيرة وأقسام الأدوات المنزلية، كما أنها استفادت بشراء بعض المنسوجات المنقوشة.

وبعد أن أنفقت ما اعتبرته مبلغاً كبيراً على هذه الأغراض المنزلية أشبعت رغباتها في القيام برحلات التنزه، فذهبت إلى أماكن كانت تتذكرها منذ أيام صباها أحياناً لمجرَّد الفضول لرؤية ما إذا كانت لا تزال موجودة أم لا. كان ذلك عملاً لم تملك وقتاً لفعله من قبل، وقد استمتعت به كثيراً.

وعقب غفوة قصيرة بعد الغداء كانت تخرج وتتجنب أن يراها الحاجب إذا كان ذلك ممكناً، وذلك لأنه كان متأثراً بقوة بفكرة أن سيدة بعمرها وضعفها يجب أن تذهب دائماً في سيارة أجرة. كانت

تتجه إلى محطة الحافلات أو إلى محطة قطارات الأنفاق، وكانت قد اشترت دليلاً صغيراً للحافلات ومساراتها كما اشترت خريطة لمسارات قطارات الأنفاق، ولهذا كان يمكنها أن تخطِّط لنزهتها بعناية. كان يمكن رؤيتها في إحدى الأمسيات وهي تتمشى بسعادة وإحساس بالحنين إلى الماضي حول حدائق إيفلين أو ساحة أونسلو وهي تهمس بهدوء: نعم، كان هذا بيت السيدة فان ديلان، إنه يبدو مختلفاً تماماً الآن بالطبع، يبدو أنهم قد أعادوا بناءه. يا إلهي، أرى أن له أربعة أجراس! يبدو أنها أربع شقق. لقد كانت هذه دائماً ساحة قديمة وجميلة.

زارت بخجل متحف السيدة توسو للشمع، وهو ما كان بهجة لنفسها تتذكره جيداً منذ أيام طفولتها. وفي ويستبورن غروف بحثَت عبثاً عن محل برادلي الذي كانت العمّة هيلين تذهب دائماً إليه لإصلاح سترتها الجلدية.

لم يكُن استعراض واجهات المتاجر ليثير اهتمام الآنسة ماربل بالمعنى المتعارَف عليه، ولكنها قضت وقتاً ممتعاً في تجميع نماذج الشغل بالإبرة والأشكال المتنوعة الجديدة للصوف... ومثل هذه المتَع. كما قامت بزيارة إلى ريتشموند لرؤية البيت الذي كان يسكنه العمّ الكبير توماس الذي تقاعد وهو برتبة أدميرال. كانت شرفة البيت الأنيقة ما تزال هناك، ولكن مرّة أخرى يبدو أن كل البيوت قد تحولت إلى شقق! أما أكثر ما سبّبَ لها الألم فهو البيت الذي كان يقوم في ساحة لوندز وتعيش فيه في أبهة ابنة عم بعيدة لها هي الليدي ميريديو. لقد ظهرت مكانه ناطحة سحاب كبيرة ذات تصميم عصري! هزّت الآنسة ماربل رأسها بحزن وقالت لنفسها بتأثر: التقدم

لا مناص منه. لو أن ابنة العم إيثيل عرفت بذلك لتقلّبت في قبرها! أنا متأكدة من ذلك.

وفي أحدى الأمسيات اللطيفة الممتعة استقلّت الآنسة ماربل حافلة أخذتها إلى جسر باترسي حيث كانت ذاهبة للجمع بين متعتين: الأولى النظر نظرة عاطفية إلى منازل منطقة الأميرة تيراس حيث كانت تعيش منذ وقت بعيد إحدى مربياتها العجائز، والثانية هي زيارة متنزّه باترسي. لكن الجزء الأول من غرضها تم إجهاضه لأن بيت الآنسة ليدبري السابق كان قد اختفى دون أثر وحل محلّه مبنى إسمنتي كبير!

انعطفت الآنسة ماربل إلى متنزّه باترسي. كانت دائماً تمشي بشكل جيد، ولكن عليها أن تعترف الآن بأن قواها الخاصة بالمشي لم تعُد كما كانت، فمسافة نصف ميل كانت كافية لكي تتعبها. وقد فكرت أنها تستطيع أن تعبر المتنزّه وتخرج من فوق جسر تشيلسي وتجد نفسها مرة أخرى في مسار حافلة مناسبة، ولكن خطواتها بدأت تصبح بطيئة تدريجياً، وقد كانت مسرورة لأنها وجدت مقهى يقدّم الشاي يقع على طرف البحيرة.

كان الشاي ما يزال يقدَّم هناك على الرغم من برودة الخريف، ولم يكُن هناك الكثير من الناس في ذلك اليوم بل عدد قليل من الأمهات وعربات الأطفال وبعض الشباب. أخذت الآنسة ماربل صينية عليها كوب شاي وكعكتان وتوجهت بعناية إلى طاولة وجلست.

كان الشاي كما أرادته تماماً، ساخناً ومركزاً ومنعشاً جداً. نظرت حولها بانتعاش، ثم توقفت عيناها فجأة على طاولة قريبة

فانتصبَت جالسة في مقعدها! في الواقع كانت تلك مصادفة غريبة جداً جداً! أولاً في محلات الجيش والبحرية والآن في هذا المكان! لقد اختار هذان الاثنان أماكن غير عادية على الإطلاق! ولكن لا، لقد كانت مخطئة بالتأكيد.

أخرجت الآنسة ماربل من حقيبتها نظّارة ثانية أكثر قوة لتكتشف أنها كانت مخطئة بالفعل. كان التشابه كبيراً بالطبع مع ذلك الشعر الأشقر الطويل، ولكن هذه لم تكُن بيس سيدجويك. لقد كانت واحدة أصغر منها بسنوات، لقد كانت الابنة! الفتاة الشابة التي جاءت إلى فندق بيرترام مع صديق الليدي سيلينا هيزي الكولونيل لاسكومب، ولكن الرجل كان نفس الرجل الذي كان يتناول الغداء مع الليدي سيدجويك في محلات الجيش والبحرية! نعم، لا شكّ في ذلك، نفس الوسامة ونفس الوجه ونفس النحافة ونفس القسوة الجارحة، و... نعم، كان الرجل نفسه بالتأكيد.

قالت الآنسة ماربل لنفسها: هذا الأمر قبيح جداً، إنها فظاظة وانعدام ضمير! لا أحب أن أرى ذلك، أولاً الأم والآن الابنة! ماذا يعني هذا؟!

كانت الآنسة ماربل متأكدة من أن هذا لا يعني شيئاً جيداً، كانت متأكدة أن كلا اللقاءين كان اجتماعاً سرياً تقريباً. كانت الآنسة ماربل تعتقد الأسوأ باستمرار وتصرّ على أنها كانت على صواب في اعتقادها هذا بنسبة تسعة إلى عشرة. في تلك اللحظة لاحظت الطريقة التي يميل بها الاثنان على بعضهما البعض فوق الطاولة إلى أن تلامس رأساهما تقريباً، كما لاحظت الجدّية التي كانا يتكلمان

بها أيضاً. خلعت الآنسة ماربل نظارتها ومسحت العدسات بعناية ثم وضعتها مرة أخرى ونظرت إلى وجه الفتاة. نعم، كانت هذه الفتاة في حالة حب... تهوّر شبابي! ولكن أين أوصياؤها حتى يتركوها تتنقل من مكان إلى آخر في لندن وتحظى بهذه اللقاءات العاطفية في متنزّه باترسي؟ لقد رُبّيت هذه الفتاة تربية رقيقة وكان سلوكها جيداً، لا شك أنها رُبيت تربية رقيقة أكثر من اللازم، ومن المحتمَل أن أقاربها يعتقدون أنها في مكان آخر تماماً الآن... أيْ أنها كانت تكذب عليهم!

وفي طريق خروجها مرّت الآنسة ماربل من جانب الطاولة التي كانا يجلسان عليها، وكانت تسير ببطء قدر استطاعتها دون أن يكون ذلك بادياً بوضوح، ولسوء الحظ كان صوتهما منخفضاً جداً لدرجة أنها لم تستطع سماع ما كانا يقولانه. كان الرجل يتكلم والفتاة تستمع، وكانت نصف مسرورة ونصف خائفة. قالت الآنسة ماربل لنفسها: لعلّهما يخططان للهرب معاً، ولكنها ما تزال قاصراً.

عبرت الآنسة ماربل البوّابة الصغيرة في السياج الذي يؤدّي إلى الممشى الجانبي في المتنزّه حيث كانت السيارات واقفة على طول السياج، وفي الحال توقفت بجانب سيارة معيَّنة. لم تملك الآنسة ماربل معرفة كبيرة بالسيارات ولكنها لم تكُن تشاهد كثيراً من أمثال هذه السيارة، لذلك لاحظتها وتذكّرتها. لقد حصلت على معلومات صغيرة عن السيارات من هذا النوع من أحد أبناء إخوتها المتحمسين للحديث في مثل هذه المواضيع، لقد كانت سيارة سباق أجنبية الصناعة ولكنها لم تستطع أن تتذكر نوعها. لقد شدّت هذه السيارة انتباهها ليس فقط بسبب حجمها وقوّتها ومظهرها غير

العادي، ولكن لأن رقمها أيقظ في نفسها ذكرى غامضة، شيئاً يرتبط بذكرياتها. كان الرقم هو «ف أ ن ٢٢٦٦»، وقد جعلها ذلك تفكر في ابنة عمّها فاني التي فازت بمبلغ كبير حين اشترت تذكرة يانصيب تحمل هذا الرقم ذات يوم!

مشت ونظرت إلى رقم السيارة. نعم، لقد كانت على حقّ تماماً، «ف أ ن ٢٢٦٦». لقد كانت السيارة ذاتها!

وصلت الآنسة ماربل إلى الجانب الآخر من جسر تشيلسي وهي غارقة في التفكير رغم خطواتها التي كانت تزيدها ألماً كل لحظة، وعندئذ أصبحت منهَكة تماماً ممّا جعلها توقف بعزم أول سيارة أجرة رأتها. كانت قلقة من الاحساس بوجود أشياء يجب أن تعملها بخصوص أمور معيَّنة، ولكن ما هذه الأشياء؟ وماذا يمكنها أن تفعل بشأنها؟ كان ذلك كله غامضاً جداً! ركّزت عينيها وهي شاردة على بعض لوحات عرض الأخبار الموضوعة في الشوارع، وكانت هذه الأخبار تقول: «تطورات مثيرة في حادث السطو على القطار»، «أقوال سائق القطار»...

قالت الآنسة ماربل لنفسها: يبدو أن كل يوم يمرّ يجلب معه حادث سطو على بنك أو على قطار أو عمليات نشل من الجيوب... يبدو أن الجريمة قد تجاوزت حدّها!

* * *

الفصل الثالث عشر

كان كبير المحققين فريد ديفي يتجول في إدارة التحقيقات الجنائية مستعيداً بعض الذكريات الغامضة وهو يهمهم لنفسه كنحلة طنانة كبيرة. كانت تلك الصفة معروفة عنه جيداً ولم تسترع اهتمام أحد.

قاده طوافه أخيراً إلى غرفة كان يجلس فيها المحقق كامبل وراء طاولة وقد بدت عليه ملامح الضجر. كان المحقق كامبل شاباً طموحاً ولكن الكثير من عمله كان يبعث على الملل، ومع ذلك كان يؤدّي المهام الموكولة إليه بهمة محققاً نجاحاً طيباً في هذا المضمار. كان رؤساؤه يعتقدون أنه يؤدي عمله بشكل جيد وكانوا يمنحونه بضع كلمات من الإطراء المشجّع من حين لآخر.

قال المحقق كامبل باحترام عندما دخل الأب إلى غرفته: صباح الخير يا سيدي.

كان من الطبيعي أن ينعت كبير المحققين ديفي في غيابه بالأب كما كان يفعل الآخرون، ولكنه لم يكُن ذا أقدمية كافية تسمح له

بأن يفعل هذا الشيء أمامه. سأله: هل يمكنني أن أصنع لك أي شيء يا سيدي؟

همهم كبير المحققين بطريقة غريبة نوعاً ما: «لالا بوم بوم... لماذا يناديني ماري عندما يكون اسمي هو الآنسة غيبس؟». وبعد هذا المقطع غير المتوقّع من تلك الكوميديا الموسيقية القديمة سحب كرسياً فجلس وسأل كامبل: هل أنتَ مشغول؟

أجابه كامبل: نوعاً ما يا سيدي.

- لديك قضية اختفاء فيما أظن، أليس كذلك؟ تتعلق بفندق... ما اسمه؟ فندق بيرترام؟

- نعم، هذا صحيح يا سيدي؛ فندق بيرترام.

- هل ينتهكون قوانين ساعات العمل أم يجلبون فتيات لعملائهم؟

قال كامبل وهو مصدوم قليلاً لسماعه اسم فندق بيرترام يُذكَر مرتبطاً بمثل هذه الأفعال: ماذا؟! لا يا سيدي. إنه مكان لطيف جداً وعتيق الطراز.

- هل هو كذلك الآن؟

- نعم.

- حسناً، هذا يثير الاهتمام في الحقيقة.

تساءل كامبل لماذا! كان ذلك يثير الاهتمام، ولم يرغب في السؤال حيث إن الأعصاب لدى المسؤولين الكبار كانت متوترة منذ

حادث السطو على القطار الذي اعتُبر نجاحاً مذهلاً للمجرمين. نظر إلى وجه الأب الكبير الثقيل البليد وتساءل (كما تساءل من قبل) كيف وصل كبير المحقّقين ديفي إلى مرتبته الحالية ولماذا كان يُنظَر إليه بتقدير كبير في الإدارة. قال المحقق كامبل في نفسه: أظن أنه كان جيداً في زمانه، ولكن هناك الكثير من الشباب النشطين الذين يمكنهم أن يعملوا جيّداً مع بعض التشجيع في حال إزاحة الأشجار الميتة من طريقهم.

سأله «الشجرة الميتة»: حسناً، ما الذي يحدث في فندق بيرترام؟ من الذي اختفى؟ وكيف؟ ولماذا؟

- الكاهن بينيفاذر يا سيدي، رجل دين كبير السن.

- قضية مملّة، أليس كذلك؟

ابتسم المحقق كامبل قائلاً: بلى يا سيدي، مملة إلى حدّ ما.

- كيف كان شكله؟

- الكاهن بينيفاذر؟

- نعم، أظن أن لديك وصفاً له، أليس كذلك؟

- بلى، بالطبع.

قلّب كامبل الأوراق ثم قرأ: الطول خمس أقدام وسبع بوصات، الشعر كثيف وأبيض، وهو محدودب الظهر.

- ومتى اختفى من فندق بيرترام؟

- منذ نحو أسبوع، في التاسع عشر من تشرين الثاني.

- وأبلغوا عن ذلك الآن فقط! لقد استغرقوا وقتهم قبل الإبلاغ عنه!

- حسناً، أظن أنه كان لديهم انطباع بأنه سيرجع.

- هل يملك أحدٌ أية فكرة عن سبب ذلك؟ هل رحل الرجل التقيّ فجأة مع إحدى زوجات وكلاء الكنيسة، أم أنه كان يشرب في السر، أم أنه اختلس أموال الكنيسة، أم أنه من ذلك النوع من الرجال الكبار شاردي الذهن الذين يختفون بسبب شرودهم؟

- حسناً، من كل الذي سمعته -يا سيدي- أقول بأن الأخير هو الصحيح، لقد فعلها من قبل.

- ماذا؟ اختفى من أحد فنادق وست إند المحترَمة؟

- لا، ليس هكذا بالضبط؛ ولكنه لم يكُن من شأنه أن يعود إلى بيته دائماً عندما يكون رجوعه منتظَراً بين الحين والآخر، بل كان يذهب ليقضي مع أصدقائه يوماً عندما لا يكونون قد طلبوا منه ذلك أو لا يأتي في التاريخ الذي طلبوا منه أن يحضر فيه لزيارتهم... وأشياء من هذا القبيل.

- نعم، نعم، حسناً. هذا يبدو جميلاً جداً وطبيعياً ومتوقَّعاً، أليس كذلك؟ متى اختفى تماماً؟

- يوم الثلاثاء التاسع عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) كان من المفترَض أن يكون حاضراً في مؤتمر في...

وانحنى إلى أسفل وتفحّص بعض الأوراق على طاولته ثم

قال: نعم، لوسيرن؛ مؤتمر جمعية الدراسات الإنجيلية التاريخية، وأظن أنها جمعية ألمانية.

فقال متفكراً: وقد عُقد في لوسيرن. الرجل العجوز... أليس رجلاً عجوزاً؟

- لقد عرفت أنه في الثالثة والستين من عمره يا سيدي.

- لم يحضر الرجل العجوز المؤتمر، أليس كذلك؟

سحب المحقق كامبل أوراقه ناحية، وقدّم للأب الحقائق الظاهرة كما تم التحقق منها، فأدلى كبير المحققين ديفي بملاحظة قائلاً: لا يبدو وكأنه قد رحل مع إحدى الفتيات!

لم يستطع كامبل منع نفسه من الفضول أكثر من ذلك قائلاً: أتوقع أنه سيرجع، ولكننا ندرس الموضوع بالطبع. هل أنت مهتم شخصياً بهذه القضية يا سيدي؟

قال ديفي متأملاً: لا، لست مهتماً بهذه القضية؛ لا أرى فيها شيئاً يثير الاهتمام.

كان من الواضح على المحقق كامبل أنه يتساءل في قرارة نفسه عمّا يريده كبير المحققين وهو لا يهتمّ بالقضية أصلاً، ويبدو أن كبير المحققين قرأ هذا التساؤل في ملامح كامبل فقال: الذي يهمّني هو التاريخ في الحقيقة، التاريخ وفندق بيرترام بالطبع.

- هذا الفندق ذو سمعة جيدة دائماً يا سيدي، لا توجد متاعب من هذه الناحية.

- هذا جميل جداً، أنا متأكد من ذلك.

ثم أضاف متأملاً: من الأفضل أن ألقي نظرة على المكان.

- بالطبع يا سيدي، في أيّ وقت تشاء. لقد كنت أفكّر في الذهاب إلى هناك بنفسي.

- يمكنني أن آتي معك أيضاً، ليس للتدخل ولكني أريد أن ألقي نظرة على المكان فقط، واختفاء رئيس أساقفتك هذا (أو أياً كان الرجل) يجعل العذر مقبولاً. لا حاجة لأن تدعوني «سيدي» عندما تكون هناك، أسقط الكلفة بيني وبينك وسوف أكون مجرّد مساعد لك هناك.

بدا الاهتمام على المحقق كامبل وقال: هل تظن أنه يوجد شيء يمكن أن يكون ذا علاقة بشيء آخر يا سيدي؟

- حتى الآن لا يوجد سبب يدعو إلى مثل هذا الاعتقاد، لكنك تعرف كيف هو الحال، المرء تداهمه أحياناً... لا أعرف ماذا تسمّي، خواطر؟ هل هي كذلك؟ وفندق بيرترام يبدو جيداً جداً لدرجة يصعب تصديقها!

❊ ❊ ❊

انطلق ضابطا التحري معاً، وقد بدا كامبل أنيقاً في ثيابه الرسمية التي تضفي بهاء على جسمه الممتاز في حين بدت على كبير المحققين ديفي سيماء رجل قادم من الريف، وكان الاثنان يتقنان دوريهما تماماً.

كانت عين الآنسة غورينج الذكيّة هي العين الوحيدة التي ميّزتهما وأدركت حقيقتهما عندما رفعت بصرها من فوق الدفاتر المنشورة أمامها. كانت تتوقع شيئاً من هذا القبيل حيث إنها هي التي أبلغت عن اختفاء الكاهن بينيفاذر بنفسها وتكلمت سابقاً مع شخصية أقل رتبة في الشرطة بهذا الخصوص.

همست بصوت خفيف لمساعِدتها ذات المظهر الجادّ التي كانت تجلس قريبة منها، فتقدمت الأخيرة لتتعامل مع الاستفسارات العادية أو الخدمات التي يطلبها النزلاء في حين انتقلت الآنسة غورينج بلطف إلى مكان أبعد قليلاً في مكتب الاستقبال ونظرت إلى الرجلين، فوضع المحقق كامبل بطاقته على المكتب أمامها وأومأت برأسها بعلامة الموافقة، وعندما نظرت خلفه إلى الشخص الضخم الذي يلبس معطفاً صوفياً لاحظت أنه تحول قليلاً إلى الجانب ليراقب القاعة وشاغليها بمتعة ساذجة واضحة وينظر إلى عالَم الطبقة العليا الأصيل وهو في حالة حركة دائبة.

قالت الآنسة غورينج: هل تودّ الدخول إلى المكتب؟ يمكننا أن نتحدث بشكل أفضل هناك.

- نعم، أعتقد أن ذلك سيكون أفضل.

قال الرجل الضخم السمين وهو يلتفت إليها: "فندقكم هذا جميل". ثم أضاف وهو ينظر إلى النار الكبيرة باستحسان: جميل... مكان مريح جداً على الطريقة القديمة.

ابتسمت الآنسة غورينج بسعادة وقالت: في الحقيقة نعم، إننا نفتخر بجعل ضيوفنا يشعرون بالراحة.

ثم التفتت إلى مساعدتها قائلة: هلاّ واصلتِ العمل يا أليس؟ ها هو دفتر الحجز، من المتوقَّع أن تصل السيدة جوسيلين في أية لحظة ومن المؤكَّد أنها ستريد تغيير غرفتها حالما تراها، ولكن يجب أن توضّحي لها أن كل غرفنا مشغولة، وإذا كان ضرورياً فيمكنك أن تُريها الغرفة رقم ٣٤٠ في الطابق الثالث وتعرضيها عليها بدلاً من غرفتها، إنها ليست غرفة مريحة جداً وأنا متأكدة من أنها سترضى بغرفتها الحالية حالما ترى تلك الغرفة.

- حسناً يا آنسة غورينج، سأفعل ذلك تماماً.

- وذكّري الكولونيل مورتيمر بأن نظارته الميدانية موجودة هنا، لقد طلب مني أن أحفظها له هذا الصباح فلا تَدَعيه يذهب دونها.

- لا تقلقي، سأفعل يا آنسة غورينج.

وبعد أن تمّ الانتهاء من هذه الواجبات نظرت الآنسة غورينج إلى الرجلين وخرجت من خلف المكتب فساروا جميعاً ناحية باب خشبي أحمر لا يحمل أية لوحة. فتحته الآنسة غورينج ودخلوا إلى غرفة مكتب صغيرة كئيبة حيث جلس الثلاثة معاً وقال المحقق كامبل: الرجل المفقود هو الكاهن بينيفاذر؟

ثم نظر إلى دفتر ملاحظاته وأضاف: لقد استلمت تقرير الرقيب وادل. لعلّك تريدين أن تخبريني بأسلوبك الخاص ماذا حدث بالضبط.

- لا أظن أن الكاهن بينيفاذر قد اختفى حقيقة بالمعنى الذي

توجيه هذه الكلمة عادة، بل لعله التقى بشخص ما في مكان ما، صديق قديم أو مثل ذلك، وقد يكون رحل معه إلى لقاء علمي أو اجتماع عائلي أو شيء من هذا النوع في أوروبا... إنه شخصية غامضة جداً.

- هل كنتِ تعرفينه منذ زمن طويل؟

- آه، نعم؛ إنه يأتي ليقيم هنا منذ... دعني أتذكّر، نعم، منذ خمس سنوات أو ست على الأقل، أظن ذلك.

تدخّل كبير المحققين ديفي فجأة قائلاً: هل تعملين هنا منذ وقت طويل يا سيدتي؟

قالت الآنسة غورينج: منذ... منذ نحو أربعة عشر عاماً.

كرّر ديفي مرة أخرى: إنه مكان جميل. كان الكاهن بينيفاذر يقيم هنا عادة عندما يأتي إلى لندن، أليس كذلك؟

- بلى، إنه يأتي إلينا دائماً وهو يكتب لنا مسبقاً لحجز غرفته. لقد كان أقل غموضاً على الورق منه في الحياة الحقيقية، لقد طلب غرفة من تاريخ ١٧ حتى ٢١، وخلال ذلك الوقت خطّط أن يكون في الخارج ليلة أو ليلتين وأوضح أنه يرغب في الإبقاء على غرفته محجوزة عندما يكون مسافراً. لقد كان يفعل مثل هذا كثيراً.

سألها كامبل: متى بدأت تقلقين عليه؟

- حسناً، لم أقلق عليه في الحقيقة. بالطبع كان ذلك غريباً كما ترى، فقد كانت غرفته مؤجَّرة ابتداء من يوم ٢٣، وعندما عرفت

(ولم أكن قد لاحظت ذلك في البداية) أنه لم يعد من لوغانو...

قال كامبل: المذكور في ملاحظاتي أنه كان في لوسيرن.

- آه! نعم، عذراً؛ أظن أنها كانت لوسيرن بالفعل، لقد كان مؤتمراً عن الآثار أو ما شابه ذلك. على أية حال، عندما عرفت أنه لم يعُد إلى هنا وأن أمتعته ما زالت تنتظر في غرفته بدا الأمر غريباً! وفندقنا محجوز كله في هذا الوقت من العام كما ترى، وعندي شخص آخر سيأتي ليأخذ غرفته... أعني السيدة سوندرز التي تعيش في ليم ريجيس؛ إنها تأخذ تلك الغرفة دائماً. وبعد ذلك اتصلت مدبّرة منزله التي كانت قلقة.

- اسم مدبّرة المنزل هو السيدة ماك كري، هكذا عرفت من رئيس الأساقفة سيمونز، هل تعرفينها؟

- لا أعرفها شخصياً، ولكني تكلمت معها بالهاتف مرة أو اثنين. أظن أنها امرأة موثوق بها جداً وقد عملت مع الكاهن بينيفاذر منذ بضع سنوات. طبيعي أنها كانت قلقة، أظن أنها ورئيس الأساقفة سيمونز قد اتصلا بالأصدقاء القريبين والأقارب ولكنهم لم يعرفوا شيئاً عن تحركات الكاهن بينيفاذر، وحيث إنه كان يعرف بقدوم رئيس الأساقفة لكي يقيم معه فقد بدا الأمر غريباً بالتأكيد، وهو في الحقيقة ما زال يبدو كذلك حيث إن الكاهن لم يعُد إلى بيته بعد.

سأل الأب: وهل يكون الكاهن شارد الذهن هكذا عادة؟

تجاهلت الآنسة غورينج سؤاله لأنها لم ترَ فيه أكثر من رقيب رافق ولكنه يتدخّل كثيراً في الموضوع، وتابعت الآنسة غورينج

قائلة بصوت منزعج: والآن لقد فهمت... الآن فهمت من رئيس الأساقفة سيمونز أن الكاهن لم يذهب قط إلى ذلك المؤتمر في لوسيرن.

- هل أرسل أيّ رسالة يقول فيها إنه لن يذهب؟

- لا أظن ذلك. ليس من هذا المكان، ولا برقية أو أيّ شيء مثل ذلك. في الحقيقة لا أعرف شيئاً عن لوسيرن، أنا معنية بالجانب الذي يتعلق بنا في المسألة فقط. لقد نُشرت في صحف المساء قصة اختفائه ولكنهم لم يذكروا أنه كان يقيم هنا. أرجو أن لا يفعلوا ذلك فنحن لا نريد الصحافة هنا، عملاؤنا لن يحبوا ذلك على الإطلاق. لو أنك تبقي الصحافيين بعيدين عنا -يا حضرة المحقق كامبل- فسنكون شاكرين لك كثيراً، أقصد أن المسألة ليست وكأنه قد اختفى من هنا.

- وهل ما تزال أمتعته هنا؟

- نعم، في غرفة الأمتعة. إذا لم يكُن قد ذهب إلى لوسيرن فهل ستأخذ بالاعتبار إمكانية أن يكون قد صدمته سيارة مثلاً؟

- لم يحدث له شيء من هذا القبيل.

قالت الآنسة غورينج وقد ظهر على أسلوبها اهتمام باهت محل انزعاجها: إنها تبدو مسألة مثيرة للفضول جداً جداً! أقصد أنها تجعل المرء يتساءل: أين يمكن أن يكون قد ذهب، ولماذا؟

نظر الأب إليها مدركاً وقال: أنت تفكرين بالمسألة من زاوية مصلحة الفندق بالطبع، هذا طبيعي جداً.

قال المحقق كامبل وهو يراجع ملاحظاته: عرفتُ أن الكاهن بينيفاذر قد غادر هذا المكان في نحو الساعة السادسة والنصف مساء يوم الخميس التاسع عشر وكان يحمل معه حقيبة صغيرة، وقد غادر هذا المكان في سيارة أجرة وطلب من الحاجب أن يخبر السائق بأن يتجه إلى نادي أثينيوم.

أومأت الآنسة غورينج برأسها موافِقة وقالت: أجل، لقد تناول عشاءه في نادي أثينيوم؛ أخبرني رئيس الأساقفة سيمونز أن ذلك كان آخر مكان شوهد فيه.

كان في صوت الآنسة غورينج صلابة في حين كانت تنقل مسؤولية رؤية الكاهن آخر مرة من فندق بيرترام إلى نادي أثينيوم، فقال الأب بصوت هادر: حسناً، من الجميل أن نحصل على الحقائق واضحة، وهي واضحة بالنسبة لنا الآن: لقد خرج ومعه حقيبة صغيرة زرقاء مكتوب عليها «شركة الطيران الملكية البريطانية» أو أياً كانت هذه التي حملها معه، أليس كذلك؟ رحل ولم يعُد، هذه هي كل المسألة.

قالت الآنسة غورينج وهي توحي بأنها تريد أن تنهض وتعود إلى العمل: كما ترى، أنا لا أستطيع مساعدتك بأكثر من ذلك في الحقيقة.

قال الأب: لا يبدو أنك تستطيعين مساعدتنا ولكن قد يستطيع ذلك شخص آخر.

- شخص آخر!

– نعم، قد يكون واحداً من الموظفين.

– لا أظن أن أحداً هنا يعرف شيئاً وإلاّ لكانوا أبلغوني.

– حسناً، قد يكون هذا صحيحاً وقد لا يكون كذلك. ما أعنيه هو أنهم كانوا سيخبرونك إذا عرفوا أيّ شيء غريب، ولكنني كنت أفكّر أكثر في شيء قد يكون قاله.

قالت الآنسة غورينج وهي تبدو متحيّرة: شيء من أيّ نوع؟!

– قد يكون مجرد كلمة عرضية تعطينا مفتاحاً لحل المشكلة، شيء مثل "إنني ذاهب لرؤية صديق قديم هذه الليلة لم أره منذ تقابلنا في أريزونا"، أو "أنا ذاهب لأقيم الأسبوع القادم عند ابنة أخ لي"، أو أيّ شيء من هذا القبيل. كما تعرفين، فمع هؤلاء الأشخاص شاردي الذهن تساعد مفاتيح كهذه كثيراً؛ إنها توضح ما يدور في ذهن الشخص. يمكن أن يكون قد فكّر بعد تناوله العشاء في نادي أثينيوم فاستقل سيارة الأجرة قائلاً لنفسه: "والآن إلى أين أنا ذاهب؟".

قالت الآنسة غورينج بارتياب: حسناً، لقد فهمت ماذا تقصد، ولكن هذا يبدو بعيد الاحتمال قليلاً.

قال الأب مبتهجاً: آه، المرء لا يعرف حظّه. بعد ذلك لدينا النزلاء العديدون هنا، أظن أن الكاهن بينيفاذر كان يعرف بعضهم لأنه كان يأتي إلى هنا كثيراً.

– أجل، دعني أتذكر. لقد رأيته يتحدث إلى... نعم، إلى السيدة سيلينا هيزي، ثم كان هناك مطران توروينش، أعتقد أنهما

صديقان قديمان كانا في أكسفورد معاً. والسيدة جيمسون وبناتها، لقد جاؤوا من نفس المكان... لقد كان يعرف الكثير من الناس حقاً.

قال الأب: لعله تحدّث إلى واحد منهم ويمكن أن يكون قد ذكر شيئاً صغيراً يمكن أن يعطينا مفتاحاً لحل لغز اختفائه. هل يقيم هنا الآن مَن كان الكاهن يعرفه جيداً؟

قطّبت الآنسة غورينج جبينها وهي تفكر ثم قالت: حسناً، الجنرال رادلي ما يزال هنا، وسيدة عجوز جاءت من الريف اعتادت أن تأتي إلى هنا عندما كانت فتاة، لقد قالت لي ذلك. دعني أفكر... لا أستطيع أن أتذكر اسمها الآن ولكني أستطيع أن أجدها لك و... تذكّرت، نعم، إنها الآنسة ماربل، هذا هو اسمها، أظن أنها كانت تعرفه.

– حسناً، يمكننا أن نبدأ بهذين الشخصين كما يمكننا أن نسأل خادمة الغرف.

– أجل، ولكن الرقيب وادل قابلها من قبل.

– أنا أعرف، ولكن ربما ليس من هذه الزاوية. ماذا عن كبير الخدم أو النادل الذي يقدّم له الطلبات على طاولته؟

– تقصد هنري؟

سألها الأب: ومَن يكون هنري؟

بدت الآنسة غورينج مصدومة تقريباً؛ فبالنسبة لها كان من المستحيل أن يوجد شخص لا يعرف هنري. قالت: هنري يعمل

هنا منذ سنوات طويلة، لا بدّ أنك لاحظته وهو يقدّم الشاي عندما دخلتم.

قال ديفي: أجل، إنه شخص لطيف. لقد تذكرت أنني لاحظته.

قالت الآنسة غورينج وهي منفعلة: لا أعرف ماذا سنفعل دون هنري! إنه رائع ويعطي المكان روحه.

قال كبير المحققين ديفي: أظن أن عليه أن يقدّم لي الشاي وفطائر الموفينيه. لقد رأيته يقدمها، وأنا أحب تناول فطائر الموفينيه.

قالت الآنسة غورينج ببرود: "بالتأكيد، إذا كنت تحبّ ذلك".

ثم أضافت وهي تلتفت إلى المحقق كامبل: هل أطلب لكما كوبين من الشاي يقدّمان إليكما في القاعة؟

بدأ كامبل كلامه قائلاً: سيكون هذا...

وفجأة فُتح الباب وظهر السيد همفريز بطريقته المهيبة، وبدا وكأنه ذُهل قليلاً ثم نظر إلى الآنسة غورينج مستفسراً فقالت توضّح الموقف: هذان السيدان المحترَمان من اسكتلنديارد يا سيد همفريز.

قدّم كامبل نفسه قائلاً: المحقق كامبل.

قال همفريز: آه، نعم، بالطبع، أظن أنه بخصوص الكاهن بينيفاذر. إنه موضوع غريب جداً! أرجو أن لا يكون قد حدث له أيّ شيء ذلك الرجل العجوز المسكين.

قالت الآنسة غورينج: وأنا كذلك، إنه رجل عجوز طيب.

قال السيد همفريز موافقاً: إنه واحد من المدرسة القديمة.

فأدلى ديفي بملاحظة قائلاً: يبدو أن عندكم الكثير جداً من المدرسة القديمة هنا.

قال السيد همفريز: نعم، فندقنا ما زال على قيد الحياة.

قالت الآنسة غورينج وهي تتكلم متفاخرة: لدينا أنظمتنا التقليدية، نفس الأشخاص يعودون سنة بعد سنة. لدينا الكثير من الأمريكيين، أناس من بوسطن وواشنطن... أناس هادئون جداً ولطفاء.

قال السيد همفريز وهو يبتسم مظهراً أسناناً ناصعة البياض: إنهم يحبون جوّنا الإنكليزي.

نظر الأب إليه متأملاً في حين قال المحقق كامبل: هل أنت متأكد تماماً من عدم وصول أيّ رسالة إلى هنا من طرف الكاهن؟ أقصد أنه ربما استلمها شخصٌ ما ونسي أن يسجّلها أو يمرّرها حسب الإجراءات المعتادة.

قالت الآنسة غورينج بصوت بارد: الرسائل الهاتفية تُكتَب بعناية شديدة دائماً، ولا يمكنني تصور إمكانية أن لا يتم إيصال أيّ رسالة إليّ أو إلى الشخص المختص في نوبته.

ثم حملقت إليه حانقة، وبدا المحقق كامبل مذهولاً لفترة وجيزة فقال السيد همفريز وفي صوته نبرة برودة أيضاً: في الحقيقة

لقد أجبنا على هذه الأسئلة من قبل كما تعلمان، وقد أعطينا كل المعلومات التي بحوزتنا لرقيبكم... لا أستطيع أن أتذكّر اسمه الآن.

نشط الأب قليلاً وقال بطريقة غير متكلّفة: حسناً، أنتم ترون أن الأمور صارت أكثر جدّية والأمر يبدو أكثر بكثير من مجرّد شرود ذهني، لهذا السبب أعتقد أنه يُستحسن أن نتحدث قليلاً مع هذين الشخصين اللذين ذكر اسماهما، الجنرال رادلي والآنسة ماربل.

بدا السيد همفريز غير سعيد وقال: هل تريد مني أن أرتّب لكما مقابلة معهما؟ الجنرال رادلي يكاد يكون أصمّ.

قال ديفي: لا أظن أنه سيكون من الضروري أن نجعل الأمر رسمياً جداً؛ لا نريد أن نزعج النزلاء، يمكنك أن تترك المسألة لنا بأمان تام، فقط أشر لنا إلى هذين الشخصين اللذين ذكرتماهما. توجد فرصة أن يكون الكاهن بينيفاذر قد ذكر شيئاً عن خططه أو عن شخص كان ذاهباً للقائه في لوسيرن أو عن الذي كان ذاهباً معه إلى لوسيرن... على أية حال فالأمر يستحق المحاولة.

بدا السيد همفريز مرتاحاً وسأل: ألا يوجد شيء آخر يمكننا عمله لكما؟ أنا متأكد من أنكما تدركان أننا نرغب في مساعدتكما بشتّى الطرق، ولكنكما تفهمان كيف نشعر بخصوص أيّ نشر في الصحافة.

قال المحقق كامبل: تماماً.

قال الأب: وأنا سوف أتكلم قليلاً مع خادمة الغرف.

- بالتأكيد، إذا أردت. ولكني أشكّ كثيراً أن في استطاعتها أن تخبركم بأيّ شيء مفيد.

- من المحتمَل أن لا تستطيع، ولكن قد تكون لديها معلومة أو ملاحظة قالها الكاهن عن رسالة أو عن موعد... لا يعرف المرء أبداً ما يمكن أن تسبّبه كلمة.

نظر السيد همفريز إلى ساعته وقال: ستكون في عملها في الساعة السادسة في الطابق الثاني، وحتى ذلك الحين هل ترغبان في تناول الشاي؟

قال الأب على الفور: هذا يناسبني تماماً.

غادروا المكتب معاً وقالت الآنسة غورينج: سيكون الجنرال رادلي في غرفة التدخين، أول غرفة في ذلك الممرّ إلى اليسار، أظن أنه سيكون هناك أمام نار المدفأة يقرأ جريدة التايمز.

ثم أضافت بحذر: قد يكون نائماً، فهل أنت متأكد من أنك لا تريدني أن...

قال الأب: لا، لا، سأتدبّر الأمر. ماذا عن الأخرى، السيدة العجوز؟

- تجلس هناك قرب المدفأة.

سألها الأب وهو ينظر ناحية المرأة العجوز: هل هي صاحبة الشعر الأبيض الخفيف هذه؟ إنها تكاد تماثل الشخصيات المسرحية، أليس كذلك؟ العمّة الكبيرة للعائلة.

قالت الآنسة غورينج: العمّات الكبيرات لسن مثلها في هذه الأيام، ولا حتى الجدّات أو أمهات الجدات إذا بلغت الأمور ذلك! لقد كانت عندنا بالأمس المركيزة بارلوي، إنها جدّة كبيرة، وأقول لكما بكل أمانة إنني لم أعرفها عندما دخلت؛ كانت عائدة لتوّها من باريس وكان وجهها مغطّى بالأحمر والأبيض وشعرها أشقر بلاتينياً، وأظن أنها كانت ذات قوام زائف كلياً، ولكنها بدت رائعة.

قال الأب: آه، أنا شخصياً أفضل الطراز القديم. حسناً، شكراً لك يا سيدتي.

التفت إلى كامبل قائلاً: سأعتني بالموضوع، أتسمح لي بذلك؟ إنني أعرف أن لديك موعداً مهماً.

قال كامبل وهو يلمّح بما سيفعله: هذا صحيح، لا أظن أننا سنحصل على الكثير ولكن الأمر يستحق المحاولة.

اختفى السيد همفريز في مكتبه بالداخل وهو يقول في طريقه إليه: آنسة غورينج، لحظة واحدة من فضلك.

فتبعته الآنسة غورينج إلى الداخل وأغلقت الباب خلفها. كان همفريز يسير ذهاباً وإياباً وهو يسأل بحدّة: لماذا يريدون رؤية روز؟ لقد سألها وادل جميع الأسئلة الضرورية.

قالت الآنسة غورينج مرتابة: أحسب أنه مجرّد روتين.

- من الأفضل أن تتكلمي معها أولاً.

بدت الآنسة غورينج مذهولة قليلاً وهي تقول: لكن المحقق كامبل بالتأكيد...

- آنسة غورينج، أنا لست قلقاً من كامبل بل من الرجل الآخر. هل تعرفين من هو؟

- لا، أظن أنه ذكر اسمه... لعله رقيب أو ما يشبه ذلك. إنه يبدو كفلاّح!

قال السيد همفريز وهو يتخلّى عن لباقته: فلاّح! هراء، إنه كبير المحقّقين ديفي، ثعلب عجوز لا يوجد له مثيل. إنهم يقدّرونه كثيراً في اسكتلنديارد. أريد أن أعرف ماذا يفعل هنا، إنه يتشمم الآثار في المكان ويمثّل دور الشخص اللطيف، وهذا لا يعجبني أبداً.

- هل تظن أن...؟

- لا أعرف ماذا أظن، ولكني أقول لك إنني لا أحب ذلك. هل طلب أن يرى أيّ أحد آخر غير روز؟

- أظن أنه سيتكلم مع هنري.

ضحك السيد همفريز وضحكت الآنسة غورينج أيضاً وقالت: لا تحتاج إلى القلق على هنري.

- نعم.

- والنزلاء الذين يعرفون الكاهن بينيفاذر؟

ضحك السيد همفريز مرة أخرى وقال: أرجو له أن يستمتع

مع العجوز رادلي، سوف يكون عليه أن يملأ المكان صراخاً ثم لن يحصل على أيّ شيء يستحق. أهلاً وسهلاً به مع رادلي والدجاجة العجوز المضحكة الآنسة ماربل. لكن رغم ذلك لا أحب أن يدسّ أنفه في...

* * *

الفصل الرابع عشر

قال كبير المحقّقين ديفي متفكراً: أتعرف؟ إنني لم أحب ذلك الرجل همفريز.

سأل كامبل: هل تظن أن له علاقة بشيء ما؟

قال الأب وكأنه يعتذر: حسناً، أنت تعرف نوع الإحساس الذي ينتاب المرء حياله. إنه نوع من الرجال المتملقين، وأنا أتساءل إذا كان هو صاحب الفندق أم أنه المدير فقط.

عاد كامبل خطوة واحدة إلى الخلف ناحية مكتب الاستقبال وهو يقول: يمكنني أن أسأله.

- لا، لا تسأله! فقط اكتشف ذلك بهدوء.

نظر كامبل إليه بفضول وسأله: ماذا يدور في ذهنك يا سيدي؟

- لا شيء على وجه الخصوص، أنا أفكّر فقط في الحصول إلى معلومات أكثر عن هذا المكان، أريد أن أعرف مَن الذي يقف وراءه، وضعه المالي... كل هذه الأشياء.

هزّ كامبل رأسه قائلاً: يمكنني أن أقول إنه لو كان في لندن مكان واحد فوق الشبهات تماماً لكان هو هذا المكان.

- أنا أعرف، أنا أعرف. ويا له من أمر مفيد أن ينال تلك السمعة الجيّدة!

هزّ كامبل رأسه وغادر المكان في حين نزل الأب إلى الممرّ ناحية غرفة التدخين. كان الجنرال رادلي قد استيقظ لتوّه فسقطت جريدة التايمز عن ركبته وتبعثرت صفحاتها قليلاً، فالتقطها الأب وأعاد ترتيب صفحاتها وسلّمها إليه فقال الجنرال رادلي بخشونة: شكراً لك يا سيدي، هذا لطف كبير منك.

- هل أتشرف بمقابلة الجنرال رادلي؟

- نعم، هذا أنا.

قال الأب وهو يرفع صوته: اعذرني، ولكني أريد أن أتحدث معك عن الكاهن بينيفاذر.

قرّب الجنرال يده إلى أذنه وقال: ماذا؟ ماذا تقول؟

زأر الأب بصوته قائلاً: الكاهن بينيفاذر.

- روني فاذر؟ لقد مات منذ سنوات.

- الكاهن بينيفاذر.

- آه، نعم. ماذا عنه؟ لقد رأيته قبل أيام وكان يقيم هنا.

- كان سيعطيني عنواناً، وقد قال إنه سوف يتركه معك.

بدا هذا السؤال أكثر صعوبة في اجتيازه، ولكنه نجح في النهاية فأجابه الجنرال: ولكنه لم يعطِني أيّ عنوان قط، لا بد أنه خلط بيني وبين شخص آخر. إنه عجوز أحمق مشوّش الذهن، لقد كان دائماً هكذا! كما تعرف فإن العلماء يكونون شاردي الذهن دائماً.

استمرّ الأب في حديثه لمدة أطول قليلاً، ولكنه قرّر أخيراً أن الحديث مع الجنرال رادلي كان مستحيلاً من الناحية العملية وفي الغالب غير مفيد، فذهب وجلس في القاعة على طاولة مجاورة لطاولة الآنسة جين ماربل فسمع صوت هنري يقول له: هل تريد شاياً يا سيدي؟

رفع الأب بصره متأثراً بشخصية هنري كأيّ شخص آخر، ظهر كرجل ضخم مَهيب ولكن بدا أنه يمكن أن يظهر أو يختفي حين يشاء! وطلب الأب منه شاياً ثم سأله: أرى أن عندكم فطائر الموفينيه هنا، أليس كذلك؟

ابتسم هنري بلطف وقال: بلى يا سيدي، في الحقيقة إن فطائر الموفينيه التي نقدمها جيدة جداً، إذا سمحتَ لي أن أقول ذلك، والجميع يستلذّون بها. هل أطلب لك فطائر الموفينيه يا سيدي؟ وهل تريد الشاي هندياً أم صينياً؟

- هندياً أو سيلانياً إذا كان لديكم.

- بالتأكيد عندنا شاي سيلاني يا سيدي.

أومأ هنري إيماءة خفيفة بإصبعه فغادر الشاب الشاحب الذي كان تابعاً له بحثاً عن الشاي السيلاني وفطائر الموفينيه، ثم تحرك

هنري برشاقة إلى مكان آخر ففكّر الأب في نفسه قائلاً: يا لك من شخصية! إنني أتعجب أين عثروا عليك وكم يدفعون لك! أراهن أنهم يدفعون لك رزمة لا بأس بها، ولكنك جدير بذلك.

وراقب هنري وهو ينحني بطريقة أبوية أمام سيدة عجوز، وتساءل عن الذي كان هنري يفكر فيه من ناحيته، هذا إذا كان يفكر فيه أصلاً. كان الأب يراه مناسباً للعمل في فندق بيرترام بصورة معقولة جداً. قد يكون مزارعاً محترَماً غنياً وقد يكون نبيلاً حقيقياً... كان الأب يعرف اثنين من النبلاء كهيئة هذا الرجل تماماً.

إجمالاً اعتقد الأب أنه أدّى دوره بشكل جيد، ولكنه كان يعتقد أيضاً أنه من الممكن أن لا يكون قد خدع هنري. وقال في نفسه ثانية: نعم، يا لك من شخصية!

جاء الشاي وفطائر الموفينيه فقضمها الأب بلهفة وسال الزبد على ذقنه فمسحه بمنديل كبير، وشرب كوبين من الشاي فيهما كثير من السكر، ثم مال إلى الأمام وتكلم مع السيدة التي تجلس على الكرسي بقربه قائلاً: معذرة، ألستِ أنت الآنسة جين ماربل؟

حوّلت الآنسة ماربل عينها من الإبرة إلى كبير المحققين ديفي وقالت: بلى، أنا الآنسة ماربل.

- أرجو أن لا تمانعي في حديثي معك. في الحقيقة أنا ضابط شرطة.

- حقاً؟ أرجو أن لا يكون قد حدث شيء خطير هنا.

أسرع الأب لطمأنتها بأفضل أسلوب لديه قائلاً: لا، لا تقلقي

يا آنسة ماربل، ليس الأمر كذلك على الإطلاق؛ لم تحدث سرقة أو شيء كهذا بل مجرّد مشكلة بخصوص رجل دين شارد الذهن، هذا كل ما في الأمر. أظن أنه صديق لك، أعني الكاهن بينيفاذر.

- آه، الكاهن بينيفاذر؟ لقد كان هنا منذ بضعة أيام فقط. أجل، لقد كنت أعرفه إلى حدّ ما منذ عدّة سنوات، وهو رجل شارد الذهن كثيراً كما تقول.

ثم أردفت ببعض الاهتمام: وماذا فعل الآن؟

- حسناً، يمكن أن نقول إنه... فُقِد.

- ماذا؟ يا إلهي! أين كان يُفترض أن يكون؟

- عائداً إلى بيته بالقرب من كاتدرائيته، ولكنه لم يعُد.

- لقد أخبرني أنه ذاهب إلى مؤتمر في لوسيرن... شيء يتعلق بوثائق عن البحر الميت، أظن ذلك؛ إن الكاهن بينيفاذر عالِم كبير باللغة الآرامية.

- أجل، أنت على حق تماماً، كان من المفترَض... حسناً، كان من المفترَض أن يذهب إلى هناك.

- هل تعني أنه لم يذهب إلى هناك؟!

- نعم، لم يذهب.

- يا إلهي! حسناً، لعله أخطأ في التاريخ.

- محتمَل جداً، محتمَل جداً.

- أخشى أنها لم تكُن المرة الأولى التي يحدث فيها هذا. لقد ذهبتُ لتناول الشاي معه مرّة في شادمينستر وكان وقتها غائباً عن البيت، فأخبرتني مدبّرة منزله بعد ذلك كيف أنه كان شارد الذهن كثيراً.

سأل الأب وهو يتكلم بطريقة لطيفة وحميمة: أعتقد أنه لم يقُل لك عندما كان يقيم هنا أيّ شيء يعطينا مفتاحاً لفهم اللغز، أقصد... أنت تعرفين نوعية هذه الأشياء، أيّ صديق قديم يمكن أن يكون قد التقى به أو أيّ خطط قام بها بعيداً عن موضوع مؤتمر لوسيرن هذا.

- لا، لقد ذكر مؤتمر لوسيرن فقط، وأظن أنه قال إنه سيُعقد يوم التاسع عشر من الشهر، هل هذا صحيح؟

- نعم، هذا هو موعد مؤتمر لوسيرن.

- أنا لم أنتبه إلى التاريخ بصورة خاصة، أقصد...

وكمعظم السيدات العجائز أسهبت الآنسة ماربل قليلاً قائلة: أعتقد أنه قال يوم ١٩، وقد يكون قال يوم ١٩ فعلاً ولكن في نفس الوقت ربما كان يقصد يوم ١٩ في حين كان في الحقيقة يوم ٢٠، أقصد أنه قد يكون ظنّ أن يوم ٢٠ كان ١٩ أو أنه قد يكون ظن أن ١٩ كان ٢٠.

قال الأب وهو مدهوش قليلاً: حسناً...

قالت الآنسة ماربل: إنني أقول هذا بشكل سيّئ، ولكني أقصد أن أشخاصاً مثل الكاهن بينيفاذر إذا قالوا إنهم ذاهبون إلى مكان يوم الخميس فإن المرء لن يُدهَش إذا وجد أنهم لم يكونوا يقصدون

يوم الخميس بل ربما كانوا يعنون في الحقيقة يوم الأربعاء أو يوم الجمعة، وفي العادة يكتشفون ذلك في الوقت المناسب، ولكنهم أحياناً لا يفعلون. لقد كنت أعتقد في ذلك الوقت أن شيئاً كهذا لا بدّ من أن يحدث.

بدا الأب متحيراً قليلاً وقال: أنت تتكلمين وكأنك تعرفين أن الكاهن بينيفاذر لم يذهب إلى لوسيرن يا آنسة ماربل!

- لقد عرفت أنه لم يكُن في لوسيرن يوم الخميس؛ كان هنا طوال اليوم أو معظم اليوم، لهذا السبب اعتقدت بالطبع أنه على الرغم من أنه قال لي الخميس إلاّ أنه في الحقيقة كان يقصد الجمعة. بالتأكيد غادر الفندق مساء يوم الخميس وهو يحمل حقيبة مكتوب عليها «الخطوط الجوية البريطانية».

- هذا صحيح تماماً.

- لقد فهمت من ذلك أنه كان ذاهباً إلى المطار، لذلك فوجئتُ عندما علمت أنه عاد مرّة أخرى.

- ماذا؟! ماذا تقصدين بعودته مرة أخرى؟

- أقصد أنه عاد إلى هنا مرّة أخرى.

قال الأب وهو حريص على أن يتكلم بصوت مقبول وكأن الأمر لم يكُن مهماً في الحقيقة: الآن دعنا نستوضح هذه المسألة: أنت رأيت الرجل العجوز... رأيت الكاهن وهو يغادر -حسبما كنتِ تعتقدين- إلى المطار مع حقيبته الصغيرة، وذلك في وقت مبكّر من المساء، هل هذا صحيح؟

- نعم، في نحو الساعة السادسة والنصف أو السابعة إلاّ ربعاً.

- ولكنك تقولين إنه عاد؟

- ربما فاتته الطائرة، هذا يمكن أن يبرر ذلك.

- متى عاد؟

- حسناً، لا أعرف في الحقيقة لأنني لم أرَه عند عودته.

قال الأب مصدوماً: ماذا؟! أظنّكِ قلتِ إنك رأيتِه فعلاً.

- أجل، لقد رأيتُه فعلاً فيما بعد، كنت أقصد أنني لم أرَه في الحقيقة في لحظة عودته إلى الفندق.

- رأيتِه فيما بعد؟ أين؟

فكرت الآنسة ماربل برهة ثم قالت: حسناً، كان ذلك في نحو الساعة الثالثة صباحاً. لم أستطع النوم ليلتها جيّداً، شيء ما أيقظني، صوت ما... يوجد الكثير من الأصوات الغريبة في لندن! نظرتُ إلى ساعتي الصغيرة وكانت الثالثة وعشر دقائق، ولسبب ما لست أدركه تماماً أحسستُ بالخوف! ربما كان وقع أقدام كانت خارج باب غرفتي. عندما يعيش المرء في الريف ويسمع وقع أقدام في منتصف الليل فإن ذلك يثير أعصابه، لذلك فتحت باب غرفتي ونظرت إلى الخارج فرأيت الكاهن بينيفاذر يغادر غرفته التي تجاور غرفتي ويذهب إلى أسفل مرتدياً معطفه.

- خرج من غرفته وهو يرتدي معطفه ونزل الدرَج في الساعة الثالثة صباحاً؟

- نعم، لقد اعتقدت أن هذا غريب في ذلك الوقت.

نظر الأب إليها لبضع لحظات ثم قال: آنسة ماربل، لماذا لم تخبري أحداً بذلك من قبل؟

قالت الآنسة ماربل ببساطة: لم يسألني أحد.

* * *

الفصل الخامس عشر

سحب الأب نَفَساً عميقاً وقال: أجل، لا أظن أن أحداً سألك. الأمر بسيط بالفعل.

وعاد إلى الصمت مرة أخرى فسألته الآنسة ماربل: أنت تظن أن شيئاً قد حدث له، أليس كذلك؟

- لقد مضى أكثر من أسبوع الآن، إنه لم يُصَب بسكتة دماغية ويقع في الشارع فهو غير موجود في أيّ مستشفى نتيجة لحادث، إذن أين هو؟ لقد كُتب في الصحف عن اختفائه ورغم ذلك لم يأتِ أحدٌ بأيّ معلومات عنه.

- ربما لم يروا شيئاً، أنا شخصياً لم أرَ شيئاً.

- الأمر يبدو... في الحقيقة يبدو...

ثم أكمل وهو يتابع تسلسل حبل أفكاره: يبدو وكأنه كان يقصد الاختفاء، يترك هذا المكان بهذه الطريقة في منتصف الليل! أنتِ متأكدة تماماً بهذا الخصوص، أليس كذلك؟

ثم سألها بحدّة: أنتِ لم تكوني تحلمين، أليس كذلك؟

قالت الآنسة ماربل على نحو حاسم: أنا متأكدة من ذلك دون ريب.

نهض الأب على قدميه وقال: من الأفضل أن أذهب وأقابل خادمة الغرف.

* * *

وجد الأب أن روز شيلدون قد بدأت عملها فعلاً، وألقى نظرة استحسان على شخصها المريح قائلاً لها: أنا آسف لإزعاجك. أعرف أنك قد رأيت الرقيب وادل من قبل ولكن الموضوع يتعلق بذلك الرجل المفقود الكاهن بينيفاذر.

- آه، نعم يا سيّدي، إنه رجل لطيف جداً وكثيراً ما يقيم هنا.

قال الأب: أجل، رجل لطيف شارد الذهن.

ابتسمت روز شيلدون ذات الوجه الدالّ على الاحترام ابتسامة متحفظة في حين تظاهر الأب بأنه يراجع بعض الملاحظات وقال: متى كانت آخر مرة رأيت فيها الكاهن بينيفاذر؟

- صباح يوم الخميس يا سيدي، الخميس التاسع عشر من الشهر. أخبرني بأنه قد لا يعود في تلك الليلة ومن المحتمَل في الليلة التي بعدها أيضاً، كان ذاهباً إلى جنيف على ما أعتقد، إلى مكان ما في سويسرا على أية حال. لقد أعطاني قميصَين أراد أن يغسلهما وقلت له إنهما سيكونان جاهزَين في صباح اليوم التالي.

- وهذه كانت آخر مرّة رأيته فيها، أليس كذلك؟

- بلى يا سيدي. أنا أنقطع عن العمل في فترة ما بعد الظهيرة ثم أعود من جديد في الساعة السادسة مساء، وفي ذلك الوقت إما أن يكون قد غادر أو أنه بالأسفل على أية حال، ولكنه لا يكون في غرفته. لقد ترك وراءه حقيبتَي سفر.

قال الأب: هذا صحيح. لقد تمّ فحص محتويات الحقيبتين، ولكن ذلك لم يؤدِّ إلى أيّ نتيجة مفيدة.

تابع كلامه قائلاً: هل ناديتِه في صباح اليوم التالي؟

- ناديتُه؟ لا يا سيدي، لقد كان في الخارج.

- ماذا كنتِ تفعلين في العادة؟ هل كنت تأخذين له الشاي مبكّراً أو الإفطار؟

- الشاي يا سيدي، لكنه كان يتناول إفطاره في الأسفل دائماً.

- إذن لم تدخلي غرفته طوال اليوم التالي؟

بدت روز وكأنها مشدوهة وهي تقول: بل لقد ذهبتُ إلى غرفته كالمعتاد، أخذت قميصَيه وبالطبع نظفت الغرفة، نحن ننظّف الغرف كل يوم.

- هل بدا السرير وكأن أحداً قد نام فيه؟

حدّقت إليه وقالت: السرير يا سيدي؟ آه، لا.

- هل كان متجعداً بأيّ حال؟

هزّت رأسها نافية فسألها: ماذا عن الحمّام؟

- كانت المنشفة فيه رطبة يا سيدي. كان قد تمّ استعمالها في مساء اليوم السابق حسبما أظن، قد يكون غسل يديه قبل خروجه مباشرة.

- ألم يكُن هناك أيّ شيء يوضّح أنه قد عاد إلى الغرفة؟ ربما عاد في وقت متأخر جداً، بعد منتصف الليل مثلاً.

حدّقت إليه وعلى وجهها علامات الحيرة، ففتح الأب فمه ثم أغلقه وهو يقول لنفسه: "إمّا أنها لم تكُن تعرف شيئاً عن عودة الكاهن أو أنها ممثّلة بارعة". ثم سألها: ماذا عن ملابسه؟ هل كانت موجودة داخل حقائبه؟

- لا يا سيدي، لقد كانت معلّقة في الخزانة.

- ومن الذي صفّفها داخل الحقائب؟

- لقد أعطت الآنسة غورينج الأوامر بذلك يا سيدي، وذلك لأن الغرفة محجوزة للسيدة الجديدة التي جاءت.

رأى الأب ذلك التفسير صريحاً ومتماسكاً، ولكن لو كانت تلك السيدة العجوز صادقة في قولها بأنها رأت الكاهن بينيفاذر وهو يغادر غرفته في الساعة الثالثة من صباح يوم الجمعة فلا بدّ أن يكون قد عاد إلى تلك الغرفة في وقت ما، ولكن لم يرَه أحد يدخل الفندق! هل تجنّب عمداً أن يراه أحدٌ لسبب معيّن؟ الكاهن لم يترك

آثاراً في الغرفة، حتى إنه لم يستلقِ على السرير! هل كانت الآنسة ماربل تحلم بالمسألة كلها؟ في سنّها هذا قد يكون ذلك ممكناً.

خطرت ببال الأب فكرة فسألها: ماذا عن حقيبة المطار؟

- ماذا تعني يا سيدي؟

- حقيبة صغيرة كحليّة اللون مكتوب عليها «الخطوط الجوّية البريطانية» أو «شركة الطيران الملكية البريطانية»... لا بدّ أنك رأيتِها؟

- آه، نعم يا سيدي، ولكنه أخذها معه في سفره بالطبع.

- ولكنه لم يسافر، ولذلك فلا بدّ أنه تركها خلفه أو أنه عاد وتركها هنا مع أمتعته الأخرى.

- آه، أجل، أظن... لست متأكدة تماماً، أظن أنه تركها.

ودون جهد ومضت الفكرة في رأس الأب فسألها: إنهم لم يخبروك بذلك، أليس كذلك؟

كانت روز هادئة ومقتدرة حتى تلك اللحظة، ولكن ذلك السؤال أزعجها لأنها لم تعرف الإجابة الصحيحة عليه. ولكنها كان يجب أن تعرف! لقد أخذ الكاهن حقيبته إلى المطار ثم عاد من المطار، ولو أنه عاد إلى فندق بيرترام فإن الحقيبة ستكون معه بالتأكيد، ولكن الآنسة ماربل لم تذكر عنها شيئاً عندما وصفت مغادرة الكاهن لغرفته ونزوله إلى أسفل. من المفترَض أنها تُركت في غرفته، ولكنها لم توضع في غرفة الأمتعة مع الحقائب، فلمَ لا؟ ألأن الكاهن كان من المفترَض أن يكون قد ذهب إلى سويسرا؟

شكر روز بلطف ثم عاد إلى الطابق السفلي.

الكاهن بينيفاذر... لغز محيِّر! لقد تحدث الكاهن كثيراً عن سفره إلى سويسرا وخلط الأشياء معاً، ولكنه لم يذهب إلى سويسرا وعاد إلى فندقه بسرّية تامة لدرجة أن أحداً لم يرَه، ثم غادره مرّة أخرى في الساعات الأولى من الصباح، لكي يذهب إلى أين؟ ولماذا؟ هل يمكن أن يؤدي شرود الذهن إلى كل هذا؟ إذا كان الجواب بالنفي فماذا كان الكاهن بينيفاذر يريد أن يفعل إذن؟ والأكثر أهمية: أين هو الآن؟

ومن فوق الدرَج ألقى الأب نظرة متشككة على الضيوف الموجودين في القاعة وتساءل إذا كان أيّ منهم يبدو كما هو عليه حقيقة. كان يرى أمامه أناساً كبار السن وآخرين متوسطي الأعمار، لا أحد صغير، وأناساً لطفاء من الطراز القديم، كلهم تقريباً أغنياء، كلهم من الطبقة المحترَمة: عسكريون ومحامون ورجال دين ورجل أمريكي وزوجته بجانب الباب وعائلة فرنسية بجانب النار... لا أحد يخطف البصر، لا أحد يبدو كأنه غريب عن المكان، معظمهم كان يستمتع بشاي بعد الظهر على الطريقة الإنكليزية. هل يمكن أن يكون في مكانٍ يقدّم شايَ بعد الظهر على الطريقة القديمة شيء جسيم؟

أعطى الرجل الفرنسي إشارة لزوجته التي استجابت له دون تردد إطلاقاً. كان يقول لها: إنها الساعة الخامسة، ميعاد عادة الإنكليز اللطيفة، أليس كذلك؟

نظر ديفي حوله بإعجاب مفكّراً في حين كان يخرج من الباب الدوّار إلى الشارع قائلاً لنفسه: الساعة الخامسة، الساعة الخامسة...

هذا الرجل لا يعرف أن عادة الساعة الخامسة قد انقرضت مثل انقراض طائر الدودو!

كان في الخارج العديد من الحقائب وصناديق الملابس الأمريكية الكبيرة تُحمَل إلى داخل سيارة أجرة، وبدا أن السيد والسيدة إلمر كابوت في طريقهما إلى فندق فيندوم في باريس، وإلى جانب زوجها عند الرصيف وقفت السيدة إلمر كابوت تعبّر عن رأيها في المكان قائلة: لقد كانت عائلة بندلبيري على حقّ تماماً بخصوص هذا المكان يا إلمر؛ إنه إنكلترا القديمة تماماً! إن العهد الإدواردي جميل جداً! أشعر وكأن إدوارد السابع يمشي الآن ويجلس هناك لتناول شاي بعد الظهر! أنا أعتزم القدوم مجدَّداً إلى هنا في السنة القادمة، سأفعل ذلك بالتأكيد.

قال زوجها بغلظة: إذا كان عندنا مليون دولار لكي تنفقها على ذلك.

- ولكنه لم يكُن مكلّفاً لهذه الدرجة.

تمّ تحميل الأمتعة وساعدهم الحاجب الطويل في إدخالها وهو يهمس: شكراً لك يا سيدي.

وبينما كان السيد كابوت يقوم بأداء اللفتة المتوقَّعة منه سارت سيارة الأجرة، ثم نقل الحاجب انتباهه إلى الأب قائلاً: هل تريد سيارة أجرة يا سيدي؟

رفع الأب بصره إليه. كان طوله أكثر من ستة أقدام وكان رجلاً وسيماً شابَ شعره قليلاً، كان عسكرياً سابقاً يضع على ثوبه الكثير

من الميداليات والنياشين التي يبدو أنها حقيقية. هل هو مخادع؟

سأله الأب بصوت عالٍ: هل أنت عسكريّ سابق؟

- نعم يا سيدي، من الحرس الأيرلندي.

- أرى ميداليات عسكرية، أين حصلت عليها؟

- في بورما.

- ما اسمك؟

- مايكل غورمان، رقيب.

- هل العمل جيّد هنا؟

- إنه مكان هادئ.

- ألا تفضل الهيلتون؟

- لا، أنا أحب هذا المكان؛ يأتي إلى هنا أناس لطفاء والكثير من روّاد سباق الخيل من أجل سباقَي أسكوت ونيوبري، وأنا أحصل على إكراميات جيدة منهم من وقت لآخر.

- إذن فأنت أيرلندي ومقامر، أليس كذلك؟

- بالطبع، وكيف تكون الحياة بلا مقامرة؟

- هادئة ومملّة مثل حياتي.

- حقاً يا سيدي؟

سأله الأب: هل يمكن أن تخمّن مهنتي؟

ابتسم الرجل الأيرلندي وقال: لا أريد أن أثير مشاعرك يا سيدي، ولكن إذا أردتَ أن أخمن فسأقول إنك شرطي.

قال ديفي: تخمين صحيح من أول مرة. هل تتذكر الكاهن بينيفاذر؟

- الكاهن بينيفاذر؟ يبدو أنني لا أتذكر الاسم.

- إنه رجل دين عجوز.

ضحك مايكل غورمان قائلاً: رجال الدين كثيرون هنا.

- هذا الرجل اختفى من هنا.

- آه، ذلك الرجل!

بدا أن الحاجب قد فوجئ قليلاً في حين سأله الأب: هل كنت تعرفه؟

- لم أكن أعرفه حتى بدأ الناس بالسؤال عنه. كل الذي أعرفه أنني أدخلتُه في سيارة أجرة وذهب إلى نادي أثينيون، كانت تلك آخر مرة أراه فيها. أخبرني شخص ما أنه ذهب إلى سويسرا ثم سمعت أنه لم يذهب إلى هناك. يبدو أنه قد فُقد.

- ألم تَرَه بعدها في ذلك اليوم؟

- بعدها؟ في الحقيقة لم أره.

- في أيّ وقت ينتهي عملك؟

- في الحادية عشرة والنصف.

أومأ كبير المحققين ديفي برأسه، ورفض أن يستقل سيارة أجرة بل تمشّى ببطء بطول شارع بوند. توقفت سيارة قريباً من الرصيف خلفه خارج فندق بيرترام مُحدِثة صوتاً قوياً للكوابح، فالتفت ديفي بهدوء ولاحظ أن رقم لوحة السيارة هو «ف أ ن ٢٢٦٦». كان ذلك الرقم مألوفاً بالنسبة له على الرغم من أنه لم يستطع أن يعرف السبب في تلك اللحظة.

ببطء عاد كبير المحقّقين من حيث أتى، بالكاد وصل إلى المدخل قبل سائق السيارة الذي كان قد دخل من بوّابة الفندق قبل لحظة أو اثنتين ثم خرج منها مرة أخرى. كان هو وسيارته ملائمَين أحدهما للآخر، وكانت سيارة سباق بيضاء ذات خطوط انسيابية طويلة. كانت للشابّ نفس نظرة كلب الصيد المستعدّ للانقضاض مع وجه وسيم وجسم رياضي متناسق.

أمسك الحاجب بباب السيارة مفتوحاً فقفز الشاب إلى السيارة ملقياً بقطعة نقدية إلى الحاجب، ثم انطلق مع الصوت المزعج لمحرك السيارة فقال مايكل غورمان للأب: هل تعرف من هو؟

- سائق خطير على أية حال.

- إنه لاديسلوس مالينوسكي. لقد ربح سباق الجائزة الكبرى قبل سنتين، لقد كان بطل العالَم ثم أُصيبَ بحادث خطير في السنة الماضية، ولكن يقولون إنه أصبح على ما يُرام الآن.

- لا تقُل لي إنه يقيم في فندق بيرترام فهذا غير مناسب له إطلاقاً.

ابتسم مايكل غورمان وقال وهو يغمز بعينه: لا، لا يقيم هنا بل تقيم هنا صديقة له.

خرج حمّال يلبس إزاراً مخطَّطاً وهو يحمل أمتعة سفر أمريكية مترفة، فوقف الأب شارد الذهن يراقب الأمتعة وهي تُحمَّل داخل سيارة من نوع ديملر مستأجَرة في حين حاول أن يتذكر ما الذي يعرفه عن لاديسلوس مالينوسكي. رجل مهمل يُقال إنه مرتبط بعلاقة مع امرأة معروفة جيّداً، ما اسمها؟ كان ما زال يحدّق إلى حقيبة الملابس الأنيقة وكان على وشك الذهاب عندما غيّر رأيه وعاد فدخل الفندق من جديد.

ذهب إلى مكتب الاستقبال وسأل الآنسة غورينج عن سجل الفندق. كانت الآنسة غورينج مشغولة مع الأمريكيين المغادرين فدفعت الدفتر من فوق الطاولة إليه، فبدأ يقلّب الصفحات. الليدي سيلينا هيزي من ليتل كوتينغ، ماري فيلد من هانت، السيد والسيدة هينيس كينغ من إلدر بريمز، السير جون وودستوك من شيلتنهام، الليدي سيدجويك من نورثمبرلاند، السيد والسيدة إلمر كابوت من كونيكتيكت، الجنرال رادلي من ششستر، السيد والسيدة وولمر بيكينغتون، ماربل هيد من كونيكتيكت، لاكوتيسية دي بيوفيلي من لي سابين، الآنسة جين ماربل من سينت ميري ميد، الكولونيل لاسكومب من ليتل غرين، السيدة كاربنتر، الآنسة إلفيرا بليك، الكاهن بينيفاذر من كاتدرائية شادمينستر، السيدة هولدينغ والسيد هولدينغ والآنسة أودري هولدينغ من كارمانتور، السيد والسيدة ريزفيل من بنسلفانيا، الدوق بارنستابل من ديفون... كان هؤلاء عيّنة من الناس الذين يقيمون في فندق بيرترام، ورأى الأب أنهم يشكّلون نمطاً معيّناً.

وبينما كان يغلق الدفتر لفت نظره اسمٌ في صفحة سابقة هو السيد وليام لدغروف، القاضي لدغروف الذي تمّ التعرف عليه بواسطة ضابط مراقبة السلوك قرب موقع جريمة السطو على بنك. القاضي لدغروف، الكاهن بينيفاذر... كلاهما عميل دائم في فندق بيرترام!

قاطع أفكارَه صوتُ هنري الذي كان يقف إلى جواره وهو يقول: أرجو أن تكون قد استمتعت بشرب الشاي يا سيدي؟

كان يتكلم بلطف وباهتمام مضيف مثالي، فقال كبير المحققين ديفي: كان أفضل شاي تناولتُه منذ سنوات.

تذكّر أنه لم يدفع ثمن الشاي فحاول أن يدفعه، ولكن هنري رفع يده مستنكراً وقال: لا يا سيدي، لقد قيل لي إن الشاي على حساب الفندق، إنها أوامر السيد همفريز.

ومضى هنري مبتعداً وبقي الأب غير متأكد إن كان يجب عليه أن يدفع إكرامية لهنري أم لا. كان من المزعج له أن يظنّ أن هنري كان يعرف الإجابة على تلك المشكلة الاجتماعية أكثر منه!

وبينما كان يبتعد خارجاً إلى الشارع توقّف فجأة وأخرج دفتر ملاحظاته وسجّل اسماً وعنواناً. لم يكُن لديه وقت لإضاعته فذهب إلى كشك هاتف؛ كان ينوي المخاطرة مهما كانت النتيجة وبات مصمّماً على المضي خلف حدسه!

❊ ❊ ❊

الفصل السادس عشر

كانت خزانة الملابس هي ما أزعج الكاهن بينيفاذر، أزعجته قبل أن يستطيع أن يصحو من نومه تماماً لأنها لم تكُن في مكانها المعتاد، ثم نسيها وغرق في النوم من جديد. ولكن عندما فتح عينيه مرّة أخرى كانت الخزانة لا تزال في المكان الخطأ. كان يستلقي على جانبه الأيسر مواجهاً النافذة، وكان يجب أن تكون خزانة الملابس هناك بينه وبين النافذة على يسار الحائط، ولكنها لم تكُن كذلك بل كانت على اليمين. لقد أقلقه ذلك، أقلقه كثيراً لدرجة جعلَته يشعر بالتعب. كان مدركاً أن رأسه يؤلمه كثيراً، وفوق ذلك كانت خزانة الملابس في المكان الخاطئ! عند هذه النقطة أغمض عينَيه مرّة أخرى.

كان في الغرفة ضوء أكثر عندما استيقظ بعدها ولكنه لم يكُن ضوء النهار، فقط ضوء الفجر الباهت. قال الكاهن بينيفاذر لنفسه فجأة وهو يحل مشكلة خزانة الملابس: يا إلهي، يا لي من غبيّ! بالطبع أنا لست في منزلي.

تحرك بنشاط. لا، لم يكُن ذلك سريره، لقد كان في مكان

آخر غير منزله، لقد كان... أين كان؟ قال لنفسه: نعم، بالطبع، لقد ذهبت إلى لندن، أليس كذلك؟ أنا في فندق بيرترام و... ولكن لا، أنا لست في فندق بيرترام، ففي فندق بيرترام كان سريري يقابل النافذة، هذا الاحتمال خطأ أيضاً. يا إلهي! أين يمكن أن أكون؟

ثم تذكّر أنه كان ذاهباً إلى لوسيرن وقال لنفسه: بالطبع، أنا في لوسيرن.

بدأ يفكر في البحث الذي كان عليه أن يقدمه في المؤتمر. ولكنه لم يفكّر فيه طويلاً؛ فالتفكير في بحثه بدا وكأنه يسبّب له الصداع، ولذلك عاد إلى النوم من جديد.

في المرة التالية التي استيقظ فيها كان رأسه قد ارتاح كثيراً، وأيضاً كان في الغرفة ضوء كثير. لم يكُن في البيت ولا في فندق بيرترام، وكان متأكداً من أنه لم يكُن في لوسيرن؛ لم تكُن تلك غرفة فندق أصلاً. تفحّصها جيداً عن قرب، بدت له غرفة غريبة تماماً وفيها أثاث قليل جداً هو نوع من الخزانة ونافذة مغطّاة بستائر مزيّنة بالورد يدخل الضوء من خلالها وكرسي وطاولة وخزانة ذات أدراج. كان ذلك كل شيء فيها، فقال الكاهن بينيفاذر: يا إلهي، هذا غريب جداً! أين أنا؟

فكّر في أن ينهض لكي يتحقق من ذلك، ولكنه عندما جلس على سريره عاوده الصداع فاستلقى وهو يقول لنفسه: لا بد أنني كنت مريضاً. نعم، لقد كنت مريضاً دون شك.

وفكر برهة ثم قال لنفسه: بل أعتقد أنني ما زلت مريضاً، قد يكون زكاماً. يقولون إن الزكام يأتي فجأة غالباً، ربما... ربما أُصبتُ

به في أثناء العشاء في نادي أثينيوم. نعم، أذكر أنني تناولتُ عشائي في نادي أثينيوم.

كان في المكان أصوات حركة. ربما أخذوه إلى مستشفى، ولكن لا، لم يظنّ ذلك المكان مستشفى مع ذلك الضوء الشديد. يبدو وكأنها غرفة نوم رديئة صغيرة سيئة التأثيث. استمرّت أصوات الحركة في حين جاء من الأسفل صوت يقول: وداعاً يا عزيزي، هذا المساء لحم مقدَّد وبطاطا مهروسة.

فكّر الكاهن بينيفاذر فيما سمع وقال لنفسه: لحم مقدَّد وبطاطا مهروسة؟

كانت الكلمات سائغة على نحو ما فقال لنفسه: أظن أنني جائع.

فُتح الباب في تلك اللحظة ودخلت امرأة متوسطة العمر، ثم ذهبت نحو الستائر وسحبتها إلى الخلف قليلاً والتفتت إلى السرير وقالت: ها قد استيقظتَ. كيف تشعر الآن؟

قال الكاهن بينيفاذر بوهن: في الحقيقة لست متأكداً تماماً.

- هذا متوقَّع؛ لقد كنتَ في حالة سيئة تماماً وقد ضُربتَ ضربة شديدة، هذا ما قاله الطبيب. يا لسائقي السيارات هؤلاء! لا يتوقفون حتى بعد أن يصدموك!

- هل حدث لي حادث؟ حادث سيارة؟!

قالت المرأة: هذا صحيح. لقد وجدناك على جانب الطريق

عندما عدنا إلى البيت، وقد ظننّاك سكران في البداية، ثم قال زوجي إنه قد يكون حادثاً ومن الأفضل أن يُلقي نظرة. على أية حال فقد كنتَ هناك كجذع الشجرة، ولذلك قال زوجي إننا لا نستطيع أن نتركك هكذا، ثم حملك إلى هنا كما ترى.

قال الكاهن بينيفاذر بضعف وهو مأخوذ بهذه المفاجآت إلى حدّ ما: يا له من فاعل خير طيّب!

- لقد رأى أنك رجل دين فقال إنك جدير بالاحترام، ثم قال إنه من الأفضل أن لا نستدعي الشرطة؛ رجال الدين لا يحبون ذلك، هذا إذا كنت سكران، رغم أنك لم تكن تفوح منك رائحة خمر. بعد ذلك أحضرنا الدكتور ستوكس ليفحصك، إنه رجل لطيف جداً وقد كان طيّباً بما فيه الكفاية، وطلبنا منه أن يحضر ليلقي نظرة عليك فقال إنك لا تعاني من أيّ أذى حقيقي، كما قال إن الأمر مجرَّد ارتجاج بسيط في الدماغ وإن كل الذي كان علينا فعله هو أن نجعلك تستلقي على ظهرك بهدوء في غرفة مظلمة. قال: "إن لم تمانعوا فلن أعطي رأياً طبياً أو أيّ شيء من هذا القبيل؛ هذا عمل غير رسمي، ليس لي الحق في أن أصف له دواء أو أن أقول أيّ شيء، وأقول إنه يجب عليكم أن تبلغوا الشرطة بذلك، ولكن إذا كنتم لا تريدون ذلك فهذا يرجع لكم. أعطوا الرجل المسكين فرصة". هذا ما قاله، وأرجو أن تعذرني إذا كنت أتكلم دون احترام. إنه شخص خشن وسريع الكلام، أقصد الطبيب بالطبع. والآن ما رأيك في قليل من الحساء أو بعض الخبز الحارّ والحليب؟

قال الكاهن بينيفاذر بوهن: أيّ شيء من ذلك سيكون على الرحب والسعة.

عاد إلى وسادته مفكّراً في أمر ذلك الحادث. إذن فقد كان الأمر حادثاً؟ ولكنه لم يستطع أن يتذكر شيئاً عنه! وبعد بضع دقائق عادت تلك المرأة الطيّبة وهي تحمل صينية عليها طبق يتصاعد منه البخار وقالت: سوف تشعر بتحسّن بعد أن تتناول هذا. سأضع وسادة أخرى وراء ظهرك. ها هي، هل هذا جيد؟

سألها: ولكن أين نحن؟ أقصد أين أنا؟ أين هذا المكان؟

قالت المرأة: ميلتون سينت جون.

- ميلتون سينت جون؟ لم أسمع بهذا الاسم من قبل.

- آه، إنه ليس بالمكان الكبير، قرية صغيرة فقط.

- لقد كنتِ لطيفة جداً، هل لي أن أسألك عن اسمك؟

- السيدة ويلينغ، إيما ويلينغ.

قال الكاهن: أنت لطيفة جداً، ولكن هذا الحادث... أنا ببساطة لا أستطيع أن أتذكره.

- لا تفكّر في ذلك الآن. سوف تتذكر كل شيء عندما تشعر بتحسّن.

قال الكاهن بينيفاذر في نفسه بنبرة تعجّب: ميلتون سينت جون! الاسم لا يعني لي شيئاً على الإطلاق. يا له من أمر غريب!

* * *

الفصل السابع عشر

رسم السيد رونالد غريفز قطة على ورق دفتره ثم نظر إلى كبير المحقّقين الضخم البدين ديفي الذي يجلس مقابله ورسم كلباً ضخماً ثم قال: لاديسلوس مالينوسكي؟ ربما، ألديك أيّ إثبات؟

- لا، ولكنه احتمال مناسب، أليس كذلك؟

- إنه متهوّر عديم الإحساس. لقد ربح بطولة العالم ولكنه أصيبَ في حادث خطير منذ عام. له سمعة سيئة مع النساء، مصادر دخله مشكوك فيها، ينفق الأموال هنا وفي الخارج بإسراف، يذهب دائماً إلى أوروبا... هل تظن أنه هو الرجل الذي يقف وراء عمليات السطو والنهب المنظّمة هذه؟

- لا أظن أنه هو المخطّط ولكني أظن أنه مشترك معهم.

- لماذا؟

- أحد الأسباب أنه يقود سيارة من نوع مرسيدس أوتو، سيارة سباق، وقد شوهدَت سيارة بمثل هذه الأوصاف قرب بدهامبتون في صباح يوم سرقة قطار البريد. الأرقام مختلفة ولكن هذا شيء معتاد، الرقم مختلف قليلاً وليس اختلافاً شديداً، «ف أ ن ٢٢٩٩» بدلاً من

«ف أ ن ٢٢٦٦»، وليس هناك الكثير من سيارات المرسيدس أوتو من ذلك النوع في المنطقة، يوجد عند الليدي سيدجويك واحدة وأيضاً عند اللورد الشاب ميرفل.

- أنت لا تظن أن مالينوسكي هو الذي يدير هذا الأمر، أليس كذلك؟

- بل أعتقد أنه توجد عقول أفضل منه مسؤولة عن العمل، ولكنه مشترك فيه. لقد راجعت ملفّاتنا. خذ مثلاً عملية اقتحام بنك ميدلاند آند وست لندن. لقد تصادف أن وقفَت ثلاث شاحنات صغيرة مقفَلة (فقط مصادفة!) لتغلق طريقاً معيّناً، وكانت في مكان الحادث سيارة مرسيدس أوتو استطاعت أن تهرب بسبب ذلك الحاجز.

- لقد تمّ إيقافها فيما بعد.

- أجل، وقد برئت ساحتها، لا سيما وأن الأشخاص الذين أبلغوا عنها لم يكونوا متأكدين من صحة رقم لوحتها. لقد ذكروا أن رقمها كان «ف أ م ٣٣٦٦» في حين أن سيارة مالينوسكي مسجّلة برقم «ف أ ن ٢٢٦٦»، نفس الطريقة تماماً.

- وأنت تصرّ على أن للموضوع علاقة بفندق بيرترام. لقد نقبوا لك عن شيء بخصوص فندق بيرترام.

ضرب الأب على جيبه وقال: المعلومات هنا. إنها شركة مسجّلة بصورة صحيحة: الرصيد، رأس المال المدفوع، المديرون... لكن هذا لا يعني شيئاً؛ هذه الأمور المالية كلها لغط لا يُفضي إلى شيء،

تماماً كمجموعة من الثعابين يبلع بعضها بعضاً! شركات وشركات قابضة تملكها... أمر يسبب الدوار.

- ماذا أصابك أيها الأب؟ هذه هي طريقة إدارة الأعمال على نطاق واسع في لندن، وهي طريقة متأثرة بنظام الضرائب.

- ما أريده هو المعلومات الحقيقية. إذا أعطيتَني تصريحاً -يا سيدي- فسوف أذهب لأقابل شخصاً مهماً.

حدّق السيد رونالد غريفز إليه وقال: ماذا تقصد بالضبط بقولك: «شخصاً مهماً»؟

ذكر الأب اسماً ما فبدا السيد غريفز منزعجاً وهو يقول: لا أعرف، ولكنني لا أعتقد أننا نجرؤ على الاتصال به.

- يمكن أن يساعدنا ذلك كثيراً.

ساد الصمت وتبادل الرجلان نظرة طويلة. بدا الأب بارداً وهادئاً وصابراً، وفي النهاية استسلم السيد غريفز وقال: يا لك من شيطان عجوز عنيد يا فريد! حسناً، كما يحلو لك؛ اذهب وأزعج المسؤولين المساندين لكبار الرأسماليّين الدوليين في أوروبا.

قال ديفي: إنه سيعرف، سيعرف. وإذا لم يعرف فسوف يستطيع أن يكتشف ذلك بضغطة زر على طاولته أو بإجراء اتصال هاتفيّ واحد.

- لست أدري إن كان هذا سيسعده.

- من المحتمَل أن يضايقه الأمر، ولكنه لن يأخذ الكثير من

وقته، وأنا لا بدّ لي من سلطة أعتمد على وجودها ورائي.

- أنت جادّ في حديثك عن هذا المكان فندق بيرترام، ولكن ما الذي حصلتَ عليه حتى تستمرّ في بحثك؟ إنه يسير بصورة حسنة وعملاؤه محترَمون ولا توجد مشكلات من ناحية قوانين الترخيص.

- أعرف، أعرف، لا مشروبات ممنوعة، لا مخدّرات، لا قمار، لا إيواء لمجرمين... كل شيء نظيف كالثلج؛ فقط سيّدات عجائز من عهد الملكة فكتوريا أو الملك إدوارد وعائلات أرستقراطية وسائحون من بوسطن أو ما شابهها من أماكن راقية من الولايات المتحدة الأمريكية... ورغم ذلك فقد شوهد كاهن محترَم من الكنيسة وهو يغادر الفندق في الثالثة صباحاً بطريقة سرّية إلى حدّ ما.

- من الذي رأى ذلك؟

- سيدة عجوز.

- كيف استطاعت رؤيته؟ لماذا لم تكُن نائمة في سريرها؟

- العجائز كلهنّ هكذا يا سيدي.

- أنت لا تتحدث عن... ما اسمه؟ الكاهن بينيفاذر؟

- هذا صحيح يا سيدي، تمّ التبليغ عن اختفائه وكامبل يقوم بالبحث في القضية.

- مصادفة غريبة! لقد جاء اسمه مرتبطاً بحادث السطو على قطار البريد في بيدهامبتون.

- حقاً؟ كيف ذلك يا سيدي؟

- سيدة عجوز أخرى، أو بالأحرى متوسطة العمر... عندما توقف القطار عند تلك الإشارة التي تمّ التلاعب بها استيقظ الكثير من الركّاب من نومهم ونظروا إلى خارج الممر. هذه المرأة التي تعيش في شادمينستر وتعرف الكاهن بينيفاذر قالت إنها رأته وهو يدخل القطار من أحد الأبواب. لقد ظنت أنه خرج لرؤية ما حدث وأنه كان راجعاً إلى القطار، كنا سنتابع الموضوع بسبب التبليغ عن اختفائه.

- دعني أفكّر دقيقة. توقّف القطار في الخامسة والنصف صباحاً، الكاهن بينيفاذر غادر فندق بيرترام بعد الساعة الثالثة صباحاً بوقت قصير... نعم، يمكن أن يحدث ذلك لو أنه ذهب بالسيارة إلى هناك، فلنقُل في... في سيارة سباق.

- إذن فقد عدنا إلى لاديسلوس مالينوسكي!

نظر السيد غريفز إلى الرسومات الموجودة على ورقته وقال: يا لك من كلب شرس يا فريد.

* * *

بعد ذلك بنصف ساعة كان كبير المحقّقين ديفي يدخل مكتباً هادئاً غير مرتَّب، فنهض الرجل الجالس خلف المكتب ومدّ له يده وقال: حضرة كبير المحقّقين ديفي؟ تفضّل بالجلوس، هل لك في قهوة؟

هزّ ديفي رأسه بالنفي وقال بصوت رجل ريفيّ عميق: يجب أن أعتذر عن تضييع وقتك الثمين.

ابتسم السيد روبنسون. كان رجلاً بديناً يرتدي ملابس أنيقة جداً، وكان وجهه أصفر وعيناه داكنتين حزينتين وفمه كبيراً واسعاً، وكان يبتسم كثيراً مُظهِراً أسناناً ضخمة. فكّر كبير المحقّقين ديفي وقال بطريقة ليس لها علاقة بالموضوع: إنها تصلح لأكلك جيّداً.

كانت لهجته الإنكليزية متقَنة لا لكنةَ غريبةً فيها رغم أنه لم يكُن إنكليزياً. وتساءل الأب كما تساءل الكثيرون قبله عن جنسية السيد روبنسون الحقيقية. قال له السيد روبنسون: حسناً، ما الذي أستطيع أن أقدّمه لك؟

قال كبير المحققين ديفي: أريد أن أعرف من الذي يملك فندق بيرترام.

لم يتغير التعبير الذي كان على وجه السيد روبنسون، فلم يظهر أنه فوجئ عند سماعه الاسم ولا حتى أظهر معرفته به بل قال متأملاً: تريد أن تعرف من الذي يملك فندق بيرترام... أظن أنه في شارع بوند المتفرع من البيكاديلي؟

- هذا صحيح يا سيدي.

- لقد أقمتُ هناك ذات مرة. إنه مكان هادئ وإدارته جيّدة.

- أجل، إدارته جيدة جداً.

- تريد أن تعرف من الذي يملكه؟ بالتأكيد هذا يسهل التحقق منه.

كان وراء ابتسامته سخرية باهتة فقال كبير المحقّقين ديفي: تقصد من خلال القنوات المعتادة؟ حسناً.

ثم أخرج قطعة صغيرة من الورق من جيبه وقرأ ثلاثة أسماء أو أربعة، فقال السيد روبنسون: فهمتُ؛ يبدو أنك بذلت جهداً كبيراً، والآن تجيء إليّ.

- إذا كان بين الناس من يعرف فهو أنت يا سيدي.

- في الحقيقة لا أعرف، ولكنْ لديّ طرق في الحصول على المعلومات. المرء لديه...

ثم هزّ كتفيه الضخمتين العريضتين جداً وأضاف: المرء لديه بعض العلاقات.

قال الأب بوجه هادئ: أجل يا سيدي.

نظر السيد روبنسون إليه ثم رفع سماعة الهاتف وقال: سونيا، اطلبي كارلوس.

وانتظر هنيهة ثم تكلم ثانية قائلاً: كارلوس؟

ونطق بسرعة نصف دستة من الجمل بلغة أجنبية لم تكُن واحدة من اللغات التي يعرفها ديفي الذي كان يستطيع أن يتحدث جيّداً باللغتين الإنكليزية والفرنسية، كما كان لديه بعض الإلمام باللغة الإيطالية ويستطيع أن يخمّن معاني بعض الكلمات الألمانية الخاصة بالسيّاح، وكان يميّز الإسبانية والروسية والعربية بالسماع على الرغم أنه لم يكُن يفهمها، ولكن اللغة التي تكلّم بها السيد

روبنسون لم تكُن واحدة منها! وفي تخمين ضعيف جازف بالاعتقاد بأنها يمكن أن تكون تركية أو فارسية أو أرمنية، ولكن حتى هذا لم يكُن متأكداً منه.

وضع السيد روبنسون السمّاعة ثم قال بلطف: لا أظن أننا سننتظر وقتاً طويلاً. أنا مهتمّ كثيراً بالأمر، كنت أنا نفسي أتساءل أحياناً...

بدا على الأب الانتباه الشديد لكلمات السيد روبنسون الذي أكمل قائلاً: أتساءل أحياناً بخصوص فندق بيرترام من الناحية المالية. كثيراً ما أتساءل كيف يمكنه أن يحقق ربحاً! على أيّ حال لم يكُن هذا من شأني على الإطلاق، ولكن المرء يستطيع أن يقدّر...

ثم هزّ كتفيه استهجاناً وأضاف: كرم الضيافة والموظّفون الموهوبون بصورة غير عادية... نعم، كنت أتساءل عن هذا كثيراً.

ونظر إلى الأب قائلاً: هل تعرف كيف ولماذا؟

- لم أعرف بعد، ولكني أنوي ذلك.

قال السيد روبنسون متأملاً: توجد احتمالات متعددة، تماماً كالموسيقى كما تعرف. يوجد عدد صغير من درجات السلّم الموسيقي، ولكن يستطيع الإنسان أن يصنع منها أنغاماً بمليون طريقة مختلفة. لقد قال لي أحد الموسيقيين ذات مرّة إنك لا تستطيع أن تحصل على نفس النغمة مرتين! هذا مثير للاهتمام جداً.

رنّ جرس الهاتف بصوت خفيف فرفع السيد روبنسون السماعة مرّة أخرى وقال: مَن؟ نعم، لقد كنتَ سريعاً جداً! هذا يسعدني،

إنني أفهم. حقاً؟ أمستردام! نعم، آه، شكراً لك، نعم، هلاّ تهجيتَها لي؟ شكراً لك.

وكتب بسرعة بعض الكلمات على ورقة قريبة منه، ثم قال وهو يَقطع الورقة ويمرّرها فوق الطاولة للأب: أرجو أن يفيدك هذا.

قرأ الأب الاسم بصوت مرتفع قائلاً: ويلهيلم هوفمان!

قال السيد روبنسون: سويسري الجنسية على الرغم من أنه لم يولد في سويسرا! له نفوذ واسع في الدوائر البنكية، ورغم أنه يلتزم بالقانون بحزم إلاّ أنه كان وراء العديد من الصفقات المشكوك في أمرها، يعمل في أوروبا فقط وليس في هذا البلد.

- ماذا؟!

قال السيد روبنسون: ولكن له أخ اسمه روبرت هوفمان تاجر ألماس يعيش في لندن... عمله محترَم، زوجته ألمانية، وهو أيضاً له مكاتب في أمستردام وربما كان رجالك يعرفونه. كما قلتُ فهو يتعامل بالألماس بصورة رئيسية ولكنه رجل غنيّ جداً يملك الكثير من الأملاك، وعادة ليست هذه الممتلكات باسمه الشخصي. نعم، إنه وراء الكثير من المشاريع. هو وأخوه هما المالكان الحقيقيان لفندق بيرترام.

نهض كبير المحققين ديفي قائلاً بامتنان: شكراً لك يا سيدي، لا أحتاج إلى القول إنني ممتنّ لك كثيراً، إن ما قمتَ به رائع حقاً.

أضاف ذلك مُظهراً المزيد من الحماسة أكثر من اللازم فسأله السيد روبنسون وهو يبتسم إحدى ابتساماته الكبيرة: من الجميل أن

أعرف. هذه واحدة من ميزاتي، المعلومات... أنا أحب أن أعرف، أليس هذا ما جئتني من أجله؟

قال كبير المحقّقين ديفي: حسناً، نحن نعرف عنك ذلك فعلاً في وزارة الداخلية.

ثم أضاف بلهجة أقرب إلى السذاجة: لقد أنهكت أعصابي من أجل الوصول إليك.

ابتسم السيد روبنسون مرّة أخرى وقال: أنا أراك شخصية ظريفة يا حضرة كبير المحقّقين ديفي، وأتمنى أن توفّق في العمل الذي تقوم به مهما كان.

- شكراً لك يا سيدي، أظن أنني سأحتاج إلى تمنياتك من أجلي. بالمناسبة، هل قلتَ إن هذين الأخوين عنيفان؟

قال السيد روبنسون: بالتأكيد لا، سيكون هذا منافياً لسياستهما تماماً. الأخوان هوفمان لا يستخدمان العنف في مسائل العمل فلديهما وسائل أخرى تخدمهما بصورة أفضل. يمكنني أن أقول لك إنهما يزدادان غِنى سنة بعد سنة، أو هكذا تقول معلوماتي التي حصلت عليها من الدوائر البنكية السويسرية.

قال كبير المحقّقين ديفي: سويسرا مكان مفيد حقاً.

- نعم في الحقيقة، لست أدري ماذا كنّا سنفعل دونها! نحن رجال الأعمال يجب أن نكون ممتنّين جداً لسويسرا، وأنا لي رأي يقدّر أمستردام كثيراً أيضاً.

ونظر إلى ديفي بإمعان ثم ابتسم مرّة أخرى، وبعدها غادر كبير المحقّقين المكان، وعندما عاد إلى مقر عمله وجد رسالة تنتظره مكتوب فيها: «عاد الكاهن بينيفاذر إلى بيته سليماً مُعافى. من الواضح أن سيارة قد صدمته في ميلتون سينت جون وحصل له ارتجاج في المخّ»!

* * *



الفصل الثامن عشر

نظر الكاهن بينيفاذر إلى كبير المحقّقين ديفي والمحقق كامبل، ونظر إليه كبير المحقّقين ديفي والمحقق كامبل. كان الكاهن بينيفاذر قد عاد إلى بيته وكان يجلس على كرسي كبير في مكتبه وخلف رأسه وسادة وقدماه مرتفعتان على مسند وتغطّي أعلى ركبتيه بطانيةٌ توحي بحالته المرَضيّة.

قال بأدب: يؤسفني أن لا أستطيع أن أتذكر أيّ شيء أبداً.

- ألا يمكن أن تتذكر الحادث عندما صدمَتك السيارة؟

- في الحقيقة لا أستطيع.

سأله كامبل بذكاء: إذن كيف عرفت أن سيارة قد صدمتك؟

- المرأة التي هناك، السيدة... السيدة... أظنّها أخبرتني أن اسمها ويلينغ.

- وكيف عرفَت المرأة أن سيارة صدمتك؟

بدا الكاهن بينيفاذر مرتبكاً وهو يقول: يا إلهي! أنت على حق

تماماً، لم تكُن لتستطيع أن تعرف، أليس كذلك؟ أعتقد أنها ظنّت أن ذلك هو الذي حدث.

- وأنت في الحقيقة لا تستطيع أن تتذكر أيّ شيء. كيف حدث أن كنتَ في ميلتون سينت جون؟

- ليس عندي أيّ فكرة، حتى إن الاسم غير مألوف لديّ.

كان سخط المحقق كامبل يزداد ولكن كبير المحقّقين ديفي قال بصوته الهادئ الطبيعي: أخبرنا فقط عن آخر شيء تتذكره يا سيدي.

التفت الكاهن بينيفاذر إليه بارتياح بعد أن جعلته تشكّكات كامبل الجافّة متوتراً وقال: كنت ذاهباً إلى لوسيرن لحضور مؤتمر، أخذت سيارة أجرة إلى المطار، مطار كنسينغتون.

- حسناً، وبعدها؟

- هذا كل شيء، لا أستطيع أن أتذكر أيّ شيء آخر. الشيء الذي أتذكره بعدها هو خزانة الملابس.

سأله المفتّش كامبل: أيّ خزانة ملابس؟

- لقد كانت في المكان الخطأ.

كان كامبل يعتزم الاستمرار في سؤاله عن خزانة الملابس التي كانت في المكان الخطأ لكن كبير المحقّقين قاطعه قائلاً: هل تتذكر الوصول إلى المطار يا سيدي؟

قال الكاهن بينيفاذر بملامح رجل لديه شكّ كبير في الأمر: أظن ذلك.

- ثم طرتَ إلى لوسيرن فوراً؟

- لست أدري حقاً! لا أتذكر أيّ شيء عن ذلك إذا كان هذا صحيحاً.

- هل تتذكر عودتك إلى فندق بيرترام في تلك الليلة؟

- لا.

- هل تتذكر فندق بيرترام؟

- بالطبع، لقد كنت أقيم هناك. فندق مريح جداً، لقد حجزت غرفتي هناك.

- هل تتذكر سفرك بالقطار؟

- قطار؟ لا، لا أستطيع أن أتذكر قطاراً.

- هل تتذكر عملية اقتحام؟ لقد سُرق القطار، بالتأكيد تستطيع أن تتذكر هذا أيها الكاهن بينيفاذر.

قال الكاهن: كان يجب أن أتذكر، أليس كذلك؟ ولكن بطريقة ما...

ثم قال بشيء من الاعتذار: بطريقة ما لا أتذكر.

قالها وهو ينقل بصره من ضابط إلى آخر بابتسامة لطيفة رقيقة فقال كامبل: إذن فروايتك هي أنك لا تتذكر شيئاً بعد ذهابك في سيارة أجرة إلى المطار حتى استيقظت في كوخ عائلة ويلينغ في ميلتون سينت جون.

أكّد الكاهن قائلاً: لا يوجد شيء غير عادي؛ هذا يحدث كثيراً في حالات الارتجاج الدماغي.

- ماذا ظننت أنه حدث لك عندما استيقظت؟

- كنت مصاباً بالصداع وفي الحقيقة لم أستطع أن أفكّر، ثم بالطبع بدأت أتساءل أين كنت، وقد شرحَت السيدة ويلينغ ذلك وأحضرت لي بعض الحساء الممتاز. كانت لطيفة، كانت لطيفة جداً في الحقيقة.

قال كامبل: كان يجب عليها أن تبلغ الشرطة عن الحادث، وبعدها يمكن أن تُنقَل إلى مستشفى وتتمّ العناية بك هناك.

اعترض الكاهن بشجاعة قائلاً: لقد اعتنت بي بصورة جيدة، فأنا أفهم أنه عند حدوث ارتجاج دماغي لا تستطيع أن تفعل شيئاً للمريض غير المحافظة عليه هادئاً.

- لو أنك تتذكر أيّ شيء آخر أيها الكاهن بينيفاذر فأرجو أن تقوله.

قاطعه الكاهن: يبدو أنني فقدت أربعة أيام كاملة من حياتي! هذا مثير للفضول، إنه مثير للفضول بالفعل، حتى إنني أتساءل كثيراً أين كنت وماذا كنت أفعل! أخبرني الطبيب أن ذاكرتي كلها ستعود لي، ولكنها قد لا تعود... من المحتمَل أنني لن أعرف أبداً ماذا حدث لي خلال هذه الأيام.

وارتعشت جفونه وهو يقول: اعذروني، أعتقد أنني متعَب.

قالت السيدة ماك كري التي كانت تحوم قرب الباب جاهزة للتدخل إذا رأت ذلك ضرورياً: هذا يكفي تماماً الآن.

ثم تقدمت ناحيتهم وقالت بحزم: يقول الطبيب إنه ينبغي عدم إزعاجه.

نهض الشرطيان وتحركا ناحية الباب فقامت السيدة ماك كري بمرافقتهما إلى الصالة مثل كلاب الرعي المخلصة، وهمس الكاهن بشيء فالتفت كبير المحقّقين ديفي الذي كان آخر واحد يخرج من الباب في الحال وقال: ما هذا؟

ولكن عينَي الكاهن كانتا مغلقتين، وقال كامبل في حين كانا يغادران البيت بعد رفضهما لعرض السيدة ماك كري الفاتر بشرب شيء منعش: ماذا تظن أنه قال؟

قال الأب متأملاً: أعتقد أنه قال: «أسوار أريحا»!

- ماذا يمكن أن يعني بذلك؟

- تبدو كأنها عبارة من الكتاب المقدس.

- هل تظن أنه سيعرف؟ كيف ذهب ذلك العجوز من شارع كرومويل إلى قرية ميلتون سينت جون؟

قال ديفي موافقاً: لا يبدو أننا سنحصل منه على الكثير.

- تلك المرأة التي قالت إنها رأته في القطار بعد الاقتحام، هل من الممكن أن تكون على حق؟ هل يمكن أن يكون متورطاً بأعمال السطو هذه بطريقة ما؟ يبدو هذا مستحيلاً؛ إنه رجل عجوز ومحترَم

جداً. لا تستطيع أن تشكّ أن كاهناً من كاتدرائية شادمينستر متورط في عملية سطو على قطار.

قال الأب متأملاً: نعم، لا يمكنني تصوّر هذا، سيكون هذا كمن يتصور أن السيد القاضي لدغروف متورط في عملية اقتحام البنك.

نظر كامبل إلى ضابطه الأعلى بفضول ولكنه لم يعلّق.

* * *

انتهت الرحلة إلى شادمينستر بلقاء قصير غير مفيد مع الدكتور ستوكس. كان الدكتور ستوكس عدوانياً وغير متعاون ووقحاً. قال لهما: أنا أعرف عائلة ويلينغ منذ فترة، لقد كانوا شبه جيران لي. لقد أخذوا رجلاً عجوزاً من الطريق لم يكونوا يعرفون إن كان سكران أم مريضاً، وطلبوا منّي أن أفحصه فأخبرتهم أنه لم يكُن سكران وأن حالته سببها ارتجاج في الدماغ.

- وهل عالجتَه أنت بعد ذلك؟

- لا، لم أعالجه ولم أصف له دواء أو أسهر عليه. أنا لست طبيباً، كنت في السابق طبيباً ولكني لست طبيباً الآن. لقد أخبرتُهما أن الذي عليهما أن يفعلاه هو الاتصال بالشرطة، وسواء أفعلا أم لم يفعلا فهذا ليس من شأني. إنهما مصابان بشيء من البلادة ولكنهما لطيفان.

- ألم تفكر في الاتصال بالشرطة بنفسك؟

- لم أفعل؛ أنا لست طبيباً وليست لي علاقة بالأمر. لقد أخبرتُهم بأن يُبقوه هادئاً ومستلقياً على ظهره إلى أن يأتي الشرطة.

ثم حملق إليهما، وكان عليهما أن يغادرا المكان عند هذا الحدّ وهما حانقان.

* * *

الفصل التاسع عشر

كان السيد هوفمان رجلاً ضخماً قويّ الجسم كأنه منحوت من الخشب! كان وجهه جامد التعبير لدرجة تثير التساؤل إن كان قادراً على التفكير أو الإحساس بالعاطفة! بدا ذلك مستحيلاً، ولكن سلوكه كان سليماً تماماً.

نهض وانحنى ومدّ يداً بدت كأنها وتد وقال: كبير المحقّقين ديفي؟ لقد مضت سنوات كثيرة منذ تشرفت بلقائك سابقاً، أظن أنك لا تتذكر.

- بالطبع أتذكر قضية الألماس في آروتبيرغ يا سيد هوفمان، لقد كنتَ شاهد إثبات، شاهداً ممتازاً ولم يستطع الدفاع أن يهزّك.

- لست من النوع الذي يمكن هزّه بسهولة.

بالفعل لم يبدُ كرجل يمكن هزّه بسهولة. واستمر في كلامه قائلاً: ماذا يمكنني أن أفعل من أجلك؟ أرجو أن لا توجد مشكلات، أنا أريد دائماً أن تسير أموري على خير ما يُرام مع الشرطة، إنني معجب جداً بجهاز شرطتكم الرائع.

- لا، لا توجد مشكلات، نحن نريد منك أن تؤكّد لنا معلومة صغيرة فقط.

- سأكون سعيداً بمساعدتكم بأيّ طريقة أستطيعها، وكما قلتُ فإنني معجَب بشرطة لندن؛ لديكم مجموعة رائعة من الرجال كلهم أمانة وعدل واستقامة.

قال الأب: أنت تجعلني أشعر بالحرج.

- أنا في خدمتك، ما الذي تريد أن تعرفه؟

- أردت فقط أن أسألك أن تعطيني بعض المعلومات عن فندق بيرترام.

لم يتغيّر وجه السيد هوفمان، فقط أصبح مسلكه العام أكثر جموداً ممّا كان عليه من قبل، كان هذا كل شيء. قال: فندق بيرترام؟

كان صوته يسأل وهو متحيّر قليلاً؛ لعلّه لم يسمع قط بفندق بيرترام أو أنه لم يستطع أن يتذكر تماماً إن كان يعرف فندق بيرترام أو لا يعرفه. قال له ديفي: لك ارتباط به، أليس كذلك يا سيد هوفمان؟

حرّك السيد هوفمان كتفيه وقال: يوجد الكثير من الأشياء التي لا يستطيع المرء أن يتذكرها كلها، وأنا أعمالي كثيرة جداً جداً حتى إنها تجعلني مشغولاً جداً.

- أعرف أن لديك الكثير من الأعمال يا سيد هوفمان.

ابتسم السيد هوفمان ابتسامة باردة جامدة وقال: أجل، أدير

الكثير من الأعمال، أليس هذا ما تعتقده؟ وتعتقد أيضاً أن لي صلة بفندق بيرترام هذا، أليس كذلك؟

- لن نقول صلة، ففي الحقيقة أنت تملكه، أليس كذلك؟

قال الأب ذلك بهدوء، وفي هذه المرة بدا السيد هوفمان متصلباً قطعاً ثم قال بهدوء: هل لي أن أسألك من الذي أخبرك بذلك؟

فقال كبير المحقّقين ديفي مبتهجاً: حسناً، هذا صحيح، أليس كذلك؟

ثم أضاف: إنه مكان جميل جداً يستحقّ امتلاكه، وفي الحقيقة لا بدّ أن تفتخر به كل الفخر.

- آه، نعم، ولكنني لم أستطع أن أتذكر للحظة قصيرة، فكما ترى...

وابتسم ثم أضاف: أنا أمتلك الكثير من العقارات في لندن وهي استثمار جيد، أقصد العقارات، وإذا طُرح شيء للبيع في السوق واعتقدت أنه في وضع جيد وكانت هناك فرصة لشرائه بسعر رخيص اشتريته على الفور.

- وهل كان فندق بيرترام رخيصاً؟

قال السيد هوفمان وهو يهزّ رأسه: كان حاله متدهوراً جداً.

قال الأب: حسناً، ها هو يقف على قدميه الآن. لقد كنت هناك أمس فقط وذُهلتُ كثيراً بالجوّ الموجود هناك! الضيوف العجائز

اللطفاء، الراحة التامة، مرافق على الطراز القديم، لا صخب، الكثير من الرفاهية دون أن يبدو كذلك...

قال السيد هوفمان موضّحاً: أنا شخصياً أعرف القليل جداً عنه فهو مجرّد واحد من استثماراتي المتعددة، ولكنني أعتقد أنه يعمل جيداً.

– أجل، يبدو أنك قد عيّنتَ رجلاً من الدرجة الأولى ليديره. ما اسمه؟ همفريز؟ نعم، همفريز.

– إنه رجل ممتاز وأنا أترك له كل شيء، فقط أنظرُ إلى أوراق الميزانية مرّة في العام لأرى إن كان يعمل جيّداً.

– لقد كان المكان مليئاً بأصحاب الألقاب والسياح الأمريكيين الأغنياء أيضاً.

وهزّ رأسه متأملاً ثم أضاف: يا لها من مجموعة رائعة!

سأله السيد هوفمان: لقد قلتَ إنك كنت هناك بالأمس، فأرجو أن تكون زيارتك له غير... غير رسميّة.

– ليس بالشيء المهم، أردت فقط أن أستوضح لغزاً صغيراً.

– لغزاً! في فندق بيرترام؟!

– هذا ما يبدو، يمكنك أن تسميه «قضية اختفاء رجل دين».

– هذه مزحة، إنها من تعبيرات شيرلوك هولمز.

– رجل الدين هذا خرج من الفندق مساء أحد الأيام ولم يشاهَد بعدها قط.

– هذا غريب، ولكن مثل هذه الأشياء تحدث. أنا أتذكر نبأ مثيراً جداً منذ سنوات طويلة، طويلة جداً، نبأ عن كولونيل اسمه... دعني أتذكّر اسمه. نعم، الكولونيل فيرجسون. أظن ذلك، كان أحد العاملين في بلاط الملكة ماري، خرج من ناديه ذات ليلة وأيضاً لم يشاهَد بعدها قط.

قال الأب وهو يتنهد: الكثير من هذه الاختفاءات إرادية بالطبع.

– أنت تعرف أكثر مني عن ذلك يا عزيزي المحقق. أرجو أن يكونوا قد قدّموا لك كل المساعدة في فندق بيرترام؟

قال الأب مؤكّداً: كانوا في منتهى اللطف، ولا سيما الآنسة غورينج. أظن أنها تعمل معك منذ وقت طويل؟

– ربما، في الحقيقة لا أعرف إلاّ القليل جداً عن ذلك؛ في الحقيقة أنا لا أتدخل شخصياً في هذه الأمور.

وابتسم لتلطيف الجوّ ثم أضاف: لقد فوجئتُ بأنك تعرف أن هذا الفندق ملكي.

لم يكن ذلك سؤالاً، ولكن كان في عينيه بعض القلق مرّة أخرى، وهو أمر لاحظه الأب دون أن يبدو عليه أنه لاحظه ثم قال: التشعّبات التي تحدث في عالم الأعمال في لندن تشبه المنشار الضخم شديدة التعقيد، وهي تسبّب لي الصداع إذا وجب عليّ التعامل مع تلك الناحية من الأمور. فهمتُ أن شركة ميفير هولدنغ تراست (أو أن اسماً يشبه هذا الاسم) هو المالك المسجّل للفندق،

وهذه الشركة تمتلكها شركة أخرى وهكذا وهكذا... ولكن واقع الأمر في هذه المسألة هو أن الفندق ملك لك، هكذا ببساطة. أنا على صواب، أليس كذلك؟

اعترف السيد هوفمان رغماً عنه حانقاً قائلاً: بلى، يمكنك أن تقول إنني أنا وزملائي الشركاء نملكه.

- زملاؤك الشركاء! ومن يمكن أن يكونوا؟ أعتقد أنهم أنت وأخ لك فقط، أليس كذلك؟

- أخي ويلهيلم مرتبط معي في هذا المشروع، يجب أن تعرف أن فندق بيرترام هو مجرّد جزء من سلسلة من الفنادق المتنوّعة والمكاتب والأندية وعقارات أخرى في لندن.

- هل معكما أيّ شركاء آخرون؟

- اللورد بومفريت وأبل ايزاكستاين.

وفجأة تحول صوت هوفمان إلى صوت حادّ وأضاف قائلاً: وهل تريد أن تعرف كل هذه الأشياء فقط لأنك تنظر في قضية رجل الدين المختفي؟!

هزّ الأب رأسه نافياً وبدا معتذراً وهو يقول: أعتقد أنه مجرّد فضول في الحقيقة، فالنظر في قضية اختفاء رجل الدين هو الذي قادني إلى فندق بيرترام، ولكن بعد ذلك صرت مهتماً بـ... أرجو أن تفهم قصدي، أحياناً تجد شيئاً يؤدي بك إلى شيء آخر، أليس كذلك؟

- بلى، أعتقد أن هذا ممكن، والآن؟

وابتسم مضيفاً: هل تمّ إشباع فضولك؟

- لا يوجد شيء يضاهي المجيء إلى أصل الموضوع عندما تبحث عن معلومات، أليس كذلك؟

قال الأب ذلك بلطف ثم نهض واقفاً وقال: شيء واحد فقط أريد أن أعرفه في الحقيقة، ولا أظن أنك ستخبرني به.

ردّ هوفمان بصوت يملؤه الحذر: ما هو يا حضرة كبير المحقّقين؟

- من أين يحصل فندق بيرترام على موظّفيه؟ إنهم رائعون! ذلك الرجل... ما اسمه؟ نعم، هنري، ذلك الرجل الذي يبدو كالأرشيدوق أو رئيس الأساقفة... إنه يقدّم لك الشاي وفطائر الموفينيه، إنها فطائر موفينيه رائعة جداً! تجربة لا تُنسى.

نظر هوفمان لحظة إلى امتلاء جسم الأب نظرة استهجان وقال: أنت تحب فطائر الموفينيه مع الكثير من الزبد، أليس كذلك؟

- يمكنك أن ترى أنني أحب ذلك. حسناً، يجب أن لا أشغلك، أظن أنك مشغول بشدّة في الفوز بالمناقصات أو شيء من هذا القبيل.

- آه، تظاهرك بالجهل بكل هذه الأمور يروق لك. حسناً، أنا لست مشغولاً؛ أنا لا أترك العمل يشغلني كثيراً لأن ولعي بالعمل قليل ومتعي في الحياة متواضعة، أعيش ببساطة وباستمتاع وأهوى تربية الأزهار وقضاء كثير من الوقت مع عائلتي التي أحبها جداً.

- يبدو هذا مثالياً، أتمنى أن أستطيع العيش مثلك.

ابتسم السيد هوفمان ونهض متثاقلاً لمصافحته قائلاً: أرجو أن تجد رجل الدين المختفي قريباً جداً.

- آه، لقد أصبح الوضع على ما يرام بالفعل. أنا آسف لأنني لم أوضّح لك باستفاضة؛ لقد ظهر! إنها قضية مخيّبة للآمال في الحقيقة، لقد حدث له حادث سيارة وأصيب بارتجاج في الدماغ.

مضى الأب إلى الباب ثم التفت وسأل: بالمناسبة، هل الليدي سيدجويك من الشركاء معكم؟

- الليدي سيدجويك؟

فكّر هوفمان برهة قصيرة ثم قال: لا، ولماذا تكون شريكة معنا؟

- حسناً، يسمع المرء الكثير من الأشياء. هل هي مجرّد مساهمة؟

- نعم.

- حسناً، وداعاً يا سيد هوفمان وشكراً جزيلاً لك.

* * *

عادَ الأب إلى اسكتلنديارد وذهب من فوره إلى السيد رونالد غريفز وقال له: الأخوان هوفمان هما اللذان يملكان فندق بيرترام.

- ماذا؟ هذان الوغدان!

- نعم.

- لقد أبقيا على الأمر سرّاً.

- نعم، ولم يكُن روبرت هوفمان سعيداً بمعرفتنا لذلك، لقد كانت صدمة له.

- ماذا قال؟

- حاول بطريقة خفيّة إلى حدّ ما أن يعرف كيف اكتشفتُ ذلك.

- أحسب أنك لم تتفضّل عليه بتلك المعلومة.

- بالتأكيد لم أفعل.

- ما السبب الذي قدمتَه له من أجل رؤيته؟

- لم أُعطِه أيّ سبب.

- ألم يرَ ذلك غريباً بعض الشيء؟

- لعله فعل ذلك. على أي حال كانت طريقة جيدة للقيام بالمهمة يا سيّدي.

- إذا كان الأخوان هوفمان وراء كل ذلك فإن هذا يفسر الكثير، فهما لا يباليان أبداً بالقيام بأيّ عمل غير شريف. إنهما لا يخططان للجرائم ولكنهما يقومان بتمويلها.

أضاف السيد غريفز: يقوم ويلهيلم بالتعامل مع الأمور البنكية من سويسرا، لقد كان وراء خدعة العملات الأجنبية التي ظهرت بعد الحرب مباشرة. عرفنا عنها ولكننا لم نستطع إثباتها. هذان الأخوان

يسيطران على مبالغ كبيرة من المال وهما يستخدمانه لدعم جميع أنواع المشاريع، بعضها قانوني والبعض الآخر غير قانوني، ولكنهما حذران وهما يعرفان كل أساليب التجارة الملتوية. سمسرة روبرت في الألماس تتمّ بصورة آمنة ونظيفة ولكنها تجعل الصورة موحية. ألماس، مصالح بنكية، عقارات، أندية ومؤسسات ثقافية ومبان إدارية ومطاعم وفنادق... كلها مملوكة في الظاهر بواسطة أشخاص آخرين.

- هل تظن أن هوفمان هو المخطِّط لعمليات السطو المنظَّمة تلك؟

- لا، بل أحسب أن هذين الاثنين يتوليان مسألة التمويل فقط. عليك أن تبحث عن العقل المدبِّر في مكان آخر... ثمة -في مكان ما- عقلٌ من الدرجة الأولى هو المسؤول.

* * *

الفصل العشرون

-١-

هبط الضباب فجأة على لندن في ذلك المساء، فرفع كبير المحقِّقين ياقة معطفه وانعطف ناحية شارع بوند. كان يمشي بطيئاً كمن يفكّر في شيء ما، ولم يبدُ أنه يقصد أي هدف محدّد، ولكن أيّ شخص يعرفه كان سيفهم أن عقله كان متنبهاً تماماً. كان يجوس كالقط الذي يجوس قبل أن تأتي اللحظة المناسبة للانقضاض على فريسته.

كان شارع بوند هادئاً في تلك الليلة وليس فيه سوى القليل من السيارات، أما الضباب فكان قليلاً في البداية حتى كاد أن يتلاشى تقريباً ثم ازداد من جديد. كان صوت حركة المرور من بارك لين قد خفَتَ إلى مستوى صوت حركة المرور الذي يُسمَع في شارع جانبيّ في إحدى الضواحي، معظم الحافلات اختفت من الشارع وكانت بعض السيارات الخاصة فقط تسير من حين لآخر في طريقها بسرعة وعزم.

انعطف كبير المحقِّقين ديفي إلى زقاق غير نافذ وذهب إلى

نهايته ثم عاد مرّة أخرى ثم انعطف ثانية دون هدف كما يبدو، انعطف أولاً إلى طريق ثم إلى طريق آخر. ولكنه لم يكُن يمشي بلا هدف، في الحقيقة كان تجواله كالقطّ يأخذه في دائرة حول مبنى محدَّد، فندق بيرترام.

كان يدرس باهتمام موقعه وماذا يلاصقه من ناحية الشرق والغرب ومن ناحية الشمال والجنوب. تفحّص السيارات التي كانت تقف بجانب الرصيف وتفحّص السيارات التي تقف في الزقاق. تفحص الشارع الخلفيّ بعناية خاصة، ولكن سيارة واحدة أثارت اهتمامه على وجه الخصوص فتوقف وزمّ شفتيه قائلاً لنفسه بهدوء: إذن فأنتِ هنا مرّة أخرى أيتها الجميلة!

تفحص رقم اللوحة وأومأ برأسه قائلاً لنفسه: هذه الليلة رقمك هو «ف أ ن ٢٢٦٦»؟ حسناً.

انحنى إلى أسفل ومرّر أصابعه فوق لوحة الرقم بنعومة ثم أومأ برأسه علامة الموافقة وقال في سرّه: لقد فعلوها بشكل جيّد.

تابع سيره وخرج إلى الطرف الآخر من الشارع الخلفي فانعطف يميناً ثم يميناً مرّة أخرى فخرج إلى شارع بوند من جديد، وعلى بعد نحو خمسة وخمسين متراً من مدخل فندق بيرترام توقّف مرة أخرى وهو يُبدي إعجابه بسيارة سباق أنيقة أخرى قائلاً: إنك جميلة أنت أيضاً ورقم لوحتك هو نفسه الذي رأيته عليك آخر مرة. أظن أن رقم لوحتك هو نفسه دائماً، وهذا يعني...

توقف هنيهة ثم همس: أو هل يجب أن يعني هذا شيئاً؟

رفع بصره ناحية السماء وقال لنفسه: الضباب يتراكم.

خارج باب فندق بيرترام وقف الحاجب الأيرلندي وهو يؤرجح ذراعيه بعنف إلى الأمام وإلى الخلف لكي يُبقي نفسه دافئاً. حيّاه ديفي تحية المساء فقال الحاجب: مساء الخير يا سيدي. يا لها من ليلة بغيضة!

- أجل، لا أظن أن أحداً يريد الخروج هذه الليلة إذا لم يكُن مضطراً إلى الخروج.

فجأة دُفع الباب الدوّار وخرجت منه سيدة متوسطة العمر ثم توقّفت عند العتبة غير واثقة ممّا تريد، فسألها الحاجب: هل تريدين سيارة أجرة يا سيدتي؟

- بل كنت أريد أن أتمشى.

- لو كنتُ مكانك لما فعلت ذلك يا سيدتي؛ هذا الضباب بغيض جداً، وحتى في سيارة أجرة لن يكون الأمر سهلاً.

سألته السيدة متشككة: هل تظن أنك تستطيع أن تجد لي سيارة أجرة؟

- سأبذل جهدي. ادخلي الآن لكي تستدفئي وسوف آتي لأخبرك عندما أحضرها.

ثم تغير صوته وتحول إلى نبرة مقنعة وقال: ما لم تكوني مضطرة يا سيدتي، فلو كنت مكانك لما خرجت هذه الليلة أصلاً.

- يا إلهي! قد تكون على حق، ولكن بعض الأصدقاء

ينتظرونني في تشيلسي. لا أدري ما العمل، قد تصعب العودة إلى هنا. ماذا ترى؟

أخذ مايكل غورمان المسؤولية على عاتقه وقال بصلابة: لو كنت مكانك -يا سيدتي- لدخلت واتصلت بهم بالهاتف؛ فليس طيباً بالنسبة لسيدة مثلك أن تخرج في ليلة ضبابية كهذه.

- حسناً، أنت على حق. سآخذ برأيك.

عادت إلى الداخل فقال ميكي غورمان وهو يلتفت إلى الأب بطريقة توضيحية: يجب أن أعتني بهن؛ الواحدة من هؤلاء العجائز يمكن سرقة حقيبتها وهي تخرج في مثل هذا الوقت من الليل في الضباب وتتجول في منطقة تشيلسي أو وست كنسينغتون أو في أيّ مكان تحاول الذهاب إليه.

قال ديفي: أعتقد أن لديك خبرة جيّدة في التعامل مع السيدات الكبيرات السن.

- أجل، بارك الله في قلوبهن الهَرِمة. وماذا عنك يا سيدي؟ هل تريد سيارة أجرة؟

- لا أظن أنك تستطيع أن تدبر لي سيارة لو أردتها؛ فلا يبدو أن في هذا المكان الكثير من سيارات الأجرة، ولا أستطيع أن ألومهم.

- آه، بل قد أستطيع توفير واحدة من أجلك. يوجد مكان عند الركن حيث تجد سائق سيارة أجرة وقد أوقف سيارته ووقف يدفّئ نفسه ويرتشف مشروباً يقيه شر البرد.

قال الأب وهو يتنهّد: سيارة الأجرة لا تفيدني.

ثم هزّ إبهامه باتجاه فندق بيرترام وقال: عليّ أن أدخل، ثمة عمل أريد القيام به في الداخل.

- حقاً؟ هل هي قضية الكاهن المفقود ذاتها؟

- ليس تماماً؛ فقد تمّ العثور عليه.

حدّق الرجل إليه ثم قال: عُثر عليه! أين؟

- مُلقى في مكان ما وقد أصيب بارتجاج في الدماغ نتيجة لحادث.

- آه، هذا ما يمكن للمرء أن يتوقع حدوثه، فشخص مثله يمكن أن يعبر الشارع دون أن ينظر... أظن ذلك.

- يبدو أن هذا هو ما حدث.

أومأ برأسه علامة على الموافقة ثم اندفع إلى الداخل. لم يكُن في قاعة الفندق الكثير من الناس في تلك الليلة، ورأى الآنسة ماربل تجلس على كرسي قريب من النار، ورأته الآنسة ماربل ومع ذلك لم تُبدِ أيّ علامة تدل على أنها عرفته. ذهب ناحية مكتب الاستقبال، وكالعادة كانت الآنسة غورينج وراء دفاترها. اعتقد أنها كانت حانقة قليلاً لرؤيتها له، كان تعبيرها واهناً ولكنه لاحظه. قال لها: هل تذكرينني يا آنسة غورينج؟ لقد جئتُ إلى هنا أمس.

- نعم، بالطبع أتذكّرك يا حضرة المحقق. هل هناك شيء آخر تريد معرفته؟ هل تريد أن ترى السيد همفريز؟

- لا، شكراً لك. أردت فقط أن ألقي نظرة أخرى على سجلّكم إذا كان هذا ممكناً.

- بالطبع.

ثم دفعت السجل ناحيته ففتحه ونظر في صفحاته متأنّياً وقد أعطى الآنسة غورينج انطباعاً كأنه يبحث عن اسم محدّد، ولكن لم يكُن هذا هو الحال في الحقيقة! كانت عند الأب ميزة تعلمها في وقت مبكر من حياته ثم تطورت لتصبح فناً ماهراً. كان يستطيع أن يتذكر الأسماء والعناوين بذاكرة قوية كأنها صور مطبوعة أمامه، وهذه الصور يمكن أن تبقى واضحة في ذهنه لمدّة يوم أو يومين.

وأخيراً هزّ رأسه وهو يُغلق السجلّ وأعاده إليها قائلاً بصوت مرح: أظن أن الكاهن بينيفاذر لم يأتِ إليكم مرة أخرى؟

- الكاهن بينيفاذر!

- هل عرفتِ أنه قد عاد إلى بيته؟

- لا، في الحقيقة لم يخبرني أحد. أين كان؟

- في مكان ما في الريف. يبدو أنه كان حادث سيارة، وقد التقطه فاعل خير طيّب من الطريق واعتنى به.

- هذا الخبر يسعدني جداً؛ لقد كنتُ قلقة عليه.

- وكذلك أصدقاؤه. في الحقيقة كنت أنظر إذا كان أحدهم يقيم لديكم هنا الآن، رئيس الأساقفة... لا أستطيع أن أتذكر اسمه الآن ولكني سأعرف اسمه إذا رأيته.

قالت الآنسة غورينج تساعده: توملينسون؟ من المفترَض أن يأتي في الأسبوع القادم من ماليزبوري.

قال ديفي: "لا، ليس توملينسون. حسناً، هذا غير مهم". ثم ابتعد عنها.

كان الهدوء يعمّ القاعة في تلك الليلة وكان هناك رجل متوسط العمر يقرأ بحثاً مطبوعاً طباعة رديئة ويكتب -من وقت لآخر- تعليقاً في الهامش بخطّ غير مقروء تقريباً، وبالقرب منه وقف زوجان لا يتبادلان كثيراً من الحديث، وبين الفينة والأخرى كان يتجمّع شخصان أو ثلاثة معاً حول موضوع الأحوال الجوّية ويتناقشون بقلق كيف كانوا سيذهبون هم أو عائلاتهم إلى الأماكن التي يريدون الذهاب إليها: "لقد اتصلت بسوزان ورجوتها أن لا تأتي بسيارتها؛ هذا الجوّ يعني أن الطريق السريع خطير في الضباب"، "يقولون إن الجو أكثر صفاء في المنطقة الوسطى من البلاد"...

لاحظهم كبير المحققين ديفي عندما مرّ دون تعجّل ودون أن يبدو ذلك عن قصد، ووصل إلى هدفه. كانت الآنسة ماربل تجلس قرب النار تلاحظ اقترابه فقال لها: إذن فأنتِ ما زلت هنا يا آنسة ماربل، يسعدني هذا.

- سوف أغادر غداً.

كانت تلك الحقيقة مفهومة ضمناً من وضع جلوسها بطريقة ما؛ فقد جلست بلا استرخاء منتصبةَ الظهر كما يجلس المرء في قاعة المطار أو في غرفة الانتظار في محطة القطارات. كان متأكداً

أن أمتعتها قد رُتّبت في حقائبها باستثناء لوازم الحمّام وملابس النوم التي يمكن إضافتها فيما بعد.

قالت له موضّحة: حانت نهاية عطلتي التي استغرقت أسبوعين.

- أرجو أن تكوني قد استمتعتِ بها.

لم تردّ الآنسة ماربل عليه في الحال بل انتظرت هنيهة ثم قالت: بطريقة ما نعم.

ثم توقفت عن الحديث فسألها: وبطريقة أخرى لا؟

- من الصعب توضيح ما أقصده.

- ألستِ قريبة جداً من النار؟ الجو حارّ هنا، ألا تريدين أن تنتقلي إلى ذلك الركن هناك؟

نظرت الآنسة ماربل إلى الركن الذي أشار إليه ثم نظرت إليه وقالت: أظن أنك محقّ تماماً.

ساعدها على النهوض وحمل حقيبتها اليدوية وكتابها وأجلسها في الزاوية الهادئة التي أشار إليها وقال: هل هذا جيّد؟

- جيد تماماً.

- هل تعرفين لماذا اقترحتُ هذا المكان؟

- لقد اعتقدتُ (وهذا لطف كبير منك) أن الجوّ كان حاراً جداً بالنسبة لي بجانب النار، وإلى جانب ذلك لا أحد يستطيع أن يسمع حديثنا هنا.

- هل لديك أيّ شيء تريدين أن تخبريني به يا آنسة ماربل؟

- لماذا تظن ذلك؟

- لأنك تبدين وكأن عندك شيئاً!

- أنا آسفة لأنني أظهرت ذلك، لم أقصد ذلك صراحة.

- حسناً، ماذا لديك؟

- لا أعرف إذا كان يجب عليّ أن أقول ذلك. أريدك أن تعرف - يا حضرة المفتّش- أنني في الحقيقة لست مولَعة بالتدخل في شؤون الآخرين؛ أنا ضدّ التدخل، وإذا كان مقصوداً فإنه قد يسبّب الكثير من الأذى.

- إنه كذلك بالفعل، يمكنني أن أفهم أنها مشكلة بالنسبة لك.

- أحياناً يرى المرء أشخاصاً يفعلون أشياء تبدو له غير حكيمة، أو بالأحرى خطيرة. ولكن هل له الحقّ في أن يتدخل؟ في العادة لا، هذا ما أظنه.

- هل تتكلمين عن الكاهن بينيفاذر؟

- الكاهن بينيفاذر؟

بدا وكأن الآنسة ماربل فوجئت بما قاله فقالت: لا، يا إلهي! لا، لا شيء يتعلق به، بل الأمر يخصّ فتاة معيّنة.

- حقاً؟! وهل تظنين أنني يمكن أن أقدم المساعدة؟

- لا أعرف، ببساطة لا أعرف. ولكني قلقة، قلقة جداً.

لم يضغط الأب عليها في حديثه، بل جلس هناك يبدو مرتاحاً وساذجاً وتركها تتحدث براحتها. كانت راغبة في أن تبذل جهدها لمساعدته وكان هو مستعداً تماماً لكي يفعل أيّ شيء يستطيعه لمساعدتها أيضاً، ربما لم يكُن مهتماً بالأمر على نحو خاص ولكن -من ناحية أخرى- فالمرء لا يعرف أبداً الحقيقة كاملة.

قالت الآنسة ماربل بصوت منخفض وواضح: يقرأ المرء في الصحف محاضر جلسات المحاكم، جلسات لشبان أو أطفال أو فتيات يحتاجون إلى رعاية وحماية. هذا هو نوع العبارات القانونية في مثل هذه الأحوال... أظن ذلك، ولكنه يمكن أن يعني شيئاً حقيقياً.

- هذه الفتاة التي ذكرتها، هل تشعرين أنها في حاجة إلى رعاية وحماية؟

- نعم، أشعر بذلك.

- هل هي وحيدة في هذا العالم؟

- لا، لا أقصد ذلك. إنها ليست كذلك على الإطلاق، بل هي محمية كثيراً ويُعتنَى بها بصورة جيدة ظاهرياً فقط.

- يبدو هذا مثيراً للاهتمام.

- لقد كانت تقيم في هذا الفندق مع السيدة كاربنتر على ما أعتقد. لقد نظرت في السجلّ لكي أرى الاسم، اسم الفتاة هو إلفيرا بليك.

رفع الأب بصره بملامح سريعة من الاهتمام فقالت: إنها فتاة

رائعة، صغيرة جداً ويُعتنى بها كثيراً، والقيّم عليها هو الكولونيل لاسكومب، وهو رجل لطيف جداً وكبير السن بالطبع، ولكني أخشى كثيراً من هذه السذاجة التامة.

- سذاجة القيّم أم الفتاة؟

- كنت أعني القيّم فأنا لا أعرف عن الفتاة، ولكن أعتقد أنها في خطر فعلاً. لقد التقيت بها مصادفة في متنزّه باترسيا، كانت تجلس في مطعم هناك مع شاب.

- آه، هذا هو الموضوع إذن؟ أظن أنه شخص غير مرغوب، شخص استغلالي أو عاطل أو حتى قاطع طريق.

- إنه رجل وسيم للغاية وليس صغيراً جداً، من المحتمَل أن يكون في الثلاثين من عمره. وهو من نوع من الرجال يُعتبر جذّاباً للنساء، لكن وجهه سيّئ متوحش جارح يشبه الصقر.

قال الأب مهدّئاً: قد لا يكون بهذا السوء الذي يبدو عليه.

- بل إنه أسوأ ممّا يبدو فعلاً، أنا مقتنعة بهذا. وهو يقود سيارة سباق كبيرة.

رفع الأب بصره بسرعة وقال: سيارة سباق!

- نعم، لقد شاهدتُها مرّة أو اثنتين متوقفة بجانب هذا الفندق.

- إنك لا تتذكرين رقمها، أليس كذلك؟

- بل أتذكّره في الحقيقة، وهو «ف أ ن ٢٢٦٦». كانت لي ابنة عمّ...

ثم قصّت عليه الآنسة ماربل قصة ابنة عمّها وختمتها بقولها: هذا هو السبب الذي جعلني أتذكره.

بدا الأب متحيراً فسألته الآنسة ماربل قائلة: هل تعرف من هو؟

قال الأب متأنياً: نعم، إنه نصف فرنسي ونصف بولندي، سائق سباق معروف جداً وكان بطلاً للعالم قبل ثلاث سنوات واسمه لاديسلوس مالينوسكي، وأنت على حقّ تماماً في بعض آرائك عنه؛ فله سمعه سيئة فيما يخص النساء، وهذا يعني أنه ليس صديقاً مناسباً لفتاة صغيرة. ولكن ليس سهلاً أن تفعلي أيّ شيء بشأن أمر من هذا النوع. أظن أنها تقابله خلسة، أليس كذلك؟

- بالتأكيد.

- هل فاتحتِ وصيّها في الموضوع؟

- أنا لا أعرفه حق المعرفة. لقد عرّفتني به بشكل عارض صديقةٌ مشتركة، لكنني لا أحب فكرة الذهاب إليه على سبيل نشر الفضائح. كنت أتساءل إذا كان بإمكانك أن تفعل شيئاً بهذا الخصوص.

- يمكنني أن أحاول. بالمناسبة، أظن أنه سيسرّك أن تعرفي أن صديقك الكاهن بينيفاذر قد عاد إلى بيته سالماً.

- حقاً؟

بدت الآنسة ماربل مفعَمة بالحيوية وهي تقول: أين كان؟

- في قرية اسمها ميلتون سينت جون.

- أمر غريب! وماذا كان يفعل هناك؟ هل تذكّر؟

قال كبير المحقّقين ديفي وهو يضغط حروف كلماته: "من الواضح..." ثم أضاف بطريقة عادية: أنه أُصيب في حادث.

- أيّ نوع من الحوادث؟

- صدمته سيارة فأصيبَ بارتجاج في الدماغ، أو قد يكون ضُرب على رأسه.

- آه، فهمت.

فكرت الآنسة ماربل في العبارة هنيهة ثم سألت: ألم يعرف ماذا ألَمّ به؟

فقال كبير المحقّقين ديفي ضاغطاً حروف كلماته مرة ثانية: "إنه يقول..." ثم عاد يقول بأسلوبه العادي: إنه لا يعرف أيّ شيء.

- هذا غريب جداً!

- أليس كذلك؟ آخر شيء يتذكّره هو ذهابه في سيارة أجرة إلى مطار كنسينغتون.

هزّت الآنسة ماربل رأسها بحيرة وقالت: أعرف أن هذا يحدث في حالات الارتجاج الدماغي. ألم يقُل أيّ شيء مفيد؟

- لقد همس بشيء عن أسوار أريحا.

جازفت الآنسة ماربل قائلة: لعله يقصد شيئاً عن علم الآثار أو أعمال التنقيب، أو لعله يقصد تلك المسرحية القديمة التي كتبها السيد سوترو مثلاً.

قال الأب: وأيضاً طوال هذا الأسبوع كانت دار عرض

جومونت في شمال نهر التيمز تعرض فِلم «أسوار أريحاه من بطولة أولغا رادبورن وبارت ليفين.

نظرت الآنسة ماربل إليه بشكّ فقال الأب: يمكن أن يكون قد ذهب لمشاهدة ذلك الفِلم في شارع كرومويل، ويمكن أن يكون قد خرج من هناك في نحو الساعة الحادية عشرة ثم عاد إلى هنا، على الرغم من أنه لو فعل ذلك لكان لا بدّ أن يراه أحد، سيكون هذا قد تمّ في وقت قبل منتصف الليل بالتأكيد.

قالت الآنسة ماربل: ربما استقلّ حافلة بطريق الخطأ أو فعل شيئاً من هذا القبيل.

- افترضي أنه عاد إلى هنا بعد منتصف الليل، يمكن أن يكون قد صعد إلى غرفته دون أن يراه أحد، ولكن إذا كان ذلك قد حدث فماذا حدث بعده؟ ولماذا خرج مرّة أخرى بعد ثلاث ساعات؟

بحثت الآنسة ماربل عن كلمة لتقولها فقالت: الفكرة الوحيدة التي تظهر لي هي... يا إلهي!

ثم قفزت من مكانها عندما سُمع دويّ في الشارع خارج الفندق فقال الأب مهدّئاً: إنه صوت محرك سيارة.

- آسفة لأنني فزعت؛ أنا عصبية الليلة وهذا الإحساس يجعل المرء...

- يشعر بأن شيئاً سيحدث؟ لا أظن أن هناك ما يدعوك إلى القلق.

- أنا لا أحب الضباب مطلقاً.

- لقد أردت أن أخبرك أنك ساعدتِني كثيراً بالأشياء التي لاحظتِها هنا، تلك الأشياء الصغيرة أضافت كثيراً إلى معلوماتي.

- إذن فقد كان في الأمر شيء على غير ما يرام، أليس كذلك؟

- كان وما يزال كائناً.

تنهّدت الآنسة ماربل وقالت: كان يبدو رائعاً في البداية، ولم يزَل يبدو كذلك... كما لو أنك قد عدتَ إلى الماضي، إلى ذلك الجزء من الماضي الذي أحبّه المرء واستمتع به.

توقفَت عن الكلام هنيهة ثم تابعت: ولكنه ليس كذلك بالطبع. لقد تعلمت شيئاً (كنت أعرفه فعلاً في الحقيقة) وهو أن المرء لا يمكن أن يعود إلى الوراء أبداً، ويجب أن لا يحاول أن يعود إلى الوراء لأن جوهر الحياة يسير إلى الأمام. الحياة طريق ذو اتجاه واحد فقط في الحقيقة، أليس كذلك؟

وافقها الأب قائلاً: بلى، هذا صحيح.

قالت الآنسة ماربل وهي تتحوّل عن موضوعها الرئيسي بطريقة مميّزة: أتذكّر عندما كنت في باريس مع أمي وجدتي أننا ذهبنا لتناول الشاي في فندق إليزيه، ونظرَت جدتي حولها وقالت فجأة: "كلارا، أعتقد أنني المرأة الوحيدة التي ترتدي قلنسوة هنا"! وقد كانت كذلك فعلاً، وعندما عادت إلى البيت عبّأت جميع قلنسواتها في حقيبة ثم أرسلتها بعيداً.

استفسر منها الأب قائلاً بتعاطف: لبيعها في السوق الخيري؟

- لا ، لا أحد كان سيشتريها في السوق الخيري ، لقد أرسلتَها إلى شركة مستودعات مسرحية. وقد أُعجبوا بها كثيراً ، ولكن...

واستعادت الآنسة ماربل اتجاهها في الحديث قائلة: عن أي شيء كنا نتحدث؟

- كنتِ تحكمين على هذا المكان.

- أجل، إنه يبدو جيّداً ولكنه ليس كذلك، فيه خليط من أناس حقيقيين وأناس آخرين ليسوا كذلك. لا يستطيع المرء أن يميّزهم بعضهم من بعض.

- ماذا تقصدين بقولك: ليسوا حقيقيين؟

- يوجد رجال عسكريون متقاعدون ولكن يوجد أيضاً مَن يبدون عسكريّين ولكنهم لم يلتحقوا بالجيش قط، ورجال دين لم يكونوا رجال دين، وأدميرالات وقباطنة لم يكونوا في البحرية قط. صديقتي سيلينا هيزي أضحكتني في البداية لأنها كانت مهتمة جداً بالتعرف على الناس الذين كانت تعرفهم (بالطبع كان ذلك طبيعياً جداً)، وكم كان مربكاً عندما لا يكونون هم الأشخاص الذين اعتقدت أنهم هم، ولكن ذلك كان يحدث كثيراً جداً. هكذا بدأتُ أتساءل. حتى روز خادمة الغرف... إنها لطيفة جداً ولكني بدأت أعتقد أنها قد لا تكون حقيقية هي الأخرى.

- إذا كان يهمك أن تعرفي فهي ممثلة سابقة، ممثلة جيّدة، لكنها تحصل هنا على راتب أفضل مما كانت تأخذه على المسرح.

- ولكن لماذا؟!

- بصورة رئيسية لأنها جزء من العرض، وقد يكون في الموضوع أكثر من ذلك.

قالت الآنسة ماربل: "أنا مسرورة لأنني سأغادر هذا المكان..." وارتعشت قليلاً من البرد ثم أضافت: قبل أن يحدث أيّ شيء.

نظر كبير المحقّقين إليها بفضول وقال: ماذا تتوقعين أن يحدث؟

- شرّ من نوع ما.

- كلمة «شر» كلمة كبيرة.

- هل تظن أنها كلمة قلتها لمجرد الإثارة؟ عندي بعض الخبرة في هذه الأمور، فكثيراً ما كنت على صلة ببعض جرائم القتل.

قال بدهشة: قتل؟!

ثم هزّ رأسه نافياً وقال: أنا لا أفكر في إمكانية وقوع جريمة قتل، بل فقط عصابة إجرامية مكوّنة من بعض الأشخاص من المجرمين الأذكياء غير العاديين.

- ليس الأمر كذلك؛ بل أقصد القتل، الرغبة في القتل، وهذا شيء مختلف تماماً، إنه...

نظر إليها وهزّ رأسه بلطف مُطَمْئناً قائلاً: لن تحدث هنا أيّ جرائم قتل.

فجأة سُمع في الخارج صوتٌ حادّ مدوٍّ أعلى من الدويّ السابق تلته صرخةٌ ثم دويّ آخر، فهبّ كبير المحقّقين ديفي واقفاً

على قدميه وتحرك بسرعة مناقضة لضخامة جسمه، وفي خلال ثوانٍ معدودة كان خارج الباب الدوّار في الشارع.

-٢-

كان ذلك الصوتُ صراخَ امرأة يخترق الضباب بنوع من الرعب؛ فانطلق ديفي إلى شارع بوند في اتجاه الصرخات واستطاع أن يرى جسد امرأة بصورة باهتة وهي ممدَّدة على ظهرها مقابل حاجز الطريق. وصل إليها وهو يعدو بخطوات سريعة، وكانت ترتدي معطفاً من الفراء طويلاً باهتاً وكان شعرها الأشقر البرّاق يتدلّى على جانبَي وجهها. ظنّ للحظة أنه كان يعرف من هي ثم أدرك أنها مجرّد فتاة صغيرة، وعند قدمَيها على الرصيف تمدّد جسد رجل يرتدي الزيّ الرسمي. وعرفه ديفي فوراً؛ لقد كان جسد مايكل غورمان!

عندما تقدّم إلى الفتاة تشبّثت به وهي ترتعش من قمة رأسها إلى أخمص قدمَيها وتمتمت بعبارات متقطعة قائلة: لقد حاول شخص أن يقتلني! شخص... لقد أطلقوا عليّ النار...!

ثم أشارت نحو الجسد الساكن عند قدمَيها وقالت: لولاه... لقد دفعني إلى الوراء ووقف أمامي ثم جاءت الطلقة الثانية وسقط على الأرض. لقد أنقذ حياتي، لكن أعتقد أنه تأذى... تأذى بشكل كبير.

جثا ديفي على ركبة واحدة وأخرج مصباحه اليدويّ. لقد سقط الحاجب الأيرلندي الطويل كالجندي، وأظهر الجانب الأيسر من سترته وجود بقعة مبتلّة كانت تزداد شيئاً فشيئاً في حين كان الدم

ينزف من جسمه على ملابسه، فرفع ديفي جفنه وأمسك رسغه، ثم نهض على قدميه وقال: لقد أخذ نصيبه.

صرخت الفتاة صرخة حادّة وقالت: هل تقصد أنه مات؟! يا إلهي! لا، لا، لا يمكن أن يكون قد مات.

- من الذي أطلق عليك الرصاص؟

- لا أعرف. لقد غادرتُ سيارتي عند الركن وكنت أتحسس طريقي على طول الحاجز ذاهبة إلى فندق بيرترام، ثم فجأة مرّت طلقة قريباً من رأسي، وبعدها... بعدها جاء هو، ذلك الحاجب في فندق بيرترام... جاء يركض إلى الشارع ناحيتي ودفعني خلفه ثم... ثم جاءت طلقة أخرى، أعتقد... أعتقد أنه -أياً كان- كان يختبئ في ذلك المكان هناك.

نظر ديفي إلى حيث أشارت، وعند ذلك الجانب من فندق بيرترام كان موقع قديم تحت مستوى الشارع له بوّابة وبعض الدرجات للنزول إليه، وحيث إنها كانت تؤدّي فقط إلى غرف مستودعات فإنها لم تكن تُستخدم كثيراً، ولكن الجاني يستطيع أن يختبئ هناك بسهولة.

قال لها ديفي: ألم تشاهديه؟

- ليس بصورة واضحة، لقد اندفع من أمامي كأنّه ظِلّ وكان الضباب كثيفاً.

أومأ ديفي برأسه علامة الإيجاب في حين بدأت الفتاة تبكي وتنتحب بصورة هستيرية وهي تقول: ولكن من الذي يمكن أن يريد

قتلي؟ لماذا يريد أحدٌ قتلي؟! هذه هي المرة الثانية، أنا لا أفهم! لماذا؟

تحسّس كبير المحقّقين جيبه بيده ووضع اليد الأخرى حول الفتاة في حين دوّى صوت صفير سيارة الشرطة الصاخب في الضباب.

-٣-

في قاعة فندق بيرترام رفعت الآنسة غورينج بصرها بحدّة من وراء مكتب الاستقبال، وزائر أو زائران رفعا أبصارهما أيضاً، فقط الكبار والصمّ لم يرفعوا أبصارهم. توقف هنري عن وضع كأس من العصير على الطاولة وهي ما تزال في يده في حين مدّت الآنسة ماربل جسمها إلى الأمام وهي جالسة تقبض على مسندَي كرسيّها، وقال أدميرال متقاعد على نحو ساخر: أظن أنه حادث، سيارات تصادمت في الضباب.

فُتح الباب الدوّار المؤدّي إلى الشارع ودخل منه شرطي ضخم كان يساعد فتاة تلبس معطفاً من الفراء باهت اللون وبدا أنها لا تستطيع المشي، ونظر الشرطي حوله طلباً للمساعدة وهو مرتبك بعض الشيء.

أسرعت الآنسة غورينج من خلف المكتب وهي على استعداد للمساعدة، ولكن في تلك اللحظة وصل المصعد وخرجت منه امرأة طويلة، فحررت الفتاة نفسها من ذراع الشرطيّ وركضت ملهوفة فعبرت القاعة ناحية المرأة وهي تصرخ: أمّي، آه! أمّي، أمّي!

ثم رمت نفسها بين ذراعَي بيس سيدجويك وهي تنتحب.

* * *

الفصل الحادي والعشرون

أسند رئيس المحقّقين ديفي ظهره على كرسيّه الذي كان يجلس عليه ونظر إلى المرأتين اللتين جلستا مقابله. كان الوقت قد جاوز منتصف الليل، وقد جاء رجال الشرطة وذهبوا، وكان هناك طبيب ومختصون ببصمات الأصابع وسيارة إسعاف لرفع الجثة... ثم انتهى كل شيء إلى تلك الغرفة الوحيدة التي خُصّصت لأغراض التحقيق في فندق بيرترام.

جلس كبير المحقّقين ديفي إلى جانب واحد من الطاولة وجلست بيس سيدجويك وإلفيرا إلى الجانب الآخر، وعند الحائط جلس شرطي يسجّل أقوال التحقيق بصمت في حين جلس الرقيب وادل بجانب الباب.

نظر الأب إلى المرأتين اللتين جلستا قبالته متفكراً. أمّ وابنتها، كان بينهما تشابه قوي كما لاحظ، ففهم لماذا ظنّ خطأ لفترة قصيرة في الضباب أن إلفيرا هي بيس سيدجويك، ولكنه الآن وهو ينظر إليهما فوجئ بوجود نقاط اختلاف أكثر من نقاط التشابه! فهما لم تكونا متشابهتين في الحقيقة في شيء باستثناء اللون، وكان انطباعه يُصرّ على أن أمامه نسختين لنفس الشخصية ولكن إحداهما موجبة

والأخرى سالبة. كل شيء عند بيس سيدجويك كان موجَباً، حيويتها وطاقتها... لقد كان معجَباً بالليدي سيدجويك، كان معجَباً بشجاعتها وكان يُدهَش دائماً بجرأتها ويقول وهو يقرأ جريدة الأحد: "إنها لن تُفلِت من ذلك أبداً". ولكنها كانت تُفلِت منه بصورة دائمة!

لم يعتقد أنها من الممكن أن تصل إلى نهاية الرحلة، ولكنها كانت تصل إلى نهاية الرحلة. لقد أُعجِبَ بصلابتها التي لا تنكسر بشكل خاصّ. وقع لها حادث تحطّم طائرة وحوادث سيارات عديدة ووقعت من فوق حصانها مرتين بصورة خطيرة، ولكن بعد كل هذا ها هي موجودة نابضة بالحياة، شخصية لا يستطيع المرء تجاهلها لحظة واحدة. لكن بالطبع سوف تسقط في يوم من الأيام سقطة عنيفة؛ لا يستطيع المرء الحياة بهذه الطريقة لوقت طويل.

ثم انتقلت عيناه من الأم إلى الابنة ودارت في رأسه تساؤلات كثيرة. قال في نفسه: في إلفيرا كل شيء كان متقوقعاً إلى الداخل! لقد شقّت بيس حياتها بفرض إرادتها على الحياة نفسها، وظنّ بأن إلفيرا لها طريقة مختلفة في شقّ طريقها في الحياة. ظنّ أنها مستسلمة ومطيعة تبتسم مطاوعة، ورأى أنها كانت من النوع الماكر. قال في نفسه وهو يخمّن الحقيقة: هذه الفتاة ماكرة، وأظن أن هذه هي الطريقة الوحيدة التي تستطيع أن تدبّر أمورها بها. إنها لا تستطيع أن تواجه الأمور وتفرض نفسها عليها أبداً، وأعتقد أن هذا هو السبب الذي جعل القائمين على رعايتها لا يعرفون شيئاً عمّا تقوم به.

لقد تساءل ماذا كانت تفعل وهي تنسلّ إلى الشارع المؤدّي إلى فندق بيرترام في أمسية ضبابية متأخرة على مثل هذا النحو. كان

سيسألها عن ذلك في الحال لكنه فكّر أن الإجابة التي سيحصل عليها لن تكون الحقيقة. فكّر قائلاً لنفسه: هذه هي الطريقة التي تدافع بها الطفلة المسكينة عن نفسها. هل جاءت إلى هنا لكي تقابل أمّها؟

بدا ذلك ممكناً، ولكنه لم يكن ما يعتقده في الواقع. ثم فكّر في السيارة الرياضية الكبيرة الجاثمة بعيداً عند الركن، السيارة ذات اللوحة رقم «ف أ ن ٢٢٦٦». لا بدّ أن لاديسلوس مالينوسكي موجود في مكان قريب لأن سيارته كانت هناك.

قال مخاطباً إلفيرا بطريقته اللطيفة الأبوية: حسناً يا ابنتي، كيف تشعرين الآن؟

قالت إلفيرا: أنا بخير تماماً.

- رائع. أريد منك أن تجيبي على بعض الأسئلة إذا كنتِ على استعداد لذلك لأن الوقت هو أساس هذه الأمور كما ترين. لقد أُطلقَ الرصاص عليك مرتين وانتهى الأمر بمقتل رجل.

- سأخبرك بكل شيء أستطيعه، ولكن كل شيء حدث فجأة وأنت لا تستطيع أن ترى الأشياء في الضباب. أنا شخصياً ليس عندي أيّ فكرة عن الذي فعل ذلك أو حتى عن هيئته، وهذا هو ما أخافني كثيراً.

- لقد قلتِ إن هذه هي المرة الثانية التي يحاول فيها شخصٌ أن يقتلك، فهل هذا يعني أن حياتك كانت مستهدَفة من قبل؟

- هل قلتُ هذا؟ لا أستطيع أن أتذكر.

أخرى من نفس الحلوى فحدث الشيء نفسه، ولذلك تحدثت مع بريدجيت عن ذلك. كانت بريدجيت صديقتي المقرَّبة، ونظرنا إلى العلبة فوجدنا أن الحلوى البنفسجية موجود في أسفلها فتحة تدلّ على أنها قد عُبث في العلبة بعد ختمها، ولذلك اعتقدنا أن شخصاً قد وضع السمّ داخلها وأنهم وضعوها فيها فقط لمعرفتهم أنني سأكون الشخص الذي سيأكلها.

- ألم يمرض أحد آخر؟

- لم يمرض أحد سواي.

- وهكذا من المفترَض أن أحداً آخر لم يأكل منها؟

- لا أظن أنهم قد أكلوا، لقد كانت هديتي وكانوا يعرفون أنني أحب هذا النوع ولذلك تركوها لي.

- لقد جازف الجاني أيّاً كان؛ كان من الممكن أن تُصاب المدرسة كلها بالتسمم.

قالت الليدي سيدجويك بحدّة: هذا سخيف، سخيف تماماً. أنا لم أسمع قط عن شيء بمثل هذه الوحشية!

أومأ ديفي بإشارة خفيفة من يده قائلاً: أرجوك.

ثم التفت إلى إلفيرا قائلاً: أنا أجد هذا مثيراً للاهتمام كثيراً يا آنسة بليك، ألم تخبري الكونتيسة رغم كل ما حدث؟

- نعم، لم نخبرها؛ كانت ستحدث ضجّة فظيعة.

- وماذا عملتِ بالحلوى؟

- لقد ألقيناها بعيداً.

- ألم تحاولي معرفة مَن الذي أرسلها إليك؟

بدت إلفيرا مرتبكة وهي تقول: حسناً، لقد ظننت أنه يمكن أن يكون غويدو.

قال كبير المحقّقين ديفي مبتهجاً: ومن هو غويدو هذا؟

- غويدو...

ثم توقفت إلفيرا ونظرت إلى أمها فقالت لها بيس: لا تكوني غبية وأخبري كبير المحقّقين عن غويدو هذا أياً كان، فكلّ فتاة في مثل عمرك يوجد في حياتها غويدو. لعلك كنتِ تقابلينه هناك؟

- أجل، عندما كانوا يأخذوننا إلى الأوبرا. تحدّث معي هناك، كان لطيفاً وجذاباً جداً، وقد اعتدت أن أقابله أحياناً واعتاد هو أن يمرّر لي رسائل.

قالت بيس سيدجويك: وأعتقد أنك كذبتِ كثيراً وأعددتِ خُططاً مع بعض صديقاتك من أجل الخروج والالتقاء به، أليس كذلك؟

بدت إلفيرا مرتاحة من هذه المداخلة التي قاطعت اعترافها وقالت: أحياناً، كان غويدو...

- ماذا كان اسم غويدو الأخير؟

- لا أعرف، لم يخبرني بهذا قط.

ابتسم رئيس المفتّشين ديفي وقال: تقصدين أنك لن تخبريني!

لا عليك، يمكنني القول إننا سنكون قادرين على معرفة ذلك تماماً دون مساعدتك إذا كان يهمّ حقيقة. ولكن لماذا تظنين أن هذا الشاب الذي كان من المفترَض أنه مولَع بك يريد قتلك؟

– لأنه اعتاد أن يهدّد بأمور كهذه... أقصد أننا اعتدنا المشاجرة من وقت لآخر. كان يُحضِر بعض أصدقائه معه وكنت أتظاهر بأنني معجبة بهم أكثر منه، وعندئذ كان يغضب ويصبح متوحشاً جداً، وكان يقول إنني يجب أن أكون حذرة فيما كنت أفعله. كنتُ أعتقد فقط أنه انفعاليّ ومبالغ في ردود أفعاله.

ابتسمت إلفيرا فجأة بطريقة غير متوقَّعة وقالت: ولكن هذا كان سخيفاً، لم أعتقد أنه كان جاداً في تهديداته.

قال كبير المحققين ديفي: حسناً، ليس من المرجَّح أن شاباً صغيراً كما تصفينه يمكنه أن يضع السم في الحلوى ويرسلها إليك.

قالت إلفيرا: حسناً، أنا أيضاً لا أظن ذلك، ولكنني فكرت به لأنني لا أستطيع أن أرى أن شخصاً آخر هو الذي فعل ذلك. لقد أزعجني الأمر، وبعد ذلك عندما عدت إلى إنكلترا استلمت رسالة.

وتوقفت عن الكلام فسألها الأب: أي نوع من الرسائل؟

– لقد جاءت في مظروف وكانت مطبوعة، وكانت تقول: «احذري؛ شخص ما يريد قتلك».

ارتفع حاجبا كبير المحققين ديفي وقال: حقاً؟! هذا مثير للفضول، نعم، مثير للفضول بشدّة. وقد أزعجتك بالطبع، هل خفت؟

– نعم، وبدأت أتساءل مَن الذي يمكن أن يسعى إلى قتلي! ولهذا السبب حاولت أن أكتشف إذا كنت غنية جداً بالفعل.

– استمرّي.

– وفي اليوم التالي في لندن حدث شيء آخر. كنت في نفق السكة الحديدية وكان فوق الرصيف الكثير من الناس واعتقدت أن شخصاً حاول دفعي إلى القضبان.

قالت بيس سيدجويك: لا تبالغي يا طفلتي العزيزة!

مرة أخرى أشار الأب بيده إشارة خفيفة في حين قالت إلفيرا معتذرة: نعم، كنت أظن أنني أتخيّل ذلك، ولكن... لا أعرف، أقصد... بعد الذي حدث هذا المساء يبدو وكأن كل ذلك يمكن أن يكون حقيقياً.

التفتت فجأة إلى بيس سيدجويك وقالت وهي تتكلم بصورة فيها إلحاح: أمّي، لعلك تعرفين، هل يريد أيّ شخص قتلي؟ هل لي عدو؟

قالت بيس سيدجويك بنفاد صبر: بالطبع ليس لديك أيّ أعداء. لا تكوني سخيفة، لا أحد يريد قتلك. ولماذا يفعلون؟

– إذن مَن الذي أطلق عليّ الرصاص الليلة؟

قالت بيس سيدجويك: في هذا الضباب يمكن أن يكون الفاعل قد أخطأ وحسبك شخصاً آخر، هذا ممكن.

ثم قالت وهي تلتفت إلى المحقق: ألا تعتقد ذلك؟

قال ديفي: هذا ممكن.

كانت بيس سيدجويك تنظر إليه بتمعّن شديد فتخيل أن حركة شفتيها تقول: فيما بعد.

قال مبتهجاً: حسناً، من الأفضل أن نركّز على بعض الحقائق الآن. من أين كنتِ عائدة هذه الليلة؟ ماذا كنت تفعلين عندما كنتِ تسيرين في شارع بوند في مثل هذه الأمسية الضبابية؟

- ذهبت في الصباح لحضور درس في الفن في معهد تيت، ثم ذهبت لتناول الغداء مع صديقتي بريدجيت التي تعيش في ساحة أونسلو، ثم ذهبنا لمشاهدة عرض سينمائي. وعندما خرجنا كان الضباب كثيفا ويزداد سوءاً فاعتقدت أنه من الأفضل أن لا أذهب إلى بيتي بالسيارة.

- أنت تقودين سيارة، أليس كذلك؟

- بلى، لقد حصلت على رخصة القيادة في الصيف الماضي فقط. ولكني لست سائقة جيدة كما أنني أكره القيادة في الضباب، ولذلك طلبَت والدة بريدجيت منّي أن أبقى تلك الليلة فاتصلتُ بابنة عمي ميلدريد لأنني أعيش معها في كِنْت.

أومأ الأب برأسه علامة الموافقة في حين أكملت: وقلت إنني سأبقى هناك في تلك الليلة فقالت إن ذلك كان عملاً حكيماً.

- وماذا حدث بعد ذلك؟

- بدا أن الضباب قد خفّ فجأة. أنت تعرف أن حال الضباب

يكون متقلباً، ولذلك قلت إنني سأذهب بسيارتي إلى كِنْت. ودّعت بريدجيت وانطلقت بالسيارة، ولكن بعد ذلك بدأ الضباب بالانتشار من جديد، ودخلت في منطقة كثيفة الضباب وضللتُ طريقي ولم أعرف أين كنت، ثم بعد وقت قصير أدركت أنني كنت في زاوية الهايد بارك ورأيت أنني لا أستطيع أن أذهب إلى كِنْت في مثل هذا الجو. في البداية فكرت في أن أعود إلى بيت بريدجيت ولكنني تذكرت كيف ضللت طريقي، ثم أدركت أنني كنت قريبة جداً من هذا الفندق اللطيف الذي أخذني إليه العمّ ديريك عندما عدتُ من إيطاليا وقلتُ لنفسي: "سأذهب إليه وأنا متأكدة أنهم سيجدون لي غرفة". كان ذلك سهلاً جداً، وقد وجدتُ مكاناً أوقفت فيه السيارة ثم سرت عائدة ناحية الشارع باتجاه الفندق.

- هل التقيتِ بأيّ أحد أو سمعتِ أيّ أحد يمشي بقربك؟

- من الغريب أن تقول ذلك؛ فقد اعتقدت بالفعل أنني سمعت شخصاً يسير خلفي. بالطبع لا بدّ أن يكون كثير من الناس يمشون قربك في لندن، وفي مثل هذا الضباب يعطيك ذلك شعوراً بالعصبية. انتظرت وأصغيت ولكنني لم أسمع وقع أيّ أقدام فاعتقدت بأنني كنت أتخيل. كنت وقتها قريبة جداً من الفندق.

- وبعد ذلك؟

- بعد ذلك حدث إطلاق نار فجأة كما أخبرتك. بدا وكأن الطلقة قد مرّت بجانب أذني تماماً، وجاء الحاجب الذي كان يقف خارج الفندق يركض ناحيتي ودفعني خلفه، وبعدها... بعدها جاءت الطلقة الأخرى فسقطتُ، سقطت على الأرض وصرخت.

وبدأت ترتعش فتكلمت أمها معها وقالت بصوت منخفض قوي: تماسكي أيتها الفتاة، تماسكي الآن.

كان ذلك هو نفس الصوت الذي اعتادت بيس سيدجويك أن تستخدمه مع خيولها، وكان فعّالاً جداً عندما استخدمته مع ابنتها. نظرت إلفيرا إليها خلسة واستجمعت قواها قليلاً ثم هدأت تماماً وقالت: ثم جئتَ أنت وأخبرتَ الشرطي أن يأخذني إلى الفندق، وبمجرّد أن دخلت رأيت... رأيت أمّي.

والتفتت إلى بيس في حين قال المحقق: وهذا يوصلنا إلى الوقت الحالي تقريباً.

ثم تحرّك قليلاً وهو جالس على كرسيه وسألها: هل تعرفين رجلاً يُدعى لاديسلوس مالينوسكي؟

كانت نبرة صوته معتدلة وعادية ودون أيّ إيحاء، ولم يكُن ينظر إلى الفتاة ولكنه أدرك اللهاث السريع الذي انتابها حيث إن أذنيه كانتا تعملان بانتباه كامل في حين لم تكُن عيناه على الابنة بل على الأم. قالت إلفيرا بعد أن انتظرت طويلاً: لا، لا أعرفه.

- آه، كنت أظنك تعرفينه، وظننت أنه يمكن أن يكون هنا هذا المساء.

- ماذا؟ ولماذا يكون هنا؟

- حسناً، سيارته هنا. هذا هو السبب الذي جعلني أعتقد أنه قد يكون هنا.

- أنا لا أعرفه.

قال المحقق: "يبدو أنني قد أخطأت". ثم التفت برأسه إلى بيس سيدجويك وقال: بالطبع أنت تعرفينه؟

قالت بيس سيدجويك: "هذا طبيعي، أنا أعرفه منذ عدة سنوات". ثم أضافت وهي تبتسم قليلاً: إنه رجل مجنون، يقود سيارته كأنه عفريت! سوف يكسر رقبته ذات يوم. لقد حدث له حادث تصادم منذ ثمانية عشر شهراً.

قال الأب: أجل، أتذكّر أنني قرأت شيئاً عن ذلك، وهو لم يشارك في السباقات مرّة أخرى حتى الآن، أليس كذلك؟

- بلى، لم يشارك حتى الآن وقد لا يشارك أبداً.

سألت إلفيرا باكتئاب: هل تظن أن بإمكاني الذهاب إلى النوم الآن؟ أنا متعَبة جداً.

- بالطبع، لا بدّ أن تكوني كذلك. هل أخبرتِنا بكل ما تستطيعين تذكّره؟

- نعم.

قالت بيس: سأصعد معك.

ثم خرجت الأم وابنتها معاً فقال الأب: الفتاة تعرفه تماماً.

سأله الرقيب وادل: هل تعتقد ذلك حقيقة؟

- أنا متأكد من ذلك؛ لقد تناولَت معه الشاي في متنزّه باترسي منذ يوم أو يومين فقط.

- كيف اكتشفتَ ذلك؟

- أخبرَتني بذلك سيدة عجوز وهي منزعجة؛ رأت أنه لم يكُن صديقاً مناسباً لفتاة شابة، وهي على حق بالطبع.

- ولا سيما إذا كان هو والأم...

وتوقّف وادل عن كلامه بطريقة فيها كياسة ثم قال: يتناثر الكثير من الثرثرة بين الناس.

- أجل، يمكن أن يكون هذا صحيحاً ويمكن أن لا يكون كذلك.

- في هذه الحالة أيّهما التي يسعى وراءها حقيقة؟

تجاهل الأب هذه النقطة وقال: أريدكم أن تعتقلوه، أريده بأي شكل. سيارته هنا عند الركن.

- هل تظن أنه يمكن أن يكون مقيماً في هذا الفندق؟

- لا أظن ذلك؛ فهذا غير مناسب له. من المفترَض أن لا يكون هنا، ولو جاء إلى هنا فسيأتي لمقابلة الفتاة. لقد جاءت إلى هنا لمقابلته دون شكّ.

فُتح الباب وظهرت بيس سيدجويك مرّة أخرى وقالت: لقد عُدت لأنني أردت الكلام معك.

حوّلت نظرها منه إلى الرجلين الآخرين ثم قالت: أتساءلُ إن كان بإمكاني أن أتحدّث معك على انفراد. لقد أعطيتُكم كل

المعلومات التي عندي كما هي، ولكني أريد أن أتحدث معك قليلاً على انفراد.

قال كبير المحقّقين ديفي: لا أرى أيّ سبب يمنع ذلك.

حرك رأسه فأخذ الشرطي الشاب دفتر ملاحظاته وخرج هو ووادل معه أيضاً، ثم قال كبير المحقّقين ديفي: حسناً، تفضلي.

جلست الليدي سيدجويك مرّة أخرى قبالته وقالت: هذه القصة السخيفة عن الحلوى المسمّمة... إنها هراء قطعاً، لا أعتقد أن أيّ شيء من ذلك قد حدث.

- لا تعتقدين؟

- هل تعتقد أنت ذلك؟

هزّ الأب رأسه بارتياب وقال: هل تعتقدين أن ابنتك هي التي أعدّتها؟

- نعم، ولكن لماذا؟

قال كبير المحقّقين ديفي: حسناً، إذا كنتِ لا تعرفين السبب فكيف لي أن أعرف؟ إلفيرا ابنتك ومن المفترَض أنك تعرفينها أفضل مني.

قالت بيس سيدجويك بمرارة: أنا لا أعرفها على الإطلاق، أنا حتى لم أرَها ولم تكُن لي علاقة بها منذ كانت في الثانية من عمرها عندما هربتُ من زوجي.

- آه، نعم، أعرف كل ذلك وقد وجدته مثيراً للفضول. أنت تعرفين -يا سيدة سيدجويك- أن المحاكم تعطي الأم حقّ رعاية طفلها الصغير عادة إذا طلبت ذلك حتى لو كانت هي الطرف المذنب في قضية الطلاق، إذن فمن المفترَض أنك لم تطلبي ذلك، لم تريديه.

- لقد اعتقدت أن من الأفضل أن... أن لا آخذها.

- لماذا؟

- لم أرَ أن ذلك كان في صالحها.

- لأسباب أخلاقية؟

- لا، ليس لأسباب أخلاقية. يوجد الكثير من الأفعال غير الأخلاقية هذه الأيام، وعلى الأطفال أن يتحملوا ذلك وأن ينشؤوا معه. السبب فقط أنني لست شخصاً آمناً بحيث تبقى إلفيرا معي؛ الحياة التي أعيشها ليست حياة آمنة. المرء لا يستطيع أن يغيّر الطريقة التي وُلد بها، وقد وُلدتُ لكي أعيش مع الخطر. أنا لست ملتزمة بالقانون أو متمسكة بالأعراف، وقد اعتقدتُ أنه من الأفضل لإلفيرا والأكثر سعادة لها أن تنشأ نشأة إنكليزية صحيحة تقليدية وأن تتوفر لها العناية والحماية.

- ولكنها تفتقد حب الأم؟

- اعتقدت أن محبتها لي سوف تسبّب لها الأسى. آه، قد لا تصدقني ولكن هذا هو ما اعتقدته.

- أفهم هذا يا سيدتي، ولكن أما زلتِ تعتقدين أنك كنت على حق؟

- لا، لا أعتقد ذلك، بل أعتقد الآن أنني كنت مخطئة كلّياً.

- هل تعرف ابنتك لاديسلوس مالينوسكي؟

- أنا متأكدة من أنها لا تعرفه؛ لقد قالت ذلك وأنت سمعتها.

- أجل، لقد سمعتها.

- ما الأمر إذن؟

- لقد كانت خائفة عندما كانت تجلس هنا، وفي عملنا هذا تعرف الخوف عندما نراه. لقد كانت خائفة، فلماذا؟ حلوى أو لا حلوى، لقد تم الاعتداء على حياتها، وقصّة نفق السكة القطار هذه يمكن أن تكون صحيحة أيضاً.

- لقد كانت سخيفة كالتمثيلية البوليسية.

- ربما كانت كذلك، ولكن هذا النوع من الأشياء يحدث أكثر مما تعتقدين يا سيّدة سيدجويك. هل يمكنك أن تعطيني أيّ فكرة عمّن يمكن أن يريد قتل ابنتك؟

- لا أحد، لا أحد على الإطلاق.

قالت ذلك بحماسة، فتنهّد كبير المحققين ديفي وهزّ رأسه.

* * *

الفصل الثاني والعشرون

انتظر كبير المحقّقين ديفي بفارغ الصبر إلى أن انتهت السيدة ميلفورد من حديثها. كانت مقابلة غير مجدية على نحو واضح، وكانت ميلدريد ابنة عمّ إلفيرا مشوّشة ومتشكّكة وخفيفة العقل بشكل عام، كانت تلك هي وجهة نظره فيها. كان حديثها عن سلوك إلفيرا الجميل وطبيعتها الجميلة ومشكلاتها مع أسنانها والأعذار الغريبة التي أخبرتها بها بالهاتف قد أدّى إلى شكوك جادّة حول ما إذا كانت بريدجيت صديقة إلفيرا صديقة متناسبة لها في الحقيقة... كل هذه الأمور ظهرت أمام كبير المحقّقين بصورة متسارعة، وكانت السيدة ميلفورد لا تعرف شيئاً ولم تسمع شيئاً ولم ترَ شيئاً، ومن الواضح أنها كانت عديمة الفائدة.

كما أن مكالمة هاتفية قصيرة مع الوصيّ على إلفيرا الكولونيل لاسكومب كانت غير مثمرة بصورة أكبر، ولكن ثرثرته كانت أقلّ لحسن الحظ. قال المحقق لرقيبه وهو يضع السمّاعة: شخص آخر عديم الفائدة؛ لم يرَ أيّ شرّ، لم يسمع أيّ شرّ، لم يتكلم بأيّ شرّ.

ثم أضاف: المشكلة أن كل من له علاقة بهذه الفتاة كان لطيفاً

جداً. هل تفهمني؟ فيهم الكثير من الناس اللطفاء الذين لا يعرفون أيّ شيء عن الشرّ، على النقيض من السيدة العجوز.

- تلك التي في فندق بيرترام؟

- نعم، تلك المرأة؛ إن لديها خبرة طويلة في ملاحظة الشرّ وتخيله والشك في الأشرار، وكذلك في التقدم إلى الأمام في المعركة مع الشرّ. دعنا نرَ ماذا يمكننا أن نستخرج من بريدجيت صديقة إلفيرا.

تمثلت الصعوبات في هذه المقابلة أولاً وأخيراً وفي معظم الوقت في أم بريدجيت؛ فقد تطلّب الحديث مع بريدجيت دون مساعدة من أمها من رئيس المحققين ديفي أن يستخدم معها الدهاء والتملّق، ويجب الاعتراف بأن بريدجيت ساعدته في هذه المهمة بمهارة، فبعد عدد كبير من الأسئلة والأجوبة التقليدية وبعد تعبيرات الرعب التي ظهرت من طرف والدة بريدجيت عند سماعها خبر نجاة إلفيرا من الموت بالكاد، بعد كل هذا قالت بريدجيت: أتعرفين يا أمي أن الوقت قد حان لاجتماع اللجنة؟ لقد قلتِ إنه اجتماع مهم جداً.

هتفت والدة بريدجيت: يا إلهي!

- أنت تعرفين أنهم سيقعون في ورطة كبيرة دونك يا أمي.

- نعم، هذا صحيح بالتأكيد، ولكن أليس عليّ أن...؟

قال كبير المحقّقين ديفي وهو يرسم على وجهه نظرة الأب

العجوز اللطيف: الأمر على ما يرام تماماً يا سيدتي وعليك أن لا تقلقي، تفضلي إلى وجهتك. لقد انتهيت من جميع الأشياء المهمة، وفي الحقيقة أنتِ أخبرتني عن كل شيء أردتُ معرفته. عندي فقط استفسار واحد أو اثنان روتينيان عن أشخاص في إيطاليا وأظن أن ابنتك الآنسة بريدجيت ستستطيع مساعدتي في هذا.

- حسناً، إذا كنتِ تعتقدين أنك تستطيعين تدبّر الأمر يا بريدجيت.

قالت بريدجيت: بالطبع أستطيع ذلك يا أمي.

وأخيراً وبعد ضجيج كثير انصرفت والدة بريدجيت إلى لجنتها، فقالت بريدجيت وهي تتنهد بعد أن أغلقت الباب الأمامي وعادت: يا إلهي، الأمهات متعبات حقاً!

قال رئيس المحققين ديفي: هذا ما تقوله الفتيات دائماً. الكثير من الفتيات اللاتي صادفتهنّ عندهنّ الكثير من المشكلات مع أمهاتهن.

قالت بريدجيت: اعتقدت أنك تظنّ عكس ذلك.

- نعم، ولكن هذا ليس هو رأي الفتيات الصغيرات. والآن، هل يمكنك أن تخبرني بالمزيد؟

قالت بريدجيت موضّحة: في الحقيقة لم أستطع أن أتكلم بصراحة أمام والدتي، ولكنني أشعر بالطبع أن من المهم جداً أن تعرف عن كل هذا قدر الإمكان. أنا أعرف أن إلفيرا كانت قلقة جداً

وخائفة من شيء ما، هي لم تعترف بالضبط أنها كانت في خطر ولكنها كانت كذلك.

- ظننت أن ذلك يمكن أن يكون حقيقياً، ولكن لم أحب أن أسألك كثيراً أمام والدتك بالطبع.

- بالطبع لا تريد أن تسمع أمي بهذا؛ فهي تصبح في وضع مريع في مثل هذه الأمور وسوف تذهب لتخبر كل الناس، أقصد أنه إذا كانت إلفيرا لا تريد أن يعرف أحد بهذه الأمور...

- قبل كل شيء أريد أن أعرف موضوع علبة الشُكلاتة في إيطاليا، أظن أنه كان لديكم شك في أن العلبة التي أُرسلت إليها ربما كانت مسمَّمة؟

اتسعت عينا بريدجيت قائلة: مسمَّمة؟ آه، لا، لا أظن ذلك. على الأقل...

- أرجو أن تخبريني بما حدث بالضبط.

- آه، نعم، جاءت علبة من الشُكلاتة وأكلَت إلفيرا الكثير منها فعلاً، ثم باتت مريضة تلك الليلة، مريضة جداً.

- ولكنها لم تشكّ في أنها مسمَّمة؟

- نعم، على الأقل... آه، حسناً، لقد قالت إن شخصاً كان يحاول أن يسمّم أحداً منّا، ونظرنا إلى الحلوى لكي نرى إن كان قد حُقن فيها أيّ شيء.

- وهل وجدتنّ الأمر كذلك؟

- لا، لم يكُن كذلك، على الأقل حسبما ظهر لنا.

- ولكن ربما كانت صديقتك الآنسة إلفيرا ما زالت تعتقد بذلك.

- حسناً، ربما، ولكنها لم تقُل أيّ شيء آخر.

- ولكنك تعتقدين أنها كانت خائفة من شخص ما؟

- لم ألاحظ شيئاً في ذلك الوقت، حدث هذا هنا فيما بعد.

- ماذا عن ذلك الرجل غويدو؟

قهقهت بريدجيت قائلة: كان مفتوناً بإلفيرا تماماً.

- وقد كنتِ أنت وصديقتك معتادتَين على الالتقاء به في أماكن مختلفة، أليس كذلك؟

- حسناً، ليس لديّ مانع من إخبارك فأنت الشرطي على أيّ حال. ذلك النوع من الأشياء ليس مهمّاً لك وأظن أنك تفهم. لقد كانت الكونتيسة مارتينللي متشددة إلى حدّ مريع (أو أنني كنت أراها كذلك)، وبالطبع كنّا نقوم بجميع أنواع المراوغات وما إلى ذلك، كنّا جميعاً يساند بعضنا بعضاً كما تعرف.

- وكنتنّ تقمن ببعض الكذب المطلوب على ما أظن، أليس كذلك؟

- حسناً، أخشى أن هذا صحيح. ولكن ماذا يمكن للمرء أن يفعل إذا كان تحت إمرة شخص كثير التشكك؟

- إذن فقد كنتما تقابلان غويدو؟ هل اعتاد هو أن يهدّد إلفيرا؟

- حسناً، ليس بصورة جادّة، لا أظن ذلك.

- إذن فقد تكون اعتادت على مقابلة شخص آخر؟

- في الحقيقة... حسناً، لا أعرف.

- أرجوك أن تخبريني يا آنسة بريدجيت؛ قد يكون هذا ضرورياً.

- نعم، أستطيع أن أفهم ذلك. حسناً، كان في الأمر شخص، لا أعرفه بالتحديد ولكنه كان موجوداً، كانت تهتمّ بأمره وكانت جادّة في التفكير فيه، أقصد أنه كان أمراً مهماً في الحقيقة.

- هل اعتادت على لقائه؟

- أظن ذلك. أقصد أنها كانت تقول إنها ذاهبة للقاء غويدو ولكنه لم يكُن غويدو، لقد كان ذلك الآخر.

- أليس عندك أيّ فكرة عن هويّته؟

بدت بريدجيت مترددة قليلاً ثم قالت نعم، ليست لدي أيّ فكرة.

- ألا يمكن أن يكون سائق سيارات السباق الذي يُدعى لاديسلوس مالينوسكي؟

حملقت بريدجيت إليه فاغرة فمها ثم قالت: إذن فأنت تعرف!

- هل أنا على صواب؟

- نعم، أعتقد ذلك. كانت عندها صورة له أخذَتها من جريدة، وكانت تحتفظ بها داخل جواربها.

- ربما كان بالنسبة لها مجرَّد بطل تعلّق صورته على الجدران، أليس كذلك؟

- ربما، لا أدري.

- هل تعرفين إن كانت تقابله هنا في هذا البلد أم لا؟

- لا أعرف، في الحقيقة أنا لا أعرف ماذا كانت تفعل منذ عادت من إيطاليا.

لقّنها ديفي الكلمات قائلاً: لقد جاءت إلى لندن لترى طبيب الأسنان... هذا ما قالته، ولكن بدلاً من ذلك جاءت إليك واتصلت هاتفياً بالسيدة ميلفورد وأخبرَتها بقصة عن مربية عجوز.

ضحكت بريدجيت ضحكة ضعيفة فقال المحقق وهو يبتسم: يبدو أن ذلك لم يكُن صحيحاً، أليس كذلك؟ إلى أين ذهبَت في الحقيقة؟

ترددت بريدجيت ثم قالت: لقد ذهبَت إلى أيرلندا.

- ذهبت إلى أيرلندا! حقاً؟! لماذا؟

- لم تخبرني. قالت إن أمامها شيئاً تريد أن تكتشفه.

- هل تعرفين إلى أين ذهبت في أيرلندا؟

- ليس بالضبط، ذكرَت اسماً لكنني لست متأكدة منه تماماً. بالي... شيئاً ما، باليغولان، أظن ذلك.

- هل أنت متأكدة من أنها ذهبت إلى أيرلندا؟

- لقد ودّعتها في مطار كنسينغتون وذهبَت على متن طائرة خطوط لينغاس.

- متى عادت؟

- في اليوم التالي.

- بالطائرة أيضاً؟

- نعم.

- أنت متأكدة أنها عادت بالطائرة، أليس كذلك؟

- حسناً، أظن أنها فعلت ذلك.

- هل كان معها تذكرة عودة؟

- لا، لم يكُن معها، أنا أذكر ذلك.

- يمكن أن تكون قد عادت بطريقة أخرى، أليس كذلك؟

- بلى، ربما.

- قد تكون عادت بقطار البريد الأيرلندي على سبيل المثال؟

- إنها لم تقُل ذلك.

- ولكنها لم تقُل إنها عادت بالطائرة، أليس كذلك؟

وافقته بريدجيت قائلة: بلى، لم تقُل، ولكن لماذا تعود بالسفينة ثم بالقطار بدلاً من الطائرة؟

- إذا كانت قد اكتشفَت الشيء الذي أرادت أن تعرفه ولم يكُن لديها مكان تقيم فيه فربما ظنت أنه من الأسهل لها أن تعود بقطار الليل الذي ينقل البريد..

- هذا ممكن.

ابتسم ديفي ابتسامة باهتة ثم قال: لا أظن أنكن -أيتها الفتيات- تفكرن في الذهاب إلى أيّ مكان إلاّ بالطائرات، ألستنّ كذلك هذه الأيام؟

وافقت بريدجيت قائلة: نعم، هذا صحيح.

- حسناً. عادت إلى إنكلترا، ثم ماذا حدث؟ هل جاءت إليك أو اتصلت بك بالهاتف؟

- اتصلت بالهاتف.

- في أيّ وقت من اليوم؟

- حسناً، في الصباح. نعم، لا بد أن الساعة كانت الحادية عشرة أو الثانية عشرة... أظن ذلك.

- وماذا قالت؟

- فقط سألت إذا كان كل شيء على ما يرام.

- وهل كان الأمر كذلك؟

- لا، لم يكُن؛ لأن السيدة ميلفورد اتصلت بالهاتف وردّت عليها أمي وأصبحَت الأمور صعبة جداً ولم أعرف ماذا أقول، لذلك قالت إلفيرا إنها لن تأتي إلى منزلنا، ولكنها قالت إنها ستتصل بابنة عمها ميلدريد وتحاول أن تختلق قصة ما.

- وهل هذا كل ما تتذكرينه؟

قالت بريدجيت متحفّظة: هذا كل شيء.

كانت تفكر في السيد بولارد والعقد، وكان ذلك شيئاً لن تُخبر به كبير المحقّقين ديفي بالتأكيد! وكان الأب يعرف جيّداً أنها تخفي عنه أمراً ما وكان يأمل فقط أن لا يكون شيئاً ذا صلة بتحقيقه. سألها مرّة أخرى: هل تعتقدين أن صديقتك كانت خائفة من شخص أو من شيء ما في الحقيقة؟

- نعم.

- هل ذكَرَت لك ذلك؟ أو هل ذكرتِ أنت ذلك لها؟

- لقد سألتُها بصراحة في البداية فقالت لا، ثم بعدها اعترفَت أنها كانت خائفة، وأنا أعرف أنها كانت خائفة.

ثم استمرّت بريدجيت في كلامها قائلة بقوّة: لقد كانت في خطر، كانت متأكدة تماماً من ذلك، ولكني لا أعرف لماذا أو كيف أو أيّ شيء من هذا القبيل.

- تأكّدك من هذه النقطة يرتبط بذلك الصباح على وجه الخصوص، أليس كذلك؟ الصباح الذي عادت فيه من أيرلندا.

- بلى، تأكدت منه في ذلك الوقت.

- في الصباح الذي قد تكون عادت فيه بقطار البريد الأيرلندي؟

- لا أحسبها فعلت ذلك. لِمَ لا تسألها؟

- من المحتمَل أن أفعل في النهاية ولكني لا أريد لفت الانتباه إلى هذه النقطة؛ من المحتمَل أن هذا سيجعل الأمور أكثر خطراً عليها.

فتحت بريدجيت عينيها بقوة ودهشة وقالت: ماذا تقصد؟!

- لعلّك لا تتذكرين الأمر يا آنسة بريدجيت، ولكن ذلك كان الليلة أو الصباح المبكّر الذي حدثت فيه عملية السطو على قطار البريد الأيرلندي.

- هل تقصد أن إلفيرا كانت مشتركة في ذلك وأنها لم تخبرني بأيّ شيء عن الأمر؟

- أنا أتفق معك في أن هذا بعيد الاحتمال، ولكنْ خطر لي أنها قد تكون رأت شيئاً أو شخصاً أو حادثاً يمكن أن يكون ذا صلة بقطار البريد الأيرلندي. قد تكون قد رأت شخصاً تعرفه على سبيل المثال، وهذا من الممكن أن يضعها في دائرة الخطر.

قالت بريدجيت: يا إلهي!

وفكرت في ذلك ملياً ثم قالت: تقصد شخصاً كانت تعرفه وكان متورطاً في عملية السطو؟

نهض كبير المحققين ديفي من مكانه ثم قال: أعتقد أن هذا

يكفي. هل أنت متأكدة من أنه لا يوجد عندك شيء آخر تريدين إخباري به؟ ألا تعرفين أين ذهبت صديقتك ذلك اليوم أو اليوم الذي قبله؟

مرة أخرى ظهرت أمام عينَي بريدجيت صورة السيد بولارد ومحلّ شارع بوند ثم قالت: نعم، لا أعرف.

- أعتقد أن لديك شيئاً لم تخبريني به.

أمسكت بريدجيت بفكرة طرأت على بالها وهي شاكرة مثلما يتعلق الغريق بقشّة فقالت: آه، لقد نسيت. نعم، أقصد أنها ذهبت إلى بعض المحامين هم الأوصياء عليها، ذهبت إليهم لكي تكتشف شيئاً.

- جميل، ذهبت إلى بعض الأوصياء عليها، هل تعرفين اسمهم؟

- كان اسمهم إيغرتون... فوربس وإيغرتون و... واسم آخرْ كثير من الأسماء، أعتقد أن هذا صحيح تقريباً.

- فهمت. وقد أرادت أن تكتشف شيئاً، أليس كذلك؟

- أرادت أن تعرف كم لديها من المال.

ارتفع حاجبا ديفي في دهشة وقال: حقاً؟! هذا أمر مثير للاهتمام. ألم تكُن تعرف؟

- لم يخبرها أحدٌ بأيّ شيء عن المال قط، ويبدو أنهم

كانوا يعتقدون أنه ليس من الجيّد أن تعرف كم لديها من المال في الحقيقة.

- وكانت شديدة الرغبة في أن تعرف؟

- نعم، أظن أنها اعتقدت أن ذلك مهم.

قال كبير المحقّقين ديفي: حسناً، شكراً لك. لقد ساعدتني كثيراً.

* * *

الفصل الثالث والعشرون

نظر ريتشارد إيغرتون مرّة أخرى إلى البطاقة الرسمية أمامه ثم رفع بصره إلى وجه ديفي وقال: أمر غريب!

- أجل يا سيدي، أمر غريب جداً.

- فندق بيرترام، في الضباب... أجل، لقد كان ضباباً سيّئاً الليلة الماضية، وأظن أنكم تصادفون الكثير من تلك الأمور في أثناء الضباب، أليس كذلك؟ عمليات نشل وخطف حقائب يد... مثل هذه الأشياء.

- لم يكُن الأمر هكذا، لم يكُن أحد يحاول أن ينشل شيئاً من الآنسة بليك.

- ومن أين جاءت الطلقة؟

- بسبب الضباب لا نستطيع أن نتأكد، هي نفسها لم تكُن متأكدة، ولكننا نظن (وهي تبدو أفضل فكرة) أن الرجل ربما كان يقف قريباً في المنطقة.

- هل قلت إنه أطلق عليها الرصاص مرتين؟

- نعم، الطلقة الأولى أخطأتها فاندفع الحاجب من المكان الذي كان يقف فيه خارج باب الفندق ودفعها خلفه تماماً قبل إطلاق الرصاصة الثانية.

- ولذلك تلقّى الرصاصة بدلاً منها، أليس كذلك؟

- بلى.

- يا له من رجل شجاع!

- أجل، كان شجاعاً وسجلّه العسكري كان جيداً جداً. إنه رجل أيرلندي.

- وما اسمه؟

- غورمان، مايكل غورمان.

قطب إيغرتون جبينه برهة وهو يقول: مايكل غورمان...

ثم قال: لا، لوهلة ظننت الاسم مألوفاً لديّ.

- بالطبع، إنه اسم شائع جداً. على أية حال فقد أنقذ حياة الفتاة.

- ولماذا جئت إليّ يا حضرة المحقق؟

- كنت آمل أن أحصل على معلومة صغيرة منك. نحن نحب جمع كلّ المعلومات عن المجنيّ عليه في جرائم القتل دائماً.

- آه، نعم، هذا طبيعي. ولكني لم أرَ إلفيرا إلاّ مرتين فقط في الحقيقة منذ كانت طفلة.

- لقد رأيتَها عندما جاءت لزيارتك منذ نحو أسبوع، أليس كذلك؟

- بلى، هذا صحيح تماماً. ما الذي تريد معرفته بالضبط؟ إذا كان أيّ شيء بخصوص شخصيتها أو أصدقائها أو أصحابها الشباب أو شجارها مع العشّاق وكل هذه الأمور فمن الأفضل لك أن تذهب إلى إحدى النساء. لديك السيدة كاربنتر التي أعادتها من إيطاليا -على ما أظن- والسيدة ميلفورد التي تعيش معها في كِنْت.

- لقد قابلت السيدة ميلفورد.

- حقاً؟

- حسناً، لن يفيدني هذا كثيراً فأنا لا أريد أن أعرف شيئاً عن شخصية الفتاة؛ لقد رأيتُها شخصياً وسمعت منها ما قالته لي، أو بالأحرى ما رغبَت في قوله لي.

رأى الأب أن إيغرتون قد أُعجب بكلمة «رغبَت» عندما لمح حاجبيه يتحركان حركة سريعة فقال: لقد أخبرتني أنها كانت قلقة ومتضايقة وخائفة من شيء ما، وأنها كانت مقتنعة بأن حياتها في خطر. هل كان هذا هو انطباعك عنها عندما جاءت لرؤيتك؟

قال إيغرتون متأنياً: لا، لم أظن ذلك على الرغم من أنها قالت شيئاً أو اثنين خطر ببالي أنهما غريبان بالفعل.

- مثل ماذا؟

- حسناً، أرادت أن تعرف من الذي سيستفيد مالياً إذا ماتت فجأة.

- آه، إذن فقد كانت تفكّر في احتمال موتها فجأة! هذا مثير للاهتمام، أليس كذلك؟

- كان يدور في رأسها شيء ما ولكني لم أعرفه، وأرادت أيضاً أن تعرف كم هو المبلغ الذي تمتلكه أو الذي ستحصل عليه عندما يصبح عمرها واحداً وعشرين عاماً. قد يكون هذا أكثر غموضاً.

- أظن أنه مبلغ كبير من المال.

- إنها ثروة كبيرة جداً يا حضرة كبير المحقّقين.

- ولماذا أرادت أن تعرف برأيك؟

- بخصوص المال؟

- نعم، وعن الذي سيرثه أيضاً.

- لا أعرف، لا أعرف على الإطلاق، كما أنها فتحت كذلك موضوع الزواج.

- وهل تَولّد لديك انطباع بأن في الموضوع رجلاً؟

- ليس عندي دليل ولكن... نعم، لقد اعتقدت ذلك تماماً؛ شعرتُ أنني متأكد أن في الأفق صديقاً. تكون هذه الأمور كذلك في العادة، ويبدو أن لاسكومب، ذلك الكولونيل لاسكومب وصيّها، يبدو أنه لا يعرف أيّ شيء عن وجود صديق؛ لقد انزعج كثيراً عندما أخبرتُه بوجود شيء من ذلك بعيداً عن الأنظار، ومَن المحتمَل أن يكون شخصاً غير مناسب لها.

- إنه غير مناسب فعلاً.

- ماذا؟ إذن فأنت تعرف من هو؟

- لديّ تخمين جيّد في ذلك، لاديسلوس مالينوسكي.

- سائق سيارات السباق! حقاً؟! إنه شيطان مقدام وسيم، لكنني أتعجب كيف التقى بالفيرا! لا أفهم كيف يمكن أن يلتقيا وهما من عالَمين مختلفَين، ما عدا... نعم، أظن أنه كان في روما منذ شهرين ومن المحتمَل أن تكون قد التقت به هناك.

- محتمَل جداً، ولكن ألا يمكن أن تكون قد قابلَته عن طريق والدتها؟

- ماذا؟ عن طريق بيس؟ لا أوافقك على أن هذا محتمَل أبداً.

سعل ديفي ثم قال: يقال إن الليدي سيدجويك ومالينوسكي صديقان حميمان يا سيدي.

- آه، نعم، نعم، أعرف هذه الشائعات، وربما كانت صحيحة وربما لم تكُن. إنهما صديقان حميمان اجتمعا بشكل دائم بسبب تشابه أسلوبهما في الحياة. بالطبع كانت للّيدي بيس علاقاتها الخاصّة، لكنها وابنتها لم تعرفا بعضهما بعضاً فعلياً.

- هذا ما أخبرَتني به الليدي سيدجويك، ولكن هل توافقها في ذلك؟

أومأ إيغرتون برأسه علامة الموافقة فسأله الأب: ومَن هم أقارب الآنسة بليك الآخرون؟

- لا أحد في الواقع؛ قُتل خالاها الاثنان في الحرب وكانت هي الطفلة الوحيدة للعجوز كونستون، أما السيدة ميلفورد فعلى الرغم من أن الفتاة تناديها بابنة العم ميلدريد إلاّ أنها ابنة عم الكولونيل لاسكومب في الواقع. لقد عمل لاسكومب كل ما بوسعه من أجل الفتاة بطريقته القديمة التي تعبّر عن ضمير حي، ولكن الأمر صعب بالنسبة لرجل مثله.

- قلتَ إن الآنسة بليك طرحت موضوع الزواج، أظن أنه لا يوجد احتمال لأن تكون متزوجة فعلاً.

- إنها دون السن القانونية وعليها أن تحصل على موافقة وصيّها والقيّمين عليها.

- هذا صحيح من الناحية الرسمية، ولكنهم لا ينتظرون دائماً حتى يحصلوا عليها.

- أعرف هذا، وهو شيء مؤسف يضطرّ المرء إلى اللجوء إلى المحاكم... وحتى هذا له صعوباته.

- وحالما يتزوجان ينتهي الأمر! أظن أنها لو كانت متزوجة وماتت فجأة فإن زوجها سيرثها، أليس كذلك؟

- فكرة الزواج هذه بعيدة الاحتمال جداً؛ لقد تمّت رعايتها بعناية شديدة و...

ثم توقف مستجيباً لابتسامة كبير المحقّقين ديفي الساخرة، فرغم أن تربية إلفيرا تمّت بعناية إلاّ أنه يبدو أنها نجحت في التعرف

على لاديسلوس مالينوسكي غير المناسب لها إطلاقاً، فقال بتردد: لقد هربت أمها سابقاً، هذا صحيح.

- أمها هربت سابقاً، نعم، وهذا كان مناسباً لشخصيتها. أما الآنسة بليك فإنها من نوع مختلف، إنها تماثل أمها في العناد والتصميم على فعل ما تريده، ولكنها قد تفعل نفس الشيء بطريقة مختلفة.

- أنت لا تظن حقاً أنها...

قال كبير المحقّقين ديفي: أنا لا أظن أيّ شيء، حتى الآن.

* * *

الفصل الرابع والعشرون

قلّب لاديسلوس مالينوسكي نظراته من واحد إلى آخر من ضابطَي الشرطة ثم ألقى برأسه إلى الوراء وضحك قائلاً: هذا مضحك جداً، أنتما تبدوان هادئَين كالبومة! من السخيف أن تطلبا مني أن أحضر إلى هنا لتستجوباني، لا شيء عندكم ضدي، لا شيء.

تكلّم كبير المحققين ديفي بهدوء رسمي قائلاً: نعتقد أنك قد تكون قادراً على مساعدتنا في تحقيقاتنا يا سيد مالينوسكي. أنت تملك سيارة مرسيدس أوتو رقم لوحتها «ف أ ن ٢٢٦٦».

- هل يوجد أيّ سبب يمنعني من اقتناء مثل هذه السيارة؟

- لا سبب على الإطلاق يا سيدي، ولكن لدينا شك بسيط يتعلّق بصحة الرقم. كانت سيارتك على الطريق السريع رقم «م ٧» وكانت لوحة الأرقام مختلفة وقتها.

- هراء، لا بد أنها سيارة أخرى.

- لا يوجد الكثير من هذا النوع، لقد قمنا بالتحري عن تلك السيارات.

- أعتقد أنكم تصدّقون كل شيء تقوله شرطة المرور عندكم، هذا مضحك، أين كان كل هذا؟

- المكان الذي أوقفك فيه الشرطة وطلبوا فيه منك رؤية رخصتك لم يكُن بعيداً جداً عن بيدهامبتون، لقد كان ذلك ليلة السطو على قطار البريد الأيرلندي.

قال لاديسلوس مالينوسكي: في الحقيقة أنت تضحكني.

- هل لديك مسدس؟

- نعم، عندي مسدس ذو بكرة ومسدس آلي وعندي تصريحان قانونيان بحملهما.

- صحيح تماماً، فهل ما زال الاثنان بحوزتك؟

- بالتأكيد.

- لقد حذرتُك منذ قليل يا سيد مالينوسكي.

- تحذير رجال الشرطة المعروف: أيّ شيء تقوله سوف يدوَّن ويُستخدَم كدليل ضدك في محاكمتك.

قال الأب بلطف: ليست هذه هي العبارة بالضبط؛ «يُستخدم» صحيحة لكن «ضدك» غير صحيحة. ألا تريد أن تحدد إجابتك بشكل أكبر.

- نعم، لا أريد.

- هل أنت متأكد من أنك لا تريد محاميك هنا؟

- أنا لا أحبّ المحامين.

- بعض الناس كذلك. أين هذان السلاحان الآن؟

- أظن أنك تعرف بالضبط أين هما يا حضرة كبير المحققين. المسدس الصغير في جيب سيارتي المرسيدس أوتو التي ذكرتَ رقم لوحتها قبل قليل، والمسدس ذو البكرة في دُرج داخل شقتي.

- أنت على حق تماماً بشأن ذلك الذي في درج شقتك، لكن المسدس الآخر غير موجود في سيارتك.

- بل هو موجود هناك بالفعل، في الجيب الأيسر.

هزّ الأب رأسه بالنفي قائلاً: ربما كان هناك في وقت ما، لكنه غير موجود هناك الآن.

ثم ألقى مسدساً آلياً صغيراً فوق الطاولة وقال: هل هذا هو مسدسك يا سيد مالينوسكي؟

التقطه لاديسلوس مالينوسكي مدهوشاً وقال: آه، نعم، هذا هو! إذن فأنت الذي أخذتَه من سيارتي!

قال الأب: لا، لم نأخذه من سيارتك، بل إنه لم يكُن في سيارتك أصلاً. لقد وجدناه في مكان آخر.

- أين وجدتَه؟

- وجدناه في مكان ما في شارع بوند، شارع بوند الذي تعرف -دون شك- أنه قريب من بارك لين. من الممكن أن يكون قد أسقطه رجلٌ يسير في ذلك الشارع أو ربما كان يركض.

هزّ لاديسلوس مالينوسكي كتفَيه استهجاناً وقال: ليس لهذا علاقة بي، أنا لم أضعه هناك. لقد كان في سيارتي قبل يوم أو اثنين، والمرء لا ينظر باستمرار ليرى إذا كان الشيء ما زال موجوداً في المكان الذي وضعه فيه أم لا بل يفترض أنه في مكانه.

- هل تعرف -يا سيد مالينوسكي- أن هذا هو المسدس الذي استُخدم في إطلاق النار على مايكل غورمان ليلة السادس والعشرين من الشهر؟

- مايكل غورمان! لا أعرف شخصاً يُدعى مايكل غورمان.

- حاجب فندق بيرترام.

- آه، نعم، ذاك الذي قُتل؟ لقد قرأت عنه. أتقصد أنه قُتل بمسدسي؟ هراء!

- ليس كذلك؛ لقد فحصه خبراء المقذوفات النارية، وأنت تعرف ما فيه الكفاية عن الأسلحة لكي تدرك أن دليلهم موثوق به.

- أنت تحاول أن تلفّق لي تهمة، أنا أعرف ما تفعلونه أيها الشرطة.

- أظن أنك تعرف أن شرطة هذا البلد أفضل ممّا تقول يا سيد مالينوسكي.

- هل تلمّح إلى أنني قتلتُ مايكل غورمان؟

- هذا مجرّد استجواب حتى الآن ولم يتم توجيه أيّ اتهام رسمي لك.

- ولكن هذا ما تعتقده، أنني قتلت ذلك الرجل السخيف الذي يلبس اللباس العسكري، لماذا؟ أنا لم أكُن مديناً له بمال ولا أحمل أي ضغينة ضدّه.

- لقد كان المقصود بإطلاق الرصاص فتاة صغيرة، فركض غورمان لحمايتها وتلقّى الطلقة الثانية في صدره.

- فتاة صغيرة؟

- فتاة صغيرة أعتقد أنك تعرفها، الآنسة إلفيرا بليك.

- تريد أن تقول إن شخصاً حاول قتل إلفيرا بمسدسي؟!

بدا ميّالاً إلى الشكّ وغير مصدق فقال الأب: ربما حدث بينكما خلاف.

- تقصد أنني تشاجرت مع إلفيرا وأطلقت عليها الرصاص؟ أيّ جنون هذا؟! لماذا أقتل الفتاة التي سأتزوجها؟

- هل هذا جزء من إفادتك؟ أقصد قولك إنك ستتزوج الآنسة إلفيرا بليك.

تردّد لاديسلوس برهة قصيرة فقط ثم قال وهو يهزّ كتفيه استهجاناً: إنها ما زالت صغيرة جداً، وستبقى هذه المسألة بحاجة إلى نقاش.

- ربما وعدتك بالزواج بك ثم... ثم غيرت رأيها. لقد كانت تخاف من شخص ما، فهل كان هذا هو أنت يا سيد مالينوسكي؟

- لماذا أريدها أن تموت؟ إمّا أنني أحبها وأريد الزواج بها أو

إذا لم أكن أريد الزواج بها فلا حاجة بي لأن أتزوجها. الأمر بمثل هذه البساطة، إذن لماذا أقتلها؟

- لا يوجد الكثير من الأشخاص القريبين منها لكي يريدوا قتلها.

وتوقف ديفي لحظة ثم قال بصورة عرَضية تقريباً: توجد أمّها بالطبع و...

قفز مالينوسكي صائحاً: ماذا؟ بيس؟! بيس تقتل ابنتها؟! أنت مجنون! لماذا تقتل بيس إلفيرا؟

- ربما كان هذا لأنها قد ترث ثروة ضخمة من المال لكونها أقرب الأقارب إليها.

- بيس! هل تقصد أن بيس يمكن أن تقتل من أجل المال؟ إن لديها الكثير من المال من زوجها الأمريكي، مبلغ يكفيها على أية حال.

- المبلغ الكافي ليس مثل الثروة الضخمة. الناس يقتلون فعلاً من أجل ثروة ضخمة، وقد عرفت أمهات قتلن أطفالهن وأبناء قتلوا أمهاتهم.

- أقول لك إنك مجنون.

- أنت تقول إنك ستتزوج الآنسة بليك، لكن ربما كنت قد تزوجتها بالفعل. وإذا كان الأمر كذلك فستكون أنت الشخص الذي سيرث ثروة هائلة.

- ما هذه الأشياء المجنونة والغبية التي تقولها؟ لا، أنا لم أتزوج إلفيرا. إنها فتاة جميلة وأنا معجب بها وهي تحبني وكنت سأتزوجها، نعم، أعترف بذلك كله. قابلتُها في إيطاليا وتمشينا معاً، ولكن هذا كل شيء، لا أكثر... هل تفهم؟

- لقد قلتَ لتوّك بصورة جازمة إنها الفتاة التي كنت ستتزوجها يا سيد مالينوسكي، أليس كذلك؟

- ماذا؟

- هل كان هذا صحيحاً؟

- قلتُ هذا لأنه يبدا أكثر حشمة بهذه الطريقة.

- هذا يبدو لي تفسيراً غير معقول.

- أنت لا تفهم شيئاً على الإطلاق! أنا والأم يحب بعضنا بعضاً. لم أكُن أرغب في أن أقول ذلك، وقد رأيتُ بدلاً منه أن أقول إنني وابنتها سوف نتزوج، وهذا يبدو منسجماً ولائقاً جداً مع التقاليد الإنكليزية.

- يبدو لي هذا أكثر مبالغة. أنت في حاجة ماسّة إلى المال، أليس كذلك سيد مالينوسكي؟

- عزيزي المحقق! أنا في حاجة إلى المال دائماً، هذا شيء يؤسَف له جداً.

- ومع ذلك فقد عرفتُ أنك كنت تبذّر الأموال هنا وهناك بسعادة منذ بضعة أشهر.

- أجل، لقد فزتُ برهان في سباق الخيل. أنا مقامر، أعترف بهذا.

- أجد أن هذا عذر يمكن تصديقه بسهولة. أين فزت بهذا الرهان؟

- هذا ما لا أريد البوح به، فلا تتوقع مني أن أجيب على هذا السؤال.

- أنا لا أتوقع ذلك بالفعل.

- هل هذا كل ما تريد أن تسألني عنه؟

- نعم، في هذه المرة. لقد أقررتَ بأن المسدس ملكك وهذا سيساعدنا كثيراً.

- أنا لا أفهم، لا أستطيع إدراك...

ثم توقف ومدّ يده قائلاً: أعطني المسدس من فضلك.

- أخشى أننا سنحتفظ به في الوقت الحالي، ولذلك سأكتب لك وصلاً به.

فعل ذلك وسلّم الوصل لمالينوسكي الذي خرج وهو يضرب الباب بعنف، فقال الأب: إنه رجل حادّ المزاج.

- لماذا لم تضغط عليه في مسألة الرقم المزيّف للسيارة وموضوع بيدهامبتون؟

- أردت إزعاجه، ولكن ليس إزعاجاً شديداً. ستعطيه شيئاً واحداً يقلقه في الوقت الحالي، وقد أصبح قلقاً.

- الرجل العجوز يريد رؤيتك يا سيدي حال انتهائك.

أومأ كبير المحققين ديفي برأسه علامة الموافقة وسار إلى غرفة السيد رونالد الذي قال له: مرحباً أيها الأب، هل أنجزتَ تقدماً؟

- نعم، إنني أسير قُدُماً بطريقة رائعة. في الشبكة الكثير من الأسماك، سمك صغير حتى الآن ولكننا نقترب من الأشخاص الكبار، وكل شيء يسير بصورة صحيحة.

قال السيد رونالد: عمل جيد يا فريد.

* * *

الفصل الخامس والعشرون

-١-

خرجت الآنسة ماربل من قطارها في محطة بادنغتون ورأت كبير المحققين ديفي ذا الجسم الضخم يقف على الرصيف بانتظارها فقال لها: إنه لطف كبير منك يا آنسة ماربل.

ووضع يده على مرفقها وقادها من خلال الحاجز إلى حيث كانت سيارة تنتظر، ففتح السائق الباب ودخلت الآنسة ماربل وتبعها ديفي وانطلقت السيارة في حين قالت الآنسة ماربل: إلى أين ستأخذني يا سيد ديفي؟

- إلى فندق بيرترام.

- يا إلهي! فندق بيرترام مرّة أخرى؟ لماذا؟!

- الردّ الرسمي هو: لأننا نعتقد أنك تستطيعين مساعدتنا في تحقيقاتنا.

- الأمر يبدو مألوفاً ولكنه مشؤوم بالتأكيد؛ غالباً ما يكون هذا مقدّمة لعملية اعتقال، أليس كذلك؟

- أنا لن أعتقلك يا آنسة ماربل.

وابتسم الأب ثم أضاف: فلديك حجّة غياب.

ابتلعت الآنسة ماربل ذلك بصمت ثم قالت: فهمت.

انطلقوا إلى فندق بيرترام بصمت، وهناك رفعت الآنسة غورينغ بصرها عندما دخلوا، ولكن كبير المحقّقين ديفي قاد الآنسة ماربل ناحية المصعد وقال لعامل المصعد: الطابق الثاني.

انطلق المصعد ثم توقف، وقاد الأب الطريق على طول الممر، وبينما كان يفتح باب الغرفة رقم ١٨ قالت الآنسة ماربل: هذه نفس الغرفة التي كنت أقيم فيها عندما كنتُ هنا من قبل.

قال الأب: أجل.

جلست الآنسة ماربل على المقعد ثم قالت ملاحِظةً وهي تنظر حولها وتسحب نَفَساً خفيفاً: إنها غرفة مريحة جداً.

- إنهم هنا يعرفون جيّداً معنى الراحة بالتأكيد.

قالت الآنسة ماربل على غير توقع: أنت تبدو مجهَداً يا حضرة المحقق.

- كان لديّ الكثير من التجوال، وفي الواقع لقد عدت لتوّي من أيرلندا.

- حقاً؟ من باليغولان؟

- كيف عرفتِ عن موضوع باليغولان أيتها العبقرية؟!

ابتسمت الآنسة ماربل فقال المحقق: لعل مايكل غورمان أخبرك أنه جاء من هناك، هل كان هذا هو السبب؟

قالت الآنسة ماربل: لا، ليس ذلك بالضبط.

- كيف إذن؟ إذا سمحتِ لي أن أسألك، كيف عرفت؟

- يا إلهي! إنه أمر محرج جداً في الحقيقة، كان ذلك مجرّد شيء سمعته عرَضاً.

- آه، نعم.

- لم أكُن أختلس السمع؛ لقد كانت غرفة عامّة، من الناحية النظرية على الأقل. بصراحة أنا أستمتع بالاستماع إلى الناس وهم يتحدثون، المرء يفعل ذلك أحياناً ولا سيما عندما يكون كبيراً في السن ولا يكون قادراً على الحركة كثيراً... أقصد إذا كان الناس يتحدثون قريباً منك فإنك ستسمع.

- حسناً، هذا يبدو لي طبيعياً جداً.

- إلى حدّ ما نعم، إذا اختار الناس عدم خفض أصواتهم فإن على المرء أن يفترض أنهم لا يمانعون في أن يسمعهم الآخرون، ولكن يمكن أن تتطور الأمور بالطبع. تنشأ المشكلة أحياناً عندما تدرك أنه على الرغم من أنها غرفة عامة فإن الناس الآخرين الذين يتحدثون لا يدركون أن فيها شخصاً آخر، وبعدها على المرء أن يقرّر ماذا يعمل بخصوص ذلك، أينهض ويسعل أم يبقى هادئاً راجياً أنهم لن يدركوا أنه كان هناك؟ كلتا الحالتين تسبّب الحرج.

حدّق كبير المحقّقين ديفي في ساعته ثم قال للآنسة ماربل:

انتظري هنا، أريد أن أسمع منك المزيد عن هذا ولكن الكاهن بينيفاذر سيصل في أية لحظة. لا بدّ أن أذهب وأحضره، هل تمانعين؟

- لا أمانع إطلاقاً.

غادر كبير المحقّقين ديفي الغرفة.

-٢-

دخل الكاهن بينيفاذر من الباب الدوّار إلى قاعة فندق بيرترام. كان يقطّب جبينه قليلاً ويتساءل عمّا يبدو مختلفاً قليلاً في فندق بيرترام في ذلك اليوم. ربما كان قد طُلي حديثاً أو تمّ تجديده بطريقة ما... هزّ رأسه؛ لم يكُن الأمر كذلك ولكن كان هناك شيء ما مختلف! لم يظهر له أن ذلك كان الفرق بين الحاجب ذي العينين الزرقاوين والشعر الأسود الذي كان طوله ست أقدام والحاجب القصير ذي الكتفين المائلتين والذي يكسو النمش وجهه مع شعر رملي اللون يبرز كالقش من تحت قبّعته! لقد عرف فقط أن هناك شيئاً مختلفاً.

مشى باتجاه مكتب الاستقبال بطريقته الغامضة المعتادة حيث كانت الآنسة غورينج هناك وبادرت بتحيته قائلة: الكاهن بينيفاذر، كم هو لطيف أن أراك. هل جئتَ لكي تأخذ أمتعتك؟ إنها جاهزة بانتظارك ولو أنك أخبرتنا فقط لكنّا أرسلناها لك إلى أيّ عنوان تريده.

قال الكاهن بينيفاذر: شكراً جزيلاً لك، أنت دائماً لطيفة جداً

يا آنسة غورينج. ولكن بما أنني جئت إلى لندن هذا اليوم فقد فكّرت في زيارتكم أيضاً.

- لقد كنّا قلقين جداً عليك لأنك كنت مفقوداً ولم يكُن أحدٌ قادراً على العثور عليك. لقد سمعتُ أنك تعرضت إلى حادث سيارة؟

- نعم، الناس يقودون سياراتهم بسرعة شديدة في هذه الأيام وهُم خطيرون جداً! ولكنني لا أتذكر الكثير عن ذلك، لقد أثّر الحادث على رأسي حيث أُصبتُ بارتجاج في الدماغ كما يقول الطبيب. آه، حسناً، حيث إن الإنسان يتقدم به العمر فإن ذاكرته...

ثم هزّ رأسه بحزن وقال: وكيف حالك أنت يا آنسة غورينج؟

قالت الآنسة غورينج: أنا في صحّة جيّدة، شكراً لاهتمامك.

في تلك اللحظة خطر ببال الكاهن بينيفاذر أن الآنسة غورينج كانت أيضاً مختلفة فاختلس النظر إليها محاولاً أن يحلّل أين يكمن الاختلاف، أهو شعرها؟ لقد كان نفس الشيء كالمعتاد ولكنه قد يكون مجعّداً أكثر قليلاً. كانت ترتدي ثوباً أسود وقلادة كبيرة ودبّوساً ذهبياً عليه نقش بارز... كل هذا كان كالمعتاد، ولكن كان يوجد اختلاف! هل كانت أنحف ممّا كانت عليه قليلاً أم أنها...؟ نعم، بالتأكيد، كانت تبدو قلقة.

في الغالب لم يكُن الكاهن بينيفاذر ليلاحظ إذا كان الناس قلقين أو غير قلقين؛ لم يكُن من ذلك النوع من الرجال الذين يلاحظون الانفعال على وجوه الآخرين، ولكن هذا خطر بباله في

ذلك اليوم، ربما لأن الآنسة غورينج كانت تُظهر بصورة ثابتة نفس ملامح الوجه لنزلائها منذ سنوات عديدة.

سألها وهو توّاق إلى المعرفة: أرجو أن لا تكوني مريضة... إنك تبدين أنحف قليلاً.

- حسناً، لقد كان عندنا الكثير من القلق أيها الكاهن بينيفاذر.

- حقاً؟! يؤسفني أن أسمع ذلك، أرجو أن لا يكون ذلك بسبب اختفائي؟

- لا، لقد كنّا قلقين من ذلك بالطبع ولكننا بمجرّد أن سمعنا أنك على ما يرام...

توقفت عن الحديث ثم تابعت: لا، إنه... حسناً، لعلك لم تقرأ عن الأمر في الصحف. إنه غورمان، عاملنا الذي كان يقف في الخارج... لقد قُتل.

- آه، نعم، تذكرت الآن؛ لقد قرأتُ في الصحيفة فعلاً أنه حصل عندكم حادث قتل هنا.

ارتجفت الآنسة غورينج عند ذكر كلمة «قتل» الفظّة هذه، وقد غطت الرجفة جسمها كله وقالت: إنه أمر فظيع، فظيع! لم يحدث مثل هذا الشيء قط في فندق بيرترام، أقصد أن فندقنا ليس من النوع الذي تحدث فيه جرائم قتل!

قال الكاهن بينيفاذر بسرعة: نعم، أنا متأكد من أنكم لستم كذلك، أقصد أنه لم يخطر ببالي قط أن شيئاً كهذا يمكن أن يحدث هنا.

قالت الآنسة غورينج مبتهجة قليلاً عندما خطرت لها الفكرة: بالطبع لم يكُن ذلك داخل الفندق، لقد كان في الخارج في الشارع.

قال الكاهن وهو يساعدها: إذن فليس لذلك أيّ علاقة بكم على الإطلاق.

كان من الواضح أن ذلك لم يكُن صحيحاً فقالت: ولكنه كان مرتبطاً بفندق بيرترام، كان علينا أن نحضر الشرطة إلى هنا للتحقيق مع الناس لأن الذي قُتل هو حاجبنا.

- إذن فهذا هو الرجل الجديد الذي أحضرتموه في الخارج. أتعرفين؟ لقد أحسستُ أن الأمور تبدو غريبة نوعاً ما.

- أجل، لا أعرف إن كان مُرضياً كثيراً، وأعتقد أنه لا يتعامل بنفس الأسلوب الذي اعتدنا عليه هنا ولكن كان علينا أن نحضر شخصاً بسرعة بالطبع.

قال الكاهن بينيفاذر وهو يستحضر بعض الذكريات الغامضة عن الذي قرأه في الصحيفة قبل أسبوع: أنا أتذكّر كل شيء عنه الآن، ولكني ظننت أن فتاة هي التي قُتلت.

- أتقصد ابنة الليدي سيدجويك؟ أظن أنك تتذكر رؤيتها هنا مع وصيّها الكولونيل لاسكومب. من الواضح أنها هوجمَت من قِبَل شخص ما في الضباب، لعلهم أرادوا خطف حقيبتها... على أية حال فقد أطلقوا رصاصة عليها فأسرع غورمان الذي كان بالطبع

جندياً ورجلاً حاضر الذهن تماماً، أسرع إليها ووقف أمامها فتلقّى الرصاصة بنفسه! مسكين ذلك الرجل.

قال الكاهن بينفاذر وهو يهزّ رأسه: هذا محزن جداً، محزن جداً.

اشتكت الآنسة غورينج قائلة: هذا يجعل كل شيء صعباً، أقصد... إن الشرطة يدخلون ويخرجون بصورة مستمرة. أظن أن هذا متوقّع ولكننا لا تحب ذلك هنا، على الرغم من أنني يجب أن أعترف بأن رئيس المحقّقين ديفي والرقيب وادل محترمان تماماً ويرتديان ملابس مدنيّة أنيقة جداً ولا يرتديان ذلك النوع من الأحذية والمعاطف المضادّة للمطر مما نشاهده في الأفلام... إنهما كأيّ واحد منّا تقريباً.

- أجل، هذا صحيح تماماً.

سألته الآنسة غورينج: هل ذهبت إلى مستشفى؟

قال الكاهن: لا، لقد أخذني شخص لطيف جداً، في الحقيقة كان فاعل خير طيّباً، أخذني هو وزوجته وعالجاني. أنا ممتنّ لهما كثيراً فمن الجميل أن نجد أنه ما زال في العالم طيبة وإنسانية، ألا تعتقدين ذلك؟

قالت الآنسة غورينج إنها تعتقد أن ذلك جميل جداً ثم أضافت: ورغم ذلك نقرأ عن زيادة معدّل الجريمة، كل هؤلاء الشبّان المخيفين الذين يقتحمون البنوك ويسرقون القطارات وينصبون الكمائن للناس...!

ثم رفعت بصرها وقالت: ها هو كبير المحقّقين ديفي ينزل عن الدرَج الآن، أظن أنه يريد أن يتحدث معك.

قال الكاهن بينفاذر وهو متحيّر: لا أعرف لماذا يريد أن يتحدث معي! لقد رآني سابقاً في شادمينستر وأظن أن أمله قد خاب لأنني لم أستطع أن أخبره بأيّ شيء مفيد.

- لم تستطع؟!

هزّ الكاهن رأسه بأسف وقال: لم أستطع أن أتذكر، لقد وقع الحادث في مكان قرب بلدة تُدعى بيدهامبتون، وفي الحقيقة لا أعرف ماذا كنت أفعل هناك! سألني المحقق بإلحاح لماذا كنت هناك ولكنني لم أستطع أن أجيبه. هذا غريب جداً، أليس كذلك؟ لعله ظن أنني كنت أقود سيارة من مكان ما قرب محطّة القطارات متجهاً إلى كنيسة ما.

قالت الآنسة غورينج: أليس هذا ممكناً.

- بل هو لا يبدو محتمَلاً أبداً، ولماذا أقود سيارتي في مكان من العالَم لا أعرفه على الإطلاق؟!

وصل كبير المحقّقين ديفي إليهما في تلك اللحظة وقال: إذن أنت هنا أيها الكاهن بينفاذر؟ هل تشعر بأنك على ما يُرام الآن؟

- نعم، أشعر بصحة جيدة الآن ولكن صداع الرأس ما زال ينتابني، وقد أخبرني الأطباء بأن لا أعمل كثيراً، ولكني ما زلت لا أتذكر ما كان يجب عليّ تذكّره، ويقول الطبيب إن ذاكرتي من المحتمَل أن لا تعود لي أبداً.

- لا أيها الكاهن، يجب أن لا تفقد الأمل.

وأخذ الكاهنَ بعيداً عن مكتب الاستقبال وقال: أريد منك أن تقوم بتجربة صغيرة، وأنت لا تمانع في مساعدتي، أليس كذلك؟

-٣-

عندما فتح كبير المحقّقين ديفي باب الغرفة رقم 18 كانت الآنسة ماربل ما تزال جالسة في مقعدها بجانب النافذة فقالت ملاحظة: في الشارع الكثير من الناس اليوم، أكثر من المعتاد.

- هذا أمر طبيعي؛ فهذا الطريق يؤدّي إلى ساحة بيركلي وسوق شبرد.

- لا أقصد المشاة، ولكن يوجد رجال يعملون... إصلاحات طرق وعربة إصلاح هواتف وعربة لحوم وسيارتان خاصّتان...

- هل لي أن أسأل: ماذا استنتجت من ذلك؟

- لم أقُل إنني استنتجت أيّ شيء.

نظر الأب إليها ثم قال: أريدك أن تساعديني.

- بالطبع، هذا هو سبب وجودي هنا. ماذا تريدني أن أفعل؟

- أريدك أن تفعلي بالضبط ما فعلتِه ليلة التاسع عشر من شهر تشرين الثاني. كنت نائمة واستيقظت (ومن المحتمَل أنّ صوتاً غير عاديّ قد أيقظك)، فأضأتِ النور ونظرتِ إلى الساعة ثم نهضت من

سريرك وفتحت الباب ونظرت إلى الخارج، هل يمكنك أن تكرري هذه الأفعال؟

قالت الآنسة ماربل: بالتأكيد.

ثم نهضت عن مقعدها واتجهت إلى السرير، وذهب كبير المحققين ديفي ودقّ بأصابعه على حائط الغرفة المجاورة فقالت الآنسة ماربل: عليك أن تفعل ذلك بشكل أقوى؛ هذا المكان مبنيّ بصورة جيدة.

ضاعف ديفي قوة ضرباته ثم قال وهو ينظر إلى ساعته: لقد أخبرت الكاهن بينيفاذر أن يعدّ إلى العشرة. والآن، هيا.

أضاءت الآنسة ماربل المصباح الكهربائي ونظرت إلى ساعة تخيّلية، ثم نهضت من سريرها ومشت إلى الباب ففتحته ونظرت إلى الخارج، عن يمينها كان الكاهن بينيفاذر يغادر غرفته لتوّه ويسير ناحية رأس الدرَج ناظراً إلى الأسفل. وحبست الآنسة ماربل أنفاسها ثم عادت إلى غرفتها فسألها ديفي: حسناً، ما رأيك؟

قالت الآنسة ماربل: الرجل الذي رأيتُه في تلك الليلة لا يمكن أن يكون الكاهن بينيفاذر، ليس إذا كان الكاهن بينيفاذر هو الشخص الذي رأيتُه الآن.

- أعتقد أنك قلتِ...

- أعرف. لقد بدا مثل الكاهن بينيفاذر تماماً، شعره وملابسه وكل شيء، ولكنه لم يكُن يمشي بنفس الطريقة. أعتقد... أعتقد أنه لا بدّ أن يكون رجلاً أصغر منه سناً. أنا آسفة، آسفة جداً لأنني

ضلّلتك ولكنه لم يكُن الكاهن بينيفاذر ذلك الذي رأيته تلك الليلة، أنا متأكدة من هذا تماماً.

- هل أنت متأكدة تماماً هذه المرة يا آنسة ماربل؟

- نعم.

ثم أضافت مرّة أخرى: أنا آسفة لأنني ضلّلتك.

- لقد كنتِ محقّة تقريباً؛ لقد عاد الكاهن بينيفاذر إلى الفندق تلك الليلة فعلاً، لم يرَه أحد وهو يدخل ولكن ذلك لم يكُن ملفتاً للنظر لأنه دخل بعد منتصف الليل. صعد الدرَج وفتح باب غرفته، تلك الغرفة المجاورة ودخل إليها، أمّا الذي رآه أو الذي حدث بعد ذلك فلا نعرفه لأنه لا يستطيع أن يخبرنا. لو أننا نستطيع أن نستثير ذاكرته بطريقة ما...

قالت الآنسة ماربل متفكرة: لدينا تلك الكلمة الألمانية بالطبع.

- أيّ كلمة ألمانية؟!

- يا إلهي، لقد نسيتها الآن، ولكن...

في تلك اللحظة سُمع صوت دقات على الباب تبعها صوت الكاهن بينيفاذر قائلاً: هل يمكنني أن أدخل؟

ثم دخل وقال: هل كان ذلك مرضياً؟

قال الأب: مرضياً جداً، كنت لتوّي أقول للآنسة ماربل... هل تعرف الآنسة ماربل؟

قال الكاهن بينيفاذر وهو في الحقيقة غير متأكد إن كان يعرفها أو لا: آه، نعم.

- كنت أقول للآنسة ماربل لتوّي كيف أننا تعقّبنا تحركاتك. لقد عدتَ إلى الفندق في تلك الليلة بعد منتصف الليل وصعدت إلى غرفتك وفتحت الباب ودخلت...

ثم توقف فجأة حين صرخت الآنسة ماربل وقالت: لقد تذكرت الآن، تذكّرت الكلمة الألمانية. إنها دوبِلْغانغَر، أي المجرم البديل.

صرخ الكاهن بينيفاذر: بالطبع، بالطبع، كيف نسيت؟ أنتِ على حق تماماً. بعد ذلك الفِلم «أسوار أريحا» عدت إلى هنا وصعدت وفتحت غرفتي ورأيت... رأيتُ شيئاً غريباً! لقد رأيت نفسي بوضوح وأنا أجلس على كرسي وأقابل نفسي! كما قلتِ يا سيدتي العزيزة، كم هو ملفت للنظر! ثم بعد ذلك... دعني أتذكر.

ورفع عينيه محاولاً التذكر فقال الأب: وبعد ذلك أصابهم الذعر عندما رأوك لأنهم اعتقدوا أنك كنت في لوسيرن، ثم قام شخص وضربك على رأسك.

* * *

الفصل السادس والعشرون

أُرسلَ الكاهن بينيفاذر في سيارة أجرة إلى المتحف البريطاني وقام كبير المحقّقين بمرافقة الآنسة ماربل إلى بهو الفندق، وعندما طلب منها انتظاره لمدة عشر دقائق تقريباً لم يكُن عند الآنسة ماربل مانع في ذلك مرحّبة بفرصة الجلوس والنظر حولها والتفكير.

فندق بيرترام، ذكريات كثيرة جداً... لقد صهر الماضي نفسه مع الحاضر، عادت إلى ذاكرتها عبارة فرنسية تقول: «الكثير يتغير، والكثير يبقى على حاله»، ثم عكست العبارة فأصبحت: «الكثير يبقى على حاله، والكثير يتغير»، واعتقدَت أن العبارتين كلتيهما صحيحتان.

شعرت بحزن على فندق بيرترام وعلى نفسها، وتساءلت عن الذي يريده منها كبير المحقّقين بعد ذلك. أحسّت فيه باستثارة مَن يقترب من الوصول إلى هدفه. لقد كان رجلاً تؤتي خططُه ثمارَها في النهاية، وكان ذلك اليوم بالنسبة لكبير المحقّقين ديفي هو يوم شنّ الهجوم.

سارت الحياة في فندق بيرترام كالمعتاد... ولكن لا؛ لقد

قرّرَت الآنسة ماربل أن ذلك لم يكُن كالمعتاد. أحسّت باختلاف على الرغم من أنها لم تستطع أن تحدد أين يقع الاختلاف، ربما ساورها شعور خفيّ بالقلق!

سألها الأب بلطف: هل أنتِ مستعدّة؟

- إلى أين ستأخذني الآن؟

- نريد أن نزور الليدي سيدجويك.

- هل تقيم هنا؟

- نعم، مع ابنتها.

نهضت الآنسة ماربل على قدميها وألقت نظرة حولها وهمست: فندق بيرترام المسكين!

- ماذا تقصدين؟

- أعتقد أنك تعرف جيّداً ماذا أقصد.

- حسناً، إذا نظرتُ إلى الأمر من وجهة نظرك أنت فقد أكون عارفاً.

- من المؤسف دائماً أن يتمّ إتلاف عمل فنّي.

- هل تسمّين هذا المكان عملاً فنياً؟!

- بالتأكيد، وأنت أيضاً تسميه كذلك.

اعترف لها الأب قائلاً: أنا أفهم ما تقصدين.

- الأمر كما لو أنك وجدت نباتاً تنتشر جذوره بحالة سيئة

جداً في رقعة من الأرض، لن تستطيع فعل شيء آخر سوى أن تقوم بحفر الرقعة كلها.

- أنا لا أعرف الكثير عن الزراعة، ولكن غيّري التشبيه ليصبح «في حالة تعفّن» بدلاً من «حالة سيئة» وبعد ذلك سأوافق.

استقلاّ المصعد ثم سارا في الممرّ إلى حيث تقيم الليدي سيدجويك وابنتها في الجناح البعيد، ودقّ المحقق على الباب فسمع صوتاً يأذن بالدخول فدخل والآنسة ماربل وراءه.

جلست الليدي سيدجويك في مقعد ذي ظهر مرتفع قرب النافذة وعلى ركبتها كتاب لم تكُن تقرؤه. قالت له: إذن ها أنت ثانية يا حضرة المحقق؟

ثم نقلت عينيها منه إلى الآنسة ماربل، وبدا عليها شيء من المفاجأة فقال ديفي: أقدّم لك الآنسة ماربل.

ثم أشار إلى الليدي سيدجويك وقال للآنسة ماربل: آنسة ماربل، أقدّم لك الليدي سيدجويك.

قالت بيس سيدجويك: لقد قابلتُك من قبل. كنتِ مع سيلينا هيزي منذ أيام، أليس كذلك؟ تفضّلي بالجلوس.

ثم التفتت ناحية كبير المحقّقين ديفي مرّة أخرى وقالت: هل لديك أيّ أخبار عن الرجل الذي أطلق النار على إلفيرا؟

- في الحقيقة ليس ممّا يمكن أن تسميه أخباراً.

- أشكّ أنك لن تحصل على أخبار أبداً؛ في ضباب كهذا

تخرج المخلوقات المفترسة وتبحث عن نساء يتمشّين وحدهن.

- هذا صحيح إجمالاً. كيف حال ابنتك؟

- آه، إلفيرا بحالة جيدة الآن.

- هل هي موجودة معك هنا؟

- نعم، لقد اتصلتُ بوصيّها الكولونيل لاسكومب وقد سرته رغبتي في تولّي مسؤوليتها.

ثم أطلقت ضحكة مفاجئة وقالت: ذلك العجوز العزيز، كان يلحّ دائماً على لَمّ شمل الأم مع ابنتها.

قال ديفي: قد يكون مُحقاً في ذلك.

- آه، ليس الأمر كذلك بصورة قطعية بل هو كذلك الآن فقط، أظن أن أفضل شيء...

أدارت رأسها لكي تنظر من النافذة ثم قالت وقد تغيّرت نبرات صوتها: لقد سمعتُ أنك اعتقلت صديقاً لي، لاديسلوس مالينوسكي. ما هي التهمة؟

صحّح ديفي معلوماتها قائلاً: لم يُعتقل، إنه يساعدنا في تحقيقاتنا فقط.

- لقد أرسلتُ محاميّ لكي يعتني بأمره.

- إنه تصرّف حكيم جداً؛ أيّ شخص يواجه مشكلة بسيطة مع

الشرطة يكون حكيماً إذا أحضر محامياً وإلاّ فمن السهل أن يقول شيئاً خطأ.

- حتى لو كان بريئاً تماماً؟

- قد تزداد الحاجة إلى المحامي في مثل تلك الحالة.

- أنت تسخر، أليس كذلك؟ ما الذي كنت تستجوبه بخصوصه؟ هل لي أن أسألك عن ذلك؟

- على سبيل المثال: أردنا معرفة تحركاته بالضبط في الليلة التي قُتل فيها مايكل غورمان.

انتصبَت بيس سيدجويك وهي جالسة في مقعدها وقالت: هل لديك فكرة سخيفة بأن لاديسلوس أطلق تلك الرصاصات على إلفيرا؟ إنهما حتى لا يعرف أحدهما الآخر.

- من المحتمَل أن يكون قد فعل ذلك؛ كانت سيارته واقفة عند الركن القريب.

قالت الليدي سيدجويك بغلظة: هراء.

- إلى أي درجة أزعجك إطلاق النار ذاك الذي حدث في تلك الليلة يا سيدة سيدجويك؟

فوجئت قليلاً ثم قالت: من الطبيعي أنني انزعجت عندما كادت ابنتي تفقد حياتها، ماذا تتوقع؟

- لا أقصد ذلك، بل أقصد: إلى أيّ درجة أزعجك موت مايكل غورمان؟

- لقد أسفت لذلك جداً؛ كان رجلاً شجاعاً.

- هل هذا كل شيء؟

- وما الذي تتوقع منّي أن أقوله أكثر من ذلك؟

- لقد كنتِ تعرفينه، أليس كذلك؟

- بلى بالطبع؛ كان يعمل هنا.

- بل كنتِ تعرفينه أكثر من ذلك قليلاً.

- ماذا تقصد؟

- هيّا يا سيدة سيدجويك! لقد كان زوجك، أليس كذلك؟

لم تُجب عليه لبرهة على الرغم من أنها لم تُظهِر أيّ إشارة تدلّ على الإثارة أو المفاجأة، ثم قالت: يبدو أنت تعرف الكثير يا حضرة المحقق؟

ثم تنهدت وأرخت نفسها على مقعدها وقالت: أنا لم أرَه منذ... دعني أتذكر، منذ عدد كبير من السنوات، عشرين أو أكثر من عشرين سنة. ثم نظرتُ من النافذة في أحد الأيام، وفجأة رأيتُ ميكي وعرفتُه.

- وهل عرفك؟

- من قبيل المفاجأة أن كلاً منا عرف الآخر. لقد عشنا معاً لمدة أسبوع فقط تقريباً، ثم لحقت عائلتي بنا ودفعوا مبلغاً لميكي وأخذوني إلى البيت بطريقة مخزية.

تنهدت ثم قالت: لقد كنتُ صغيرة عندما هربتُ معه؛ كنت أعرف القليل جداً، كنت مجرّد فتاة حمقاء ذات رأس مليء بالأفكار الرومنسية وكان ميكي بالنسبة لي بطلاً بسبب طريقة ركوبه الحصان. لم يكُن يعرف معنى الخوف وكان وسيماً ومرحاً ذا لسان أيرلندي. لقد هربتُ معه فعلاً إذ كنت طائشة وعنيدة وواقعة في الحب بجنون!

ثم هزّت رأسها وأكملت: لم يدُم هذا طويلاً، فقد كانت الساعات الأربع والعشرون الأولى كافية لكي تحرّرني من الأوهام. كان مدمناً على الخمر وكان فظاً متوحشاً! وعندما جاءت عائلتي وأخذتني معها كنت شاكرة. لم أُرِد أن أراه أو أسمع منه ثانية.

- هل عرفَت عائلتك أنك تزوجتِه؟

- لا.

- ألم تخبريهم؟

- لم أعرف أنني كنت متزوجة.

- كيف ذلك؟!

- تزوجنا في باليغولان، ولكن لدى قدوم عائلتي جاء ميكي إليّ وأخبرني أن الزواج كان زائفاً وأنه قد لفّقه هو وأصحابه فيما بينهم كما قال، وفي ذلك الوقت بدا لي هذا أمراً من الطبيعي أن يفعله. أنا لا أعرف إذا كان قد أراد المال الذي عُرِض عليه أم أنه كان خائفاً من كونه قد ارتكب مخالفة قانونية عندما تزوجني وأنا دون السن القانونية. على أيّ حال لم أشكّ لحظة في أن الذي قاله لم يكُن صحيحاً، ليس في ذلك الوقت.

- وبعدها؟

بدت وكأنها غارقة في أفكارها ثم قالت: لم يكُن ذلك... آه، لم يكُن ذلك إلاّ بعد مرور عدد من السنوات؛ عندما عرفت أكثر عن الحياة وعن الأمور القانونية، فظهر لي فجأة أنه من المحتمَل أن أكون قد تزوجت ميكي غورمان فعلاً.

- إذن ففي واقع الأمر أنك حين تزوجتِ اللورد كونستون وأنت على ذمّة زوجك الأول قد ارتكبتِ مخالفة قانونية.

- وتكرر الأمر عندما تزوجتُ جوني سيدجويك، وتكرر مرّة أخرى عندما اقترنت بزوجي الأمريكي ريدجواي بيكر.

ونظرت إلى المحقق ديفي ثم أطلقت ضحكة تدلّ على استمتاعها العميق بالأمر وقالت: مخالفات قانونية كثيرة!

- ألم تفكّري في الحصول على الطلاق قط؟

هزّت كتفيها استهجاناً وقالت: كان كل شيء يبدو وكأنه حلم سخيف. لماذا أثير الموضوع؟ لقد أخبرت جوني بالطبع.

وكان صوتها أكثر نعومة عندما ذكرت اسمه، فسألها الأب: وماذا قال؟

- لم يهتم. لا أنا ولا جوني كنا نلتزم بالقانون كثيراً.

- ولكن الزواج باثنين مخالفة تترتب عليها عقوبات يا سيدة سيدجويك.

فنظرت إليه وضحكت قائلة: ومن الذي كان سيقلق من شيء

حدث في أيرلندا قبل سنوات؟ لقد انتهى كل شيء؛ أخذ ميكي أمواله ورحل. ألا تفهم؟ إنه يبدو مجرّد حادث صغير سخيف، حادث كنت أريد أن أنساه. لقد وضعته جانباً مع الأشياء... الأشياء الكثيرة التي لا تهمّ في الحياة.

قال الأب بصوت هادئ: وبعدها في أحد الأيام في شهر تشرين الثاني جاء مايكل غورمان مرّة أخرى وابتزّك؟

- هراء! من قال إنه ابتزني؟

دارت عينا الأب ببطء ناحية السيدة العجوز التي تجلس بهدوء وهي منتصبة جداً على كرسيها، فحدقت بيس سيدجويك إلى الآنسة ماربل وقالت: أنت؟ ماذا يمكنك أن تعرفي عن ذلك؟!

كان صوتها فضولياً أكثر من كونه يوجّه اتهاماً، فقالت الآنسة ماربل: المقاعد في هذا الفندق ذات ظهور عالية جداً، إنها مريحة جداً. لقد كنت أجلس على أحدها أمام النار في غرفة الكتابة، كنت أرتاح فقط قبل أن أخرج في صباح أحد الأيام، وجئتِ أنت لكتابة رسالة وأظن أنك لم تدركي أن في الغرفة شخصاً آخر، ولذلك سمعت حديثك مع ذلك الرجل غورمان.

- كنتِ مصغية؟

- هذا طبيعي. لِمَ لا؟ كانت غرفة عامة، وعندما فتحتِ النافذة وناديتِ الرجل من الخارج لم يكُن عندي أيّ فكرة أن ذلك سيكون حديثاً خاصاً.

حدّقت بيس إليها لحظة ثم أومأت برأسها علامة الموافقة

وقالت: هذا حسن بما فيه الكفاية، لقد فهمتُ، ولكن رغم ذلك فقد أسأتِ فهم الذي سمعتِه. إن ميكي لم يبتزني، ربما فكّر في ذلك ولكني حذّرته قبل أن يحاول.

ومرة ثانية ارتسمت على شفتيها تلك الابتسامة العريضة السخية التي جعلت وجهها بالغ الجاذبية، ثم أضافت: لقد أخفتُه.

وافقتها الآنسة ماربل قائلة: أجل، من المحتمَل أنك فعلتِ ذلك على ما أظن. لقد هددتِه بالقتل، لقد عالجتِ الموضوع (وأرجو أن لا تظني أن في قولي وقاحة) بطريقة ممتازة حقاً.

ارتفع حاجبا بيس سيدجويك وهي تضحك في حين استمرت الآنسة ماربل قائلة: ولكني لم أكن الوحيدة التي سمعتكما.

- يا إلهي! هل كان الفندق كله يصغي؟

- المقعد الآخر كان مشغولاً أيضاً.

- من الذي كان يشغله؟

أغلقت الآنسة ماربل فمها ونظرت إلى المحقق ديفي نظرة استغاثة كأنها تقول: "إذا كان يجب فعل ذلك فافعله أنت فأنا لا أستطيع". فقال ديفي: كانت ابنتك تجلس في المقعد الآخر.

خرجت صرخة حادة من بيس سيدجويك قائلة: آه، كلا!

ثم أضافت: كلا، ليس إلفيرا! لقد فهمت. نعم، فهمت، لا بدّ أنها اعتقدت...

- لقد اعتقدَت أن ما سمعَته جادّ مما جعلها تذهب إلى أيرلندا!

وتبحث عن الحقيقة، وهناك لم يكُن من الصعب اكتشاف ذلك.

مرة أخرى قالت بيس سيدجويك بهدوء: كلا، كلا.

وبعدها قالت: الطفلة المسكينة! حتى الآن لم تسألني شيئاً قط. إنها تُبقي ذلك في سرّها وتغلق عليه داخل نفسها! لو أنها فقط أخبرتني لكان بإمكاني شرح الأمر لها، كنت سأشرح لها كيف أن ذلك لم يكُن مهماً.

قال كبير المحققين ديفي: ربما لم توافقك في ذلك. أتعلمين؟ إنه شيء غريب حقاً.

ثم تابع حديثه وهو يتذكر بطريقة ثرثارة كأنه مزارع عجوز يناقش موضوع أرضه وماشيته فقال: لقد تعلمت -بعد سنوات طويلة جداً من المحاولة والخطأ- أن لا أثق في الأمر عندما يبدو بسيطاً، فالأمور البسيطة هي أمور مهمة لدرجة يصعب تصديقها في الغالب. إن شكل جريمة القتل هذه التي حدثت في تلك الليلة كانت مثل ذلك، الفتاة تقول إن شخصاً أطلق عليها النار وأخطأها فجاء الحاجب يركض لإنقاذها فلقي حتفه بالطلقة الثانية. يمكن أن يكون هذا صحيحاً بما فيه الكفاية، يمكن أن تكون هذه هي الطريقة التي رأت الفتاة الحادث بها، أما في الحقيقة فخلف المظاهر قد تبدو الأمور مختلفة.

ثم أضاف بعد هنيهة من الصمت: لقد قلتِ بحماسة شديدة الآن يا سيدة سيدجويك إنه لا يمكن أن يوجد أيّ سبب يجعل لاديسلوس مالينوسكي يحاول الاعتداء على حياة ابنتك. حسناً، سأوافقك الرأي في ذلك؛ لا أظن أنه كان لديه مثل ذلك السبب

لأنه شاب صغير من النوع الذي قد يتشاجر مع امرأة ويسحب سكيناً ويطعنها به، ولكنني لا أعتقد أنه يمكن أن يختبئ في مكان وينتظرها حتى يطلق عليها الرصاص بدم بارد. ولكن افترضي أنه أراد أن يقتل شخصاً آخر. لقد سُمعت صرخات وطلقات ولكن الذي حدث فعلاً هو أن مايكل غورمان قد قُتل. افترضي أن ذلك كان هو ما أراده القاتل أن يحدث فعلاً؛ لقد خطط مالينوسكي لذلك بعناية فاختار ليلة ضبابية واختبأ في مكان ما وانتظر حتى جاءت ابنتك إلى الشارع، وكان يعرف أنها ستأتي لأنه خطّط للأمر لكي يحدث بهذه الطريقة. وأطلق رصاصة واحدة لم يكُن القصد منها إصابة الفتاة؛ لقد كان حريصاً على أن لا يدع الرصاصة تصل إلى أيّ مكان قريب منها ولكنها ظنت أن الرصاصة أُطلقت عليها فصرخَت، وبعد أن سمع عامل الفندق صوت الرصاصة والصرخة جاء مسرعاً إلى الشارع فأطلق مالينوسكي الرصاصة على الشخص الذي جاء لكي يطلق عليه الرصاص... مايكل غورمان.

- لا أصدق كلمة واحدة مما قلت! بالله عليك لماذا يريد لاديسلوس مالينوسكي أن يطلق الرصاص على ميكي غورمان؟

قال الأب: ربما كانت عملية ابتزاز صغيرة.

- هل تقصد أن ميكي كان يبتز لاديسلوس؟ بشأن ماذا؟

قال الأب: ربما بشأن الأمور التي تجري في فندق بيرترام، ربما كان مايكل غورمان قد اكتشف الكثير من ذلك.

- أمور تجري في فندق بيرترام! ماذا تقصد بذلك؟

- لقد كانت مباراة جيّدة خُطّط لها بعناية ونُفِّذت بصورة جميلة، ولكن لا شيء يدوم إلى الأبد. لقد سألَتني الآنسة ماربل بالأمس: "ما الخطأ في هذا المكان؟". حسناً، سوف أجيب على هذا السؤال الآن: إن فندق بيرترام -في الواقع- ليس سوى مقرّ لإدارة إحدى أخطر وأكبر مؤسّسات الجريمة التي عُرفت منذ سنوات.

* * *

الفصل السابع والعشرون

ساد الصمت المكان لمدّة دقيقة أو اثنتين حتى تكلمت الآنسة ماربل قائلة بأسلوب يدلّ على ولعها بالحديث: يا له من أمر مثير للاهتمام!

التفتت بيس سيدجويك إليها قائلة: لا تبدو عليك المفاجأة يا آنسة ماربل!

- لم أفاجأ، ليس حقاً؛ كان يوجد الكثير الكثير من الأمور الغريبة التي لم تبدُ مناسبة، كان كل شيء جيّداً لدرجة يصعب تصديقها إذا كنت تعرفين ما أقصد، وهو ما يسمّونه في الدوائر المسرحية بالأداء الجميل. ولكنه كان تمثيلاً وليس حقيقياً، وكان يوجد الكثير من تلك الأمور الصغيرة كأناس يعتقدون أنهم يعرفون صديقاً أو أحد المعارف ثم يظهر لهم أنهم مخطئون...

قال ديفي: مثل هذه الأشياء يحدث، ولكنها صارت تحدث كثيراً جداً، أليس كذلك يا آنسة ماربل؟

- بلى، الناس من أمثال سيلينا هيزي يرتكبون مثل هذا الخطأ

فعلاً، ولكن كان الكثيرون من الأشخاص الآخرين يفعلون ذلك أيضاً، ولا يمكن للمرء تجاهل ملاحظة ذلك.

قال كبير المحقّقين ديفي وهو يتحدّث إلى بيس سيدجويك: إنها تلاحظ الكثير.

قالها وكأن الآنسة ماربل تؤدي دور كلبته المدلّلة، فالتفتت بيس سيدجويك إليه بحدة قائلة: ماذا كنت تقصد عندما قلت إن هذا المكان مقر إدارة مؤسّسة إجرامية؟ أنا أقول إن فندق بيرترام هو أكثر الأماكن احتراماً في العالم.

قال الأب: هذا طبيعي، لا بدّ أن يكون كذلك؛ لقد أُنفق الكثير من المال والوقت والتفكير لجعله يبدو كما هو عليه، فجمَعَ الأصالة والزيف معاً بذكاء شديد. لديكم ممثّل قدير يدير العرض في شخص هنري، وعندكم ذلك الرجل همفريز المقبول ظاهرياً على نحو رائع، ليس له سجلّ إجرامي في هذا البلد ولكنه تورط في صفقات فنادق أخرى في الخارج تثير الارتياب. يوجد بعض الممثلين البارعين يقومون بتمثيل عدة أدوار هنا. سأعترف -إن شئتِ- بأنني لا أملك منع نفسي من الشعور بالإعجاب الشديد بهذا العمل كله؛ لقد كلف هذا البلد مبلغاً كبيراً من المال، وقد سبب ذلك صداعاً مستمراً لدائرة المباحث الجنائية وللشرطة المحلية، وفي كل مرة كان يبدو أننا نصل إلى مكان ونضع إصبعنا على حادث محدّد ثم ينتهي ليكون حادثاً ليست له علاقة بأيّ شيء آخر! ولكننا ثابرنا على العمل بدأب، قطعة صغيرة هنا وأخرى هناك: مرأب كانت أكوام من لوحات أرقام السيارات تُحفَظ فيه لتُنقَل في لحظة

إلى سيارات معيّنة، شركة لديها شاحنات نقل أثاث، عربة توزيع لحوم وعربة محل بقالة، وأيضاً واحدة من عربات البريد المزيّفة، وسائق سباق يقطع مسافات هائلة خلال بضع دقائق بصورة لا تصدَّق في سيارة سباق، وفي المقابل رجل دين عجوز يقود سيارته الموريس أكسفورد القديمة ويمشي بها الهوينى، وكوخ فيه مُزارع يبيع خضاره منه ويقدّم الإسعافات الأولية إذا كان ضرورياً وهو على اتصال بطبيب يمكن الاستفادة منه...

ثم أطلق زفرة قوية وقال: لست أحتاج أن أذكرها كلها؛ فالتشعّبات لانهائية وكل هذا يمثّل نصفها فقط، والزوّار الأجانب الذين يأتون إلى فندق بيرترام هم النصف الآخر. معظمهم من أمريكا أو من دول الكومونولث، أشخاص أغنياء فوق الشبهات يأتون إلى هذا المكان مع عدد كبير من الحقائب الضخمة ثم يغادرونه ومعهم الكثير من الحقائب التي تبدو هي نفسها التي جاؤوا بها، ولكنها مختلفة في الحقيقة. سيّاح أغنياء يصلون إلى فرنسا ولا تقلقهم الجمارك لأن موظّفي الجمارك لا يزعجون السيّاح عندما يُحضرون الأموال إلى البلد، ولكن ليس نفس الأشخاص ذاتهم مرات عديدة، فالمثل يقول: «يجب أن لا ينزل الدلو إلى البئر أكثر من اللازم». لا شيء سيكون من السهل إثباته أو إثبات علاقته بالأمر، ولكن كل شيء سيكون موصولاً في النهاية. حصلنا على شيء كبداية، عائلة كابوت على سبيل المثال...

سألته بيس بحدة: وماذا عن عائلة كابوت؟

- هل تتذكّرين هذه العائلة؟ أمريكيان لطيفان جداً، الرجل

وزوجته. في الحقيقة هما لطيفان جداً، أقاما هنا السنة الماضية وقد كانا هنا هذه السنة مرة أخرى، لكنهما لن يعودا مرة ثالثة. نعم، لقد اعتقلناهما عندما وصلا إلى كاليه؛ لقد كان تجهيز حقيبة الملابس التي حملاها عملاً مُحكَماً جداً، كان فيها أكثر من ثلاثمئة ألف جنيه مخبّأة بصورة بارعة. كانت هذه هي أرباح عملية السطو على قطار بيدهامبتون، وبالطبع كان هذا مجرّد نقطة في محيط.

ثم وجه عينيه إلى عينَي الليدي بيس وقال: دعيني أخبرك بأن فندق بيرترام هو مقر قيادة الأمر كله؛ نصف موظّفيه مشاركون في الأمر وبعض النزلاء مشاركون أيضاً، بعض النزلاء هم فعلاً كما يدّعون والبعض الآخر ليسوا كذلك. على سبيل المثال نجد الزوجين كابوت الحقيقيين موجودَين الآن في يوكاتان. ثم كان موضوع رؤية بعض الأشخاص المعروفين... القاضي لدغروف على سبيل المثال: وجه مألوف بأنف منتفخ وبه نتوء صغير ومن السهل جداً انتحال شخصيته، والكاهن بينيفاذر رجل دين ريفي لطيف ذو شعر أبيض وسلوك يدلّ على شرود الذهن وله طريقته المميّزة في الكلام والتصرف وطريقته في النظر من فوق نظاراته... كلها أمور يسهل تقليدها بواسطة ممثل جيد.

سألته بيس: ولكن ماذا كانت فائدة كل هذا؟

– ألا تعرفين الإجابة حقاً؟ أليس ذلك واضحاً؟ لقد شوهد القاضي لدغروف قرب بنك حدثَت فيه عملية سطو، شخصٌ ما عرَفه وذكره. درسنا ذلك ووجدنا أن كل هذا خطأ؛ فقد كان في ذلك الوقت في مكان آخر، ولكننا لم ندرك أن هذا كان مما يسمّى

«الأخطاء المتعمَّدة» إلاّ بعد فترة طويلة. لم يدقّق أحدٌ في الأمر بشأن الرجل الذي يشبهه كثيراً (وفي الحقيقة لم يكُن يشبهه تماماً)، وبعدها أزال تنكّره وتوقف عن تمثيل دوره مما أحدث فوضى في الأمر كله. في بعض المرات كان لدينا قاضي محكمة عُليا ورئيس أساقفة وأدميرال ولواء، كلّهم شوهدوا قرب مسرح الجريمة. بعد حادث السطو على قطار بيدهامبتون وجدنا أن أربع مركبات على الأقل كانت معنيّة بالحادث قبل أن تصل الأشياء المنهوبة إلى لندن: سيارة سباق يقودها مالينوسكي شاركَت فيه، وشاحنة ذات صندوق معدني زائف، وسيارة ديملر قديمة الطراز يقودها أدميرال، وسيارة موريس أكسفورد يقودها رجلِ دين عجوز له شعر كثيف أبيض. كان الأمر كله عملية رائعة خُطِّط لها بشكل جميل. وبعد ذلك في أحد الأيام صادف العصابةَ بعضُ الحظّ السيئ؛ فقد ذهب الكاهن بينيفاذر رجل الدين مشوّش الذهن لكي يلحق بطائرته في اليوم الخطأ، فأعادوه من المطار فمشى إلى شارع كرومويل وذهب لمشاهدة فِلم، ثم عاد إلى الفندق بعد منتصف الليل وصعد إلى غرفته التي كان معه مفتاحها في جيبه وفتح الباب، ودخل لكي يلقى الصدمة عندما رأى ذلك الشخص الذي ظهر له أنه هو نفسه يجلس على كرسي مقابله! آخر شيء كانت العصابة تتوقعه هو رؤية الكاهن بينيفاذر الحقيقي وهو يدخل إلى الغرفة لأنه كان من المفترَض أن يكون في لوسيرن. كان شبيهه يستعدّ للانطلاق لكي يلعب دوره في بيدهامبتون عندما دخل الرجل الحقيقي. ولم يعرفوا ماذا يفعلون، ولكن قام أحد أعضاء العصابة بردّ فعل سريع (لعله همفريز) فضرب الرجل العجوز على رأسه فسقط فاقداً الوعي. وأظن أن أحدهم غضب لذلك، غضب بشدّة، ثم فحصوا الكاهن العجوز وقرروا أنه

قد أُغمي عليه فقط وسيفيق بعد فترة، فاستمرّوا في مخطّطهم. غادر الكاهن بينيفاذر المزيّف غرفته وخرج من الفندق وقاد سيارته إلى مسرح العمليات حيث كان عليه أن يلعب دوره في سباق التتابع. ماذا فعلوا بالكاهن بينيفاذر الحقيقي؟ هذا ما لا أعرفه. أستطيع أن أخمن فقط، وأفترض أيضاً أنه قد نُقل فيما بعد في تلك الليلة ووُضع في سيارة فأُخذ إلى كوخ المُزارع الذي كان في مكان ليس بعيداً عن المكان الذي ستحدث فيه عملية اقتحام القطار، وهناك سيكون الطبيب ساهراً على العناية به. لا بدّ أنها كانت لحظات قلق لجميع المعنيّين إلى أن استعاد وعيه ووجدوا أن ثلاثة أيام على الأقل قد فُقدت من ذاكرته.

سألت الآنسة ماربل: ألم يكن بالإمكان قتله بدلاً من ذلك؟

قال الأب: لا أعتقد أنهم كانوا سيقتلونه؛ إذ يوجد شخص لم يكُن ليسمح بحدوث ذلك. بدا واضحاً جداً منذ البداية أن الشخص الذي أدار هذه العملية كان عنده اعتراض على القتل.

قالت بيس سيدجويك: يبدو هذا رائعاً، رائعاً تماماً. ولكن لا أظن أن لديك أيّ دليل تربط به لاديسلوس مالينوسكي بهذا الهراء.

- بل عندي الكثير من الأدلّة ضدّ لاديسلوس مالينوسكي؛ إنه مهمل كما تعرفين، كان يتسكّع هنا عندما كان من الواجب عليه أن لا يكون هنا. وفي أول مناسبة جاء ليتصل بابنتك، كان لديهما شفرة خاصّة بهما.

- هراء، لقد أخبرَتك بنفسها أنها لا تعرفه.

- ربما قالت لي ذلك فعلاً ولكنه لم يكُن صحيحاً. إنها تحبّه وتريد منه أن يتزوجها.

- لا أصدق ذلك!

- لم يكن بوسعك أن تعرفي. مالينوسكي ليس من النوع الذي يخبر بكل أسراره، أما ابنتك فلا تعرفينها على الإطلاق، لقد اعترفتِ أنت نفسك بذلك. لقد كنتِ غاضبة عندما وجدت أن مالينوسكي قد جاء إلى فندق بيرترام، أليس كذلك؟

- ولماذا أغضب؟

- لأنك أنتِ العقل المدبّر لتلك الجرائم، أنتِ وهنري، أما الناحية المالية فكان الأخوان هوفمان يديرانها. لقد عملا كل الترتيبات مع البنوك الأوروبية والحسابات وكل هذه الأشياء، ولكن زعيم المجموعة، العقل الذي يديرها ويخطّط لها هو عقلك أنت أيتها الليدي سيدجويك.

نظرت بيس إليه وضحكت قائلة: لم أسمع شيئاً بمثل هذه السخافة قط.

- لا، ليس هذا سخيفاً على الإطلاق. إن لديك عقلاً وشجاعة وجراءة، لقد جرّبتِ معظم الأشياء ثم فكرت في أن تديري اهتمامك نحو الجريمة؛ فالجريمة فيها الكثير من الإثارة والكثير من المجازفة. لم يكُن المال هو الذي جذبك إليها ولكن كان ذلك من أجل اللهو، ولكنك لم تكوني تؤيدين القتل أو العنف غير الضروري. لا توجد أعمال قتل أو أعمال هجومية وحشية... فقط بعض الضربات الخفيفة

الهادئة على الرأس إذا لزم الأمر، ولكنها محسوبة بدقّة. أنتِ امرأة مثيرة للاهتمام تماماً، واحدة من المجرمين القلائل العظام الذين يثيرون الاهتمام في الحقيقة.

صمت الجميع لعدة دقائق، ثم نهضت بيس سيدجويك على قدميها وقالت: أعتقد أنك لا بدّ أن تكون مجنوناً.

ثم مدّت يدها نحو الهاتف فقال لها: هل تريدين الاتصال بمحاميك؟ هذا أفضل شيء تفعلينه قبل أن تتفوهي بالكثير.

أعادت السماعة إلى مكانها بحدة وقالت: أنا أكره المحامين! حسناً، افهمها كما تريد. نعم، لقد أدرتُ هذا العرض، لقد كنتَ على حق تماماً عندما قلت إن ذلك كان لهواً. لقد أحببت كل دقيقة فيه، لقد كان من اللهو غَرْف الأموال من البنوك والقطارات ومكاتب البريد وتلك العربات التي يسمّونها عربات الأمن... كان تخطيطاً وتنفيذاً مسلّيين تسلية عظيمة، وأنا سعيدة لأنني حصلت عليها. في الغالب كان الشخص يذهب إلى العمل مرة واحدة، هذا ما قلتَه أنت الآن، أليس كذلك؟ أعتقد أن هذا صحيح. حسناً، لقد أدركتَ مواهبي جيّداً، ولكنك أخطأتَ عندما قلت إن لاديسلوس مالينوسكي أطلق الرصاص على مايكل غورمان. لاديسلوس لم يفعل، **بل أنا التي فعلت!**

ثم ضحكت ضحكة مفاجئة وعالية وقالت: لا يهمّ ماذا فعل وبماذا هدّد، لقد أخبرتُه أنني سأقتله. الآنسة ماربل سمعَتني، وقد قتلتُه فعلاً. لقد فعلت الكثير ممّا قلتَ إن لاديسلوس فعله، اختبأتُ في ذلك المكان، وعندما مرّت إلفيرا أطلقت رصاصة واحدة

طائشة، وعندما صرخَت وجاء ميكي يركض إلى الشارع حصلت عليه في المكان الذي أردته أن يكون فيه وتركته يتلقّاها. لديّ مفاتيح لجميع مداخل الفندق بالطبع، لقد تسللت من الباب الذي يُطِلّ على المكان وصعدت إلى غرفتي، ولم يخطر ببالي أنك ستتعقب مسدس لاديسلوس أو أنك ستشك فيه قطّ. لقد أخذتُه من سيارته دون علمه، ولكني أؤكّد لك أنني لم تكُن عندي أيّ فكرة عن إلقاء الشبهة عليه.

ثم التفتت نحو الآنسة ماربل بقوة وقالت: أنتِ شاهدة على ما قلتُه، تذكّري ذلك: لقد قتلتُ غورمان.

قال ديفي: أو لعلّك تقولين ذلك لأنك تحبين ماليتوسكي.

فأجابت بسرعة وحدّة: أنا لا أحبه، أنا صديقته المقرّبة فقط، هذا كل ما في الأمر. طوال حياتي أحببت رجلاً واحداً فقط، جون سيدجويك.

وتغيّر صوتها وهدأ عندما نطقت باسمه، ثم أضافت: ولكن لاديسلوس صديقي ولا أريد أن يُحكَم عليه في جريمة لم يفعلها. لقد قتلتُ مايكل غورمان، لقد قلت ذلك وقد سمعَتني الآنسة ماربل، والآن يا عزيزي المحقق...

وارتفع صوتها على نحو فيه إثارة ودوّت ضحكتها وقالت: اقبض عليّ إذا كنت تستطيع ذلك!

وبحركة قوية من يدها رمت جهاز الهاتف الثقيل على النافذة فتحطّم الزجاج، وقبل أن ينهض الأب على قدميه كانت قد خرجت من النافذة واندفعت على طول الإفريز الضيّق. وبسرعة مفاجئة ورغم

ضخامة جسمه تحرّك ديفي إلى النافذة الأخرى وأخرج رأسه منها، وفي الوقت نفسه أطلق صافرته التي كان قد أخرجها من جيبه.

وقفت الآنسة ماربل على قدميها بصعوبة بعد وقت قصير وانضمّت إليه يحدّقان معاً إلى واجهة مبنى فندق بيرترام. صاحت الآنسة ماربل: سوف تسقط! إنها تتسلق ماسورة المجاري، ولكن لماذا تصعد؟

- إنها متجهة إلى السطح؛ إنه فرصتها الوحيدة وهي تعرف ذلك. يا إلهي! انظري إليها، إنها تتسلق كالقطة! إنها تبدو كالذبابة على الجدار... أيّ مجازفة هذه التي تقوم بها!

همست الآنسة ماربل وعيناها نصف مغمضتين: سوف تقع، لا تستطيع أن تقوم بذلك.

اختفت المرأة التي كانا يراقبانها عن الأنظار وعاد الأب إلى الغرفة فسألته الآنسة ماربل: ألا تريد أن تذهب و...

هزّ الأب رأسه بالنفي قائلاً: أيّ فائدة سأجنيها بجسمي الضخم هذا؟ لقد وضعتُ رجالي على استعداد لشيء مثل هذا وهُم يعرفون ماذا يفعلون. خلال دقائق قليلة سنعرف، ولن أفاجأ إن استطاعت أن تتغلب عليهم؛ إنها امرأة واحدة في الألف كما تعرفين.

ثم تنهّد وقال: إنها متوحشة، يا إلهي! لدينا بعض منهنّ في كل جيل، لا تستطيعين ترويضهن، لا تستطيعين دمجهنّ في المجتمع وجعلهنّ يعشن في ظلّ النظام والقانون! إنهن يسرن في طريقهن الخاص؛ إذا كنّ صالحات فإنهن يتفرغن للعناية بالمجذومين

والمحتاجين، أما إذا كان حظهن سيئاً فإنهن يرتكبن الأعمال الوحشية التي لا تحبين سماعها... وأحياناً يكنّ مجرّد شريرات! أعتقد أن أمرهنّ كان سيصبح طبيعياً لو وُلدنَ في عصر آخر عندما كان كل واحد يتصرف كما يشاء، كل واحد يقاتل من أجل البقاء... ذلك العالم كان يناسبهن، كانت الواحدة من هؤلاء ستشعر أنها في بيتها في مثل هذا العالم، ولكنهنّ لا يشعرن بذلك في عالمنا هذا.

- هل كنت تعرف ماذا كانت ستفعل حقاً؟

- في الحقيقة لا. كانت تلك إحدى مواهبها، التصرفات غير المتوقّعة. لا بدّ أنها فكرت في ذلك، كانت تعرف ماذا سيحدث ولذلك جلست تنظر إلينا، تُبقي الحديث دائراً وتفكّر، تفكّر وتخطّط، فهل يمكن أن أتوقع ما فعلت؟

وتوقف عندما سمع صوتاً مفاجئاً لمحرك سيارة يصحبه صرير عجلات وصوت سيارة سباق كبيرة، فأخرج رأسه من النافذة وقال: لقد فعلَتها، لقد وصلت إلى سيارتها.

ارتفع المزيد من الأصوات في حين كانت السيارة تدور عند الركن على عجلتين محدِثةً صوتاً عالياً. انطلقت السيارة البيضاء الجميلة المتوحشة تشق الطريق فقال الأب: ستقتل أحداً، ستقتل الكثير من الناس إذا لم تقتل نفسها أيضاً.

قالت الآنسة ماربل: إنني أتساءل!

- إنها سائقة ماهرة بالطبع، سائقة جيّدة ولعينة... بل طائشة، هذه هي الكلمة الأصوب.

سمعا صوت سيارة السباق يبتعد وصوت بوقها القويّ يضعف شيئاً فشيئاً وسمعا صرخات وصيحات وأصوات كوابح وسيارات تُحدِث أصواتاً صاخبة وتقف فجأة، وأخيراً صوتاً عالياً لتوقف عجلات وصوت محرّك و...

قال ديفي: لقد اصطدَمت!

وقف هناك بهدوء شديد ينتظر بصبر، كان ذلك الصبر هو الصفة المميّزة لصاحب الجسم الضخم. ووقفت الآنسة ماربل صامتة بجانبه، وكسباق التتابع جاءت الكلمات من الشارع من أسفل: رفع رجل على الرصيف المقابل بصره ناحية كبير المحقّقين ديفي وأعطاه إشارات سريعة بيده فقال الأب متثاقلاً: لقد تلقّتها، ماتت! ارتطمت بحاجز المتنزّه وهي تسير بسرعة ٩٠ ميلاً في الساعة، لا خسائر أخرى باستثناء بعض الاصطدامات الخفيفة. قيادة رائعة، نعم، لقد ماتت.

التفت إلى الغرفة وقال بحزن: حسناً، لقد علمتِ بقصّتها أولاً، لقد سمعتِها.

قالت الآنسة ماربل: أجل لقد سمعتُها.

وتوقفت لحظة ثم قالت بهدوء: بالطبع لم يكُن ذلك صحيحاً.

نظر الأب إليها وقال: أنتِ لا تصدّقينها، أليس كذلك؟

- هل تصدّقها أنت؟

- لا، لا، لم تكن القصةَ الصحيحة. لقد اختلقَت ذلك حتى

تناسب القضية بالضبط، ولكنه لم يكُن صحيحاً؛ إنها لم تطلق النار على مايكل غورمان. هل تعرفين من الذي قتله؟

قالت الآنسة ماربل: بالطبع أعرف، إنها الفتاة.

- آه، متى بدأت تعتقدين ذلك؟

- كنت دائماً أتساءل.

- وأنا كذلك. لقد كانت ممتلئة بالخوف في تلك الليلة، والكذب الذي روته كان كذباً غير متقَن، ولكني لم أستطع أن أجد لديها دافعاً للجريمة في البداية.

قالت الآنسة ماربل: هذا ما حيّرني أيضاً. لقد اكتشفَت أن زواج أمها كان زواجاً غير قانوني، ولكن هل ترتكب فتاةٌ جريمةَ قتل لهذا السبب؟ ليس في أيامنا هذه، وأعتقد أن في الموضوع مالاً بجانب ذلك.

قال ديفي: أجل، كان الدافع هو المال. لقد ترك لها والدها ثروة ضخمة، وعندما اكتشفَت أن أمها كانت متزوجة بمايكل غورمان أدركت أن زواجها بكونستون لم يكُن قانونياً، فاعتقدت أن ذلك يعني أن المال لن يؤول إليها لأنها لم تكُن ابنة شرعية على الرغم من أنها كانت ابنته. ولكنها كانت مخطئة؛ لقد صادفَتنا قضية من هذا النوع من قبل، إن هذا يعتمد على شروط الوصيّة، وقد ترك كونستون المال لها بصورة واضحة وسمّاها بالاسم. كانت ستحصل على المال بالتأكيد ولكنها لم تكُن تعرف ذلك، ولم تكُن لتسمح بفقد هذا المال.

- لماذا كانت تحتاج إليه كثيراً؟

قال ديفي متجهّماً: حتى تشتري لاديسلوس مالينوسكي. كان سيتزوجها من أجل مالها ولم يكُن ليتزوجها دونه. تلك الفتاة لم تكُن حمقاء بل كانت تعرف ذلك، ولكنها كانت تريده في كل الأحوال؛ كانت تحبه حباً شديداً!

قالت الآنسة ماربل: أعرف ذلك.

ثم قالت تشرح له: لقد رأيتُ وجهها في متنزّه باترسي في ذلك اليوم.

- لقد عرفَت أنها بالمال ستحصل عليه وبغير المال ستفقده، ولذلك خطّطَت لجريمة قتل بدم بارد. إنها لم تختبئ في المنطقة بالطبع، لم يكُن في المنطقة أحد. لقد وقفت فقط بجانب الحاجز وأطلقت النار وصرخت، وعندما جاء مايكل غورمان إلى الشارع مسرعاً من الفندق أطلقت عليه رصاصة عن قرب ثم استمرّت في الصراخ. لقد كانت رابطة الجأش ولم يكُن عندها أيّ فكرة عن احتمال إدانة الشابّ لاديسلوس. لقد أخذت مسدسه لأنها كانت الطريقة الوحيدة للحصول على مسدس بسهولة ولم تحلم قط أنه سيُشتبَه به بارتكاب الجريمة أو أنه كان موجوداً في مكان قريب في تلك الليلة. ربما ظنت أن القضية ستسجَّل ضدّ أحد اللصوص الذين يستغلّون حالة الضباب. نعم، لقد كانت رابطة الجأش، ولكنها كانت خائفة في تلك الليلة مع كل ذلك، وكانت أمها خائفة عليها.

- وماذا ستفعل الآن؟

- أنا أعرف أنها فعلتها ولكن ليس عندي دليل. قد تفوز بحظ المبتدئين، إذ يبدو أن القانون الآن يسير وفق مبدأ السماح للكلب بعضّة واحدة... حسبما يوافق الاصطلاحات البشرية. إن محامياً ضليعاً ذا خبرة يمكن أن يقوم بأداء مسرحية عاطفية كبيرة ويقول إنها فتاة صغيرة وإن نشأتها لم تكن طبيعية، وكما تعرفين فهي فتاة جميلة! ولكن من المحتمَل أن لا تصل الأمور إلى ذلك؛ لا يوجد دليل. أنتِ مثلاً سوف يتمّ استدعاؤك كشاهدة، شاهدة على الذي قالته أمّها، على اعتراف أمها بارتكاب الجريمة.

قالت الآنسة ماربل: أعرف، لقد أقحمَتني في هذا الأمر، أليس كذلك؟ لقد اختارت الموت لنفسها من أجل حرّية ابنتها، وأدخلَت ذلك في نفسي عنوة كأنه طلب إنسان يُحتضَر.

فُتح الباب المتصل بغرفة النوم ودخلت إلفيرا وشعرها الأشقر يتهدّل على جانبَي وجهها. نقلت بصرها من واحد إلى الآخر وقالت: لقد سمعت صوت سيارة وتصادماً وأصوات أناس يصرخون، هل وقع حادث؟

قال كبير المحقّقين ديفي بصورة رسمية: أنا آسف لأن أخبرك بأن أمك قد ماتت يا آنسة بليك.

لهثت إلفيرا قليلاً ثم قالت باعتراض باهت مشكوك فيه: آه، لا!

قال ديفي: كانت تهرب منّا، وقبل هروبها اعترفت بقتل مايكل غورمان.

- هل تقصد أنها قالت... إنها هي التي...

- نعم، هذا ما قالته. هل لديك أيّ شيء تضيفينه؟

نظرت إلفيرا إليه طويلاً وهزّت رأسها بصورة ضعيفة قائلة: لا، ليس لديّ ما أضيفه.

ثم دارت وخرجت من الغرفة فقالت الآنسة ماربل: حسناً، هل ستتركها تفلت من العقوبة؟

بدا أن الأب وقف مع نفسه وقفة مفاجئة فضرب بقبضته فوق الطاولة وقال كأنه يزأر: كلا، أقسم إنني لن أتركها.

أومأت الآنسة ماربل برأسها علامة الموافقة ببطء وهدوء وقالت: ليرحمها الله!

❊ ❊ ❊